PDF Eraser Free
Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com
goodReads بالعربي
goodreads-ar.com

بدرية البدري

العبور الأخير

ارتبكت وخفت، علمت أنه إن كبر سيقتلني، عيناه الواسعتان بلونهما العسلي الغامق كعسل سدرٍ لم يحل عليه الحول وَشَتَا لي بذلك، نظراته التي كان يسددها باتجاهي أقسمتْ على ذلك، لستُ خبيراً بلغة العيون ولم يسبق لي أن تمكنت من قراءة عين أحدهم، ولكن هذا الطفل كان مختلفاً، يمكنكَ قراءة عينيه من النظرة الأولى؛ قتلته، نعم؛ أعترف لم يكن أمامي خيار آخر، كان يغني؛ تلك الأغنية أعرفها جيداً، اعتدت على سماعها دائماً في كنيسة مجاورة لبيتنا كلما مات أحدهم.

ISBN 978-9953-93-014-5
9 789953 930145

PDF Eraser Free

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

بدرية البدري

العبور الأخير

رواية

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

مؤسسة الانتشار العربي

PDF Eraser Free

العبور الأخير

رواية

بدرية البدري

الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-9953-93-014-5

الطبعة الأولى 2017

PDF Eraser Free

(1)

خطوتك الأولى في الحياة، هي
نفسها الخطوة الأولى في طريقك
إلى الموت.

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

ثمة أضواء تجري نحوي، إنها المرة الأولى التي أرى بها مصابيحَ لها أرجل، لا؛ أنا لا أشاهد فيلم كرتون، إنها مصابيحُ حقيقية، حتى أنها من فرط سرعتها تلهثُ، أرى ألسنتها تتدلى، والغزير من اللعاب يسيل وكأنها توشك أن تنقضّ على أحدهم وتفترسه بأنيابها الحادة. أحاول الهرب منها، أكتشفُ أنني بلا رجلين، يا إلهي؛ هل نسيت قدميّ في المنزل حين خرجت؟ أيعقل أنني لم أنتعلهما كما أحرص دائمًا على انتعال حذائي؟ أم أنني تركتهما في السوق رهينةً لدى أحد الباعة المتكدّسين على جنبات الشارع المزدحم بالباعة غير الشرعيين، هل سرقهما أحدهم؟ بائع الأحذية الجلدية الرخيصة مثلًا؟ لا بد أنه هو؛ فقد كان حذاؤُه مهترئًا بشكلٍ يُغريه على سلب قدمي التي لم ينجح حذائي المكشوف في إخفاء تشققها؛ فلبست جواربَ صوفية طويلة وخشنة لا تظهر من تيبّس قدمي شيئًا، ولكن ما الذي سيفعله بائع الأحذية بقدمي؟ هل هو حذائي الجديد ما أغراه بها؟ لماذا لم يطلب الحذاء مني؟ كنت أعطيته إياه دون مقابل، وربما كنتُ اشتريتُ منه حذاءً آخر بدلًا منه، وبالتالي كان سيضرب عصفورين بحجر واحد، بدلًا من أخذ الحذاء وقدمي معه. أليس من المُحتمل أن يكون بائع أسماك السردين؟

PDF Eraser Free

لقد اعتدت أن أراه دائمًا بلا حذاء، خطواته المستعجلة وسط برك الماء الذائب من السمك المجمّد توحي باعتياده ملمس الدماء، تبًا! هو لا يعلم أني قد يُغمى عليّ إن لمسته بشكلٍ ما، فكيف لو مشيت عليه بقدمين حافيتين؟ في طفولتي كنتُ أفقد وعيي كلما تراءى لي خيطُ دمٍ بسببِ جُرحٍ في إصبعي أو شجٍّ في جبيني كالذي حدث بعد سقوطي من أعلى شجرةٍ انكسر بي أحد أغصانها الذي كنتُ أقف عليه للعبث بعشِ طائرٍ وتكسير بيضه الملوّن بحبيبات سوداء تخالط بياضه، كل حبّةٍ لا تشبه أختها إلا في اللون، جميعها كان يوشك أن يفقس عن فراخ صغيرة، كثيرًا ما حدث هذا الأمر أثناء هروبي من درس الشيخ ياسين، رغبةً في تفادي عصاه التي لا تضِلُّ طريقها إلى ظهري أبدًا لأني لم أحفظ سورة الشمس أو الأعلى وحتى البينة التي ادّعى الشيخ ياسين أن الرُّضع قادرون على حفظها كنت أواجه صعوبة في تسكين آياتها بأعمق نقطةٍ في روحي، هذه النقطة التي لم أهتدِ إليها يومًا، ولست واثقًا بأنها موجودةٌ أصلًا. السورة الوحيدة التي حفظتها قبل أن يُتمَّ الشيخ ياسين تلاوتها هي سورة الإخلاص، وجدتني بكثير من الفرح أرفع يدي وصوتي:

- أنا يا شيخ ياسين، أنا، أنا.

ومرة أخرى وجّه عصاه لي:

- ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كم مرة عليّ أن أرددها لكم لتستوعبوها؟

ورغم ذلك أصررتُ على تلاوتها، والتلذذ بفرحتي

PDF Eraser Free

الكبيرة حينذاك، أعين رفاقي التي كانت ترقبني من طرفٍ خفي سببٌ آخر لسعادةٍ استمرت معي عمري كله. سعادتي الغامرة أنستني وجع عصاه رغم بقاء أثرها على يدي اليسرى أسفل كتفي مباشرة حيث استقرت عصاه قبل أن يرفعها ويعيدها إلى مخبئها في جواره، ولم ينسَ الشيخ ياسين أن يُخبر أبي بإنجازي لينقُده بعض المال مكافأة له على جهده معي، وينقدني مبلغًا يفوقه، مُعبّرًا عن فخره بابنه النجيب، موصيًا إياي بكتمان الأمر عن الشيخ ياسين لكي لا يعتبر الأمر إهانةً له، وكرجلٍ صغير وجب عليه أن يحفظ سر والده، ظل الأمر حبيس صدري حتى هذه اللحظة.

كنت أتلهّى بأي عملٍ أقضي به وقتي قبل أن يحين موعد عودتي إلى البيت لكي لا تكتشف أمي أنني لم أذهب لحفظ القرآن، مُتسلقًا الأشجار تارةً وقاطفًا ثمرة مُتدلّية كان صاحبها يُمنّي نفسَه بأن يُطعمها لصغاره تارةً أخرى، أو تاركًا جسدي لطين الساقية ليستعمره قبل أن تنهال عليه لِيفةُ أمي مُعامِلةً إياه معاملةَ العدوِّ الذي يستوجب طرده.

إنها تجري وتجري وأنا مُتسمرٌ كشجرةٍ تجابه الموت وقوفًا، لا حيلةَ لي سوى التجمّدِ في مكاني واللوذ بضربات قلبي التي بدأت تُصدر ضجيجًا أصمّني عما يجري حولي، تقترب، تُعميني عن رؤيتها بوضوح ولا تمنحني فرصةً حتى لاستراق النظر إليها، أُغمضُ عينيّ بقوة، أضغطُ بجفنيّ عليهما، وكأن كل قوتي تركزت فيهما في هذه اللحظة؛ أُديرُ جسدي بأكمله عنها، أحاول تخبئتي بضمِ يديّ ووضعهما

PDF Eraser Free

متقاربتين على ركبتيّ بعد أن ألصقتهما معًا، مُكوِّرًا جسدي كمن يلوذ بركعة طائشة قد تُصيب صلواتها، أخيرًا أجدُ قدميّ، يبدو أنني لم أنسهما في المنزل، ولم يسلبني إياهما أحد الباعة، ولا حتى بائع الملابس المستعملة والمكوية جيدًا بعد غسلها جميعها في حوضٍ قديم بإحدى المزارع المُهملة، وبشكلٍ توحي البقع التي ما زالت عالقة بها أنه كان سريعًا وغيرَ متقنٍ أبدًا وبالتأكيد دون مراعاة لقواعد الصحة والسلامة، فمن نحن حتى يهتم الباعة بتجنيبنا الأمراض والموت، لسنا سوى بعض المارة الذين يُلقون على بضائعهم نظرة خاطفة ويرحلون دون أن يشتروا منهم ـ إلا نادرًا ـ ما يُغريهم بالمحافظة علينا، وحين يفعل أحدنا ذلك فلا بد أن يكون جِلده ودمه قد اعتادا العدوى حتى ما عادت هاجسًا يؤرقه، جميعنا لا يخشى ظهور البقع على جسمه المُسْمَرِّ من وهج الشمس ناهيك عن البثور الطفيفة، لم نعدْ نفرق بين تلك الحكَّة الآتية من عدوى معينة أو من ضربة شمسٍ زائدة أو حتى تلك المصاحبة للسعة بعوضة تعتاش من دمائنا ولا تموت مُتسممة، كم سمعنا جملة لا تكن ليّنًا كالنساء لدى محاولة حَك ما تركته تلك الملابس على أجسادنا المترفة كما يصفونها بعد إصابة أحدنا بالحساسية، لذلك فتجارة هؤلاء لا تبور أبدًا.

أحاول رفع قدميّ اللتين ما تزالا عالقتين بالرصيف، هل من تفاحةٍ قد تسقط وتنقذني من هذه الجاذبية المقيتة قبل أن تقضي عليّ؟، هل يُعقل أن يظل جسمي الساكنُ ساكنًا؟، ألن

PDF Eraser Free

تنجح قوةُ الضوء القادمة نحوي في تحريكه؟ حسنًا إذًا؛ طالما فشل نيوتن في نظريته بأن لكل فعلٍ ردة فعلٍ مساوية له في المقدار ومضادة له في الاتجاه، فليأتِ آينشتاين ليخلصني من سطوة (الزَّمَكان) ما دامت سرعة الضوء تشكل الحد الأقصى لحركة الأجسام وانتقال الطاقة، لعل طاقةً مهولةً تنتقل إلى جسدي من سرعة الضوء القادم نحوي؛ لأستجيب لها وأرفع قدمي عن الأرض وأجري قبل أن تلتهمني الأضواء وأجد نفسي لقمةً سائغة لها، أو لا أجدها لا أعلم ما ستؤول إليه حالي إن لم أنجح في رفع قدمي عن الأرض والآن حالًا، حتى الرياضيات والفيزياء التي طالما عشقتها وتميزتُ بها لا تنجدني الآن، كل شيء يتخلى عني، فخري بكوني أكثر من يحفظ القوانين ويجيد تطبيقها، اليد التي كانت تُمسك بيدي انفلتت منها، إنني الآن وحدي، أواجهُ أضواء لا أفهم سر عدائها لي، أنا الذي يحمل تذكرة عودته في يده اليسرى، ويُسلم يده اليمنى لصديقٍ يتركها في أول مواجهة بينه وبين أضواءٍ تُصِرُّ على النيل مني مهما كان الثمن، ولو كانت كفّ صديق يفشل في أول اختبارٍ تفاجئه به الحياة، وكأن هذه الكف لم تكن نفسها التي أيقظته ليسابق النهار من أجل اكتساب الرزق، ولا هي التي رافقته لصلاة الجمعة في جامع المدينة التي استقرت بها بعد عناءِ سنين من التشرّد من قريةٍ إلى أخرى، ومن جورِ مدينةٍ لصخبِ مدينة ثانية ترمينا لقمةً سائغةً لفكِّ مدينةٍ ثالثة تتلقفنا بفمٍ لا يملُّ لوْك أرواحنا أبدًا.

عيناي تكادان تفقدان قدرتهما على الرؤية، بل إنني لا

PDF Eraser Free

أرى، تتلوّن عيناي بالبياضِ المُحيط بي، لا بد من اتخاذ قرارٍ عاجل قبل أن تصل الأضواء إليّ وتنال ما تشاؤهُ مني، يجب أن أهرب، أن أُطلق روحي للريح وأجري، أسرع كثيرًا، أكثر مما يجب ربما، أشعرُ بي خفيفًا جدًا، لا أستطيع السيطرة على جسدي الذي بدأ يعلو من فرط سرعته، يبدو أنه استجاب لسرعة الضوء أخيرًا، فلترقدْ بسلام يا أينشتاين، ها هي نظريتك تتحقق، لم تخذلني الفيزياء ًالتي أحببتها، ولم يكن حفظي لقوانينها عبثًا لا فائدة منه، ليتها أمي تعرف ذلك، لتنسى لومها لي بأني أحفظ هذه القوانين أكثر مما أحفظ القرآن والأذكار والأدعية التي قد تحفظني حين يباغتني سوءٌ قد يشبه ضوءًا لا أعلم سر عدائه معي، أُغمضُ عينيّ، يُصادفني وجهُ أمي وهي ترفع كفيها إلى السماء في تضرعٍ يُباغته البكاء بصوتٍ متهدج وأنفاس شاحبة وهي تطلب من الله أن يُعيدَني إليها لتقرَّ عينُها بي وبأطفالي الذين حلمت كثيرًا أن يملأوا البيت بالضجيج فتجري خلفهم بعكازها العريض ثم حين تقترب منهم ترفع عكازها إلى الأعلى فينكمشون على أنفسهم وفجأة ينفجر الجميع بالضحك لأن الجدّةَ الطيبة اعتادت أن تشاكسَهم ليستسلموا لحضنها الدافئ وحكاياتها التي لا تمل من ترديد أحداثِها، تلك الحكاياتُ التي حفظناها عن ظهر غيب قبل أن نبلغ السابعة من العمر؛ الشاطر حسن، وعنتر وعبلة، وقصة الأمير الذي تحوّله الساحرة الشريرة إلى ضفدع، ولا خلاص له إلا بفتاة تحبه كما هو، تُحبُّ ضفدعًا وتقرر الزواج به، يا للخُرافة! أو قصة الساحرة الطيبة التي تحول الفتاة اليتيمة

PDF Eraser Free

الفقيرة إلى أميرة وتساعدها كي تتزوج من الأمير بعد أن يتعرف إليها في الحفلة التي أقامها لاختيار زوجة لا يمل النظر إليها ولا يهنأ بالعيش بعيدًا عنها، وما إن تقع عينه عليها حتى يحبها ويختارها لتشاركه في عرشه دون مبالاةٍ بفقرها ويُتمها؛ مسكينة أمي، طيبة كثيرًا، لا تعلم أن الفقراء لم يُخلقوا للحب، ولا تعلم أنه لا وجود للساحرات الطيبات. بعثت لي أمي صوتها في رسالتها الأخيرة كان يبدو مُنهكًا من قلة البوح قالت لي إنها تخشى أن يُغيّبَها الموتُ قبل أن أعود، وإنها خائفةٌ من ذلك الحلم الذي أقضّ مضجعها قبل ليلتين حين رأتني أطير على جناح طائرٍ كبير، تقول أمي إنه يشبه الرخّ في حكايات السندباد، ولكنه أكبر قليلًا، ثم توصيني بحورية خيرًا؛ حورية ابنة جيراننا التي حلمتُ بها تُشاركني في حياتي فأبت إلا أن تكون جُرحًا لم أقوَ على البُرْءِ منه، لو تعلم كم أود الآن احتضانها، أن أصرخ عاليًا:

- أحبكِ، سامحيني لأني هربتُ من عينيكِ حين نفضتِني عن روحكِ كما تنفضين بقايا الغبار عن ثوبكِ الأزرق الأنيق، كملكة لا ينافسها في عرشها أحد تبدين بهِ، ورغم أن الغبار يعشق الألوان الغامقة ليبسط نفوذه عليها، إلا أنه لا يهنأ على ثوبك حين تبدأ يداكِ الصغيرتان بأصابعهما النحيلة والقصيرة محاربته كلما حاول الاقتراب، رباه! كم كنت سأمتنُّ لتلك اليدين بعظامهما البارزة من شدة النحول لو أنها أمسكت يدي حينئذ ولم تفلتني، لو أنكِ تشبّثتِ بهذا الرجل الضعيف

PDF Eraser Free

إلا من حبك، لو أنكِ لم تُديري عينيكِ عني وأنا أركعُ أمامَك بِذُلِّ الخاشعين، هاتي يديك الآن لنطير معًا، فالسماء شاسعة وأنا لا أحتملها وحدي، كل هذا العُلوِّ يُخيفني، تعلمين أني لا أحب المرتفعات التي تحبين، غير مرة كاد قلبي يقف وأنتِ تُصرِّين على ركوب الألعاب الخطيرة والعالية، فأضطر لأن أرافق طيشكِ لأحميكِ من أي سوءٍ قد يُصيبكِ وأنتِ هناك في الأعلى بعيدًا عني ـ حدث هذا الأمر كثيرًا حين كنا صِغارًا لا تعرفين من الأمانِ سواي ولا أعرف من الكون سواكِ ـ ترى هل كنتُ سأشعر بهذا الخوف الذي يُطبق على صدري الآن لو أنكِ كنتِ معي تضحكين كما كنتِ تضحكين في ألعاب الموت ـ كما كان يحلو لي أن أسميها ـ لأني أشعر أن بيننا وبين الموت شعرةً وهي تعلو بنا إلى السماء السابعة ثم تهوي بنا فجأةً بسرعة جنونية إلى سابع أرضٍ قد تحتوي رُفاتنا المُتناثر أجزاء يصعب تجميعها إن حدثَ وانفلت بُرغيٌّ صغيرٌ واحدٌ منها، دعكِ من الألعاب الآن، فمحاولة الربط بين تلك الألعاب وحالي الآن ليست إلا محاولة عبثية للتشبث بالحياة، هل قلتُ حياة؟ ترى عن أي حياةٍ أتحدث؟ حياتي التي تمنيتها معك؟ أطفالنا الذين يرفضون النوم قبل أن نحكي لهم ثلاث حكاياتٍ على الأقل فأحملهم إلى أمي لأن صوتها سيلٌ من الحكايات، وتبتسمين حين أعود وحيدًا بعد أن أكون قد تركتهم معها لأحظى بوجبةٍ

PDF Eraser Free

شهية تليق بعاشق، الطريق غير الممهد لبيتنا؛ هل كنت لأشتكي من وعورته وهو يوصلني في نهايته إليكِ؟ الضحكات التي سنتقاسمها معًا، ثم حين نقف ننظر أحدنا إلى الآخر كمحارب ينعم باستراحته ثم نواصل الضحك بصوتٍ أعلى، هل تعرفين لماذا كنا نضحك؟ ماذا؟ ألا تذكرين؟ أنا أيضًا لا أذكر، لا بأس؛ فلنضحك، ودعكِ من الأمثال الفارغة التي تقول إن الضحك بلا سبب قلة أدب، فالحياة ستضحك علينا إن لم نضحك لها.

ليت حياتي معك كانت كما تمنيتُ فأنا متلبس بالحياة التي نفيتِني إليها، متورطٌ فيها وما كنتِ لتحتمليها لو أنكِ عِشتِها معي. أين رحل صوتكِ؟ لماذا لا يأتيني باردًا كالثلج بالبحةِ نفسها حين قلتِ لي: أعتذر، عليكَ أن تُفكِّر في المستقبل قبل أن تفكر في الزواج، أن تُكوِّن نفسك، أن أطمئن إلى قدرتك المادية قبل أن أُفكِّر في الارتباط بك، لا أريد حياةً كالتي أحياها الآن، فكّر في السفر إلى بلدٍ خليجي تعود منه وأحلامك في يدك، حينئذ سأفكر بجدّيّةٍ في الزواج منك، ولكني لا أعدك بشيء، لا أنكر أني أحبك، من يدري؛ قد لا يكون حبًا، ربما اعتدتُ وجودك، عمومًا؛ الحب وحده لا يكفي ليبني بيتًا أو يحقق حلمًا، أنت تفهمني بالتأكيد.

وأوليتِ الحبَّ ظهركِ ومضيتِ، كانت المرة الأولى التي أقف فيها أمامكِ ولا أنظر إليك، وكأن قِطعًا من الليلِ غشّت

PDF Eraser Free

على عيني، يومئذ أحصيتُ ذرات الرمل التي جمدت على الرصيف، والأوراق التي نفضتها الأشجار تحت قدمي وكأنها كانت تضحك عليّ أنا المنفوضُ من دمكِ لا حيلة لأحدٍ على جمعي مُجددًا، أذكرُ أنني يومها كنت أبتلعُ دمعي خشية أن يتجمّع حولي المارة كما يتجمع الذباب على الطعام المكشوف أو الأجساد المتعفنة، تراني ماذا أشبه؟ الغذاء المكشوف أم الجسد المتعفن؟ لا بأس، لا يهم؛ فالذباب سيتجمّع بكل الأحوال دون أن أسأله سببًا وجيهًا أو أحاول طرده عني، ماذا لو أنني لم أسمح لكِ بتركي منبوذًا ليس لي من الأمر شيء؟ لو أنني جريتُ خلفكِ واستحلفتكِ بكل عزيزٍ على قلبكِ أن ترحميني. ردّي إليّ الحياة ولا تمضي هكذا دون أن تلتفتي خلفكِ لتشاهدي أثر جريمتكِ على الأقل، ألا يعود المجرم إلى ساحة الجريمة دائمًا ليطمئن أن لا أثرَ تركه خلفه؟ لماذا لا تعودين لتري أن الأثرَ باقٍ ولن يمحوه رحيلكِ، أرغبُ في مناداتك، أفتح فمي لأصرخ فيكِ:

- حورية توقفي، باللهِ عليك توقفي، سأموت إن لم تعودي، سـ ...

ولكنّ وجه أبي ـ الراحل منذ عمرٍ ليس بالطويل قضيته في الشقاء بعده ـ يقفُ أمامي كما كان يقف وأنا صغير لينهرني حين أبكي لأن أمجد ابن جيراننا ضربني وأخذ مني كرتي الجديدة ولم يسمح لي باللعب بها، أمجد الذي يكبرني بعامين يبدو لمن يراه وكأنه يكبرني بعشرة أعوام نظرًا إلى ضخامته وضآلة جسدي، ورغم أن أمجدَ غنيٌّ يمتلك ما لا يملكه سواه

PDF Eraser Free

في الحي، إلا أنه كان دائم النظر إلى ما يملكه الآخرون، يقف أبي الآن ليقول لي:

- أنت رجل؛ والرجال لا يبكون، اكتم صوتك وابتسم، وثق بأنها ستعود، ستأتيك يومًا وأنت من سيرفضها، لا تبكِ؛ فالبكاء لا يليق بالحب.

من قال لك يا أبي إن البكاء لا يليق بالحب؟ أتغاضى عن نصيحة أبي هذه المرة فقط، سامحني يا أبي، أصرخ، صوتي لا يصل إلى أذني، أحاول التشبث بأي شيء، ولكن لا شيء إلا الهواء والعدم، تتخبط يداي في مساحاتٍ شاسعة من الفراغ اللامتناهي، عتمةٌ تدور بي كإعصارٍ لا يهدأ ولا يستقر، أرفع صوتي أكثر، لا يتردد سوى الصمت، ألتفت إلى أبي لأجده يبتسم وهو يُشير إلى شيءٍ ما في كفه:

- أخبرتك مسبقًا أن الرجال لا يبكون.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(2)

لا أصدقَ من المرآةِ حين تقفُ
أمامها، تُنبئُكَ فعلًا ماذا كَسبْتَ
وماذا خَسِرْت.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(لم أعد أحلم بالكثير، تكفيني منكَ قُبلةٌ على جبيني توقظني بها لصلاة الفجر، أن أسابقك إلى المطبخ لأُعِدّ إفطارًا سريعًا يحملُ أجسادنا ساعاتٍ من نهارٍ طويل، أن أترك لك قصيدة مكسورة ـ كنتُ قد كتبتها مسبقًا ـ في جيب قميصك لتقرأها حين تصطفُّ طوابير الشوق لعينيّ أمام وجهك وأنت تُراجع مواصفات البناء الذي تشتغلُ عليه الشركة التي تعمل فيها، أن أترك لك على باب الثلاجة ملاحظة على ورقة صفراء تحمل شكل تفاحةٍ غير مقضومة أثبّتها بقرصٍ ممغنط يحملُ وجهًا باسمًا يغمزُ بعينه اليسرى وله لونٌ أصفرُ أيضًا فهو لوني المفضل كما تعلم:

(أحبك

لا تنس أن تحضر لي توتًا

فطفلك يشتهيه

ولا تنس أيضًا أنني..

أُحبك)

ثم أطبع قبلة بشفاهي الملونة باللون البرتقالي الغامق

PDF Eraser Free

جدًا كدراقةٍ ناضجة على الورقة ـ لطالما كنتَ تحب هذا اللون ـ أعلقها وأسمحُ لخطواتي أن تأخذني بعيدًا عن جنتك الموعودة. أن أعود إلى البيت قبلك لأعد لك غداءً شهيًا يكسر شوكة التعب، ويهزم فلول الجوع، وطبقًا من الحلوى التي لطالما كنت تحملها لي كلما أتيت إلى بيتنا مُتحججًا بأن أمك أرسلته إلينا، هل تذكر حلوى (أم علي)؟ تنتابني رغبة في البكاء كلما أعدّته أمك وأتت إلينا أختك سوسن بطبقٍ منه، فأمك لا تعلم سوى أنني كنت دائمًا أحبه، ولكنها لا تعلم أني لم أعد آكله، أنا فقط أراك تبتسم على وجهه، فأبكي ما شاء الله لي من وجع، ثم أحمل الطبق الذي أفرغه إخوتي لخالتي أم مختار وأشكرها راجيةً إياها أن تُعدّه دائمًا فلا أحد يجيد عمل (أم علي) مثلها، فتحضنني باكية: من عيوني يا عيون الغالي، الله يرجع مختار وأفرح بأولادكم قبل أن أموت، اصبري يا ابنتي، مختار سيعود قريبًا.

لا تزال أمك ترتجيني زوجةً لابنها المغترب، هي لا تعلم أنه لفظني من قلبه في حاوية النسيان، واستبدل عشقي كرهًا تنوء بحمله روحي، ولا تعلم أيضًا أنني لم أعد أنتظر عودتك بقدر ما أنتظر رسالةً منك ولو فارغة تُطمئنني أنني قد أعود إلى قلبك ذات يوم تلونه الفراشات التي طارت من يدي وهي تلوح للجراح التي حملتك وطارت بك بعيدًا، والحمد لله أنني أطمئن إلى سلامتك حين أراك استلمت رسالتي. كل رسالة مني تعني جُرحًا آخر منك، ومسافةً تطول وتطول حتى لم أعد قادرةً على عدّ أبعاد المسافة الفاصلة بيننا، وكأننا في

PDF Eraser Free

كوكبين مختلفين، أو أننا خُلقنا بزمنين مُتباعدين، وما هذا الذي يحدث إلا عبور أرواحنا المُتعبة التي قادها حظها السيىء لأن تلتقي مُصادفةً لُتعيد التعب نفسه، ألا يؤمن البعض بانتقال الأرواح التي تفنى أجسادها بزمنٍ ما إلى العيش بأجسادٍ أخرى في زمان مختلف، والدليل على ذلك أن بعض المواقف التي تحدث معنا لأول مرة لا نستغربها بل نشعر بأن عقلنا الباطن يتقبلها كشيء خَبِرْنَاه كثيرًا، كبعض الأحاديث التي نسمعها للمرة الأولى، يقول أصحابها إنها المرة الأولى التي يخبروننا بها، ولكن ثمة قناعة بداخلنا تؤكد أنه ما من جديد، كل هذا حدث سابقًا، سمعناه سابقًا، لا شيء جديد، إلا الوجع المتزايد الذي نرفض تقبله فيظل جديدًا كالمرة الأولى التي نصادفه بها. لا بأس كل هذا يمكنني أن أحتمله، فأنا أجني الآن ثمار غروري الذي لم يوصلني إلى شيء، ولم يأخذني منك إلا ليحملني إليك صاغرةً لتُشهر بطاقتك الحمراء بوجهي صارخًا إنني لم أعد أليق بقلبك.

وحدها تلك الكف التي حملتها المرآة كانت تمسح دموعي المتساقطة ليلة البارحة بعد أن أتعبني الحنين وشعرت بأن قلبي يذوب حول أوردتي، كل ما أخبرتُ به أبي ـ بعد أن رأى الورم أسفل جفني ـ أنها نوبة ربو كدّرت صفو ليلتي، لم أستطع إخباره أنني أختنق بعشقٍ يكبر أسرع مما يمكنني احتواؤه، عشقٌ لا يساويه إلا تلك المساحة الفاصلة بيننا.

منذ رحيلك، والمرآة تعلّمني، كلما وقفتُ أمامها، عرفتُ حقًا ماذا كسبتُ، وماذا خسرت. وقفتي هذه المرة أمام

PDF Eraser Free

المرآة كانت تشبه المرة قبل الألف التي اعتدت وقوفها بشكل يومي، رددتُ الكلام نفسه واستمعت إلى الردود نفسها، لم يتغير شيء، أنتَ أنتَ وأنا أنا، كلانا لم يتمكن من النفاذ من ثقب الخوف أو كوّة الحب، أفكر في التمرد، ألمحُ عينيك، أتردد، أُسلِّمُ صاغرةً وغصة لا تزال عالقة بحنجرتي منذ ألف وقفة و(وقفة).

تصفّحتُ وجهي، ككتابٍ اعتدتُ قراءته ولم أعتد ما كُتب به، قلّبتُ أيامي، على خدّي الأيمن بقعة داكنة فرضت وجودها يوم سفرك، منذ ذلك اليوم لم أنجح في إخفائها، تذكّرني بكل الوجع الذي دسستَه بأضلعي دون اكتراث، الحبوب التي امتلأ بها ذقني ـ كصبية مراهقة اكتشفت توًا أنها أصبحت أنثى ناضجة ـ لا تمثل إلا هلعي الدائم ألا تعود، هذا القلق الذي نجح في حفر هالاته السوداء حول عيني، الكحل الذي نجحت أخيرًا في رسمه ـ تعلمته لأجلك ـ سابقًا لم أكن أهتم بالأمر، والآن ما زلت غير واثقة إن كنت سأستمر في رسمه، زيارتي الأخيرة للصالون والجروح التي تركتها على جفني ليست مهمة، لا أحد يلاحظ ولست مهتمة على أي حال، أحمر الشفاه الذي يُبرز ذلك الاكتناز البسيط بشفتي السفلى، شعري الطويل الذي قصصته أخيرًا لأن كل ذلك الطول لا يليقُ بامرأةٍ حزينة، ابتسامتي؛ لا تعليق عليها، تعرف نفسها أكثر مني. أقرر التوقف عن القراءة، والبدء بالكتابة، أمسك قلم روج أرجوانيًا غامقًا وأخطّ (مختار) أترك اسمكَ معلقًا ـ كقدرنا ـ أعلى يسار مرآتي وأخرج، ولكنني أعود مرة أخرى، أجلسُ قبالتها ووجهي متكئٌ على كفيّ،

PDF Eraser Free

أحاول الغوص في تينك العينين، قراءتهما، الإفضاء إليهما، أظن أنني رأيتك بهما، حادثتك، احتضنتُ عينيك، وأنت صامتٌ ـ كعادتك ـ ولكنك أخيرًا ضممتني:

ـ أحبكِ، لماذا الآن ـ وبعد رحيلي ـ أحببتني كل هذا الحب؟

أغمض عيني:

ـ لماذا الآن ـ وبعد رحيلك ـ أحببتكَ كل هذا الحب؟!

تبادلنا الأدوار، أفهم تمامًا ما كنتَ تشعرُ به كلما نظرتُ إليك بلا مُبالاة وألقيتُ بوجهك عبثيتي، وتعمدت إثارتك لأُبقيك عاشقًا رهن الطلب ولا أطلبك، أعترف بنشوتي التي كانت تتضاعف كلما لمحتُ الحب في عينيك مُتّقدًا، وكلما شعرتُ بضعفكَ كبرتُ بداخلي أكثر، وكلما كان حبك كبيرًا كان صدّي أكبر، إنها المرأة الملعونة التي كانت تعشش في داخلي كشيطانةٍ لا تهنأ إلا إن رأتك تصطلي الجحيم، فتموت ألف ميْتةٍ ولا تموت، في كل مرةٍ يُبدِلُكَ اللهُ قلبًا آخر لا ينبضُ إلا بحبي، وأنت كمن اقترف ذنبًا ولم يُمهلهُ الله ليتوب فباغته الموتُ فجأةً وهو منغمسٌ في المعصية، وما كان ذنبك إلا حبًا كان يرتدي الطُهر ثوبًا باليًا لم يشفع له أمام غروري الفاحش، ألا تعتقد أنه من الإنصاف أن أشعرَ الآن بكل ما تعانيه، وأصطلي بالجحيم نفسها التي أصليتك إياها، وأرمي نفسي فداء رضاك وتلتفت عني ككلبٍ أجرب لا يستحق منك أن تخلع نعلك وترويه وأنت تراه يلهثُ ظمأً، لا بأس يا مختار

PDF Eraser Free

يومًا ما سنلتقي، وسترى أن التي تُرسل إليك الآن بكل انكسار ليست هي نفسها التي أولتك جفاءها يومًا).

رسالة باهتة، لا تشبه وجهكِ الذي استقبلني وأنا أجمع حرفًا وأطرحُ آخر لأستطيع أن أهمس لكِ بأنني أحبك، لا أدري هل كنا في الشتاء ورجفةٌ تجتاحُ عظامي وأصابعي التي لطالما حاولتُ تهدئتها بأن أفرك بعضها ببعض، أم أن سياط الصيف كانت تجلد وجهي، فيندى عرقًا ودمعًا وأنتِ تسخرين من قلبي الذي رمى نفسه بين يديكِ فركلتهِ بقدمكِ، تقولين بأنكِ تشعرين بما كنتُ أعانيه؟ لا يا عزيزتي شتّان بين مُودِّعٍ ومُودَّع، وبين من اتخذ قرارًا ومن لم يكن يملك إلا الرضوخَ لذلك القرار، وجه الشبه الوحيد بيننا هو أننا نحن الاثنان حين اخترنا اخترناكِ أنتِ، وحين بكينا كنا نبكيكِ أنتِ، عدا ذلك لا مجال للمقارنة بيننا، أنتِ التي اعتليتِ السماء ونظرتِ إليّ من برجكِ العاجي وكلما علوتِ أكثر صغر حجمي في عينيكِ أكثر، أنا الذي كنت أسابق الأحلام لفرحكِ وأرسم الضوءَ لعينيكِ قناديلَ كالنجم فيرتدّ إلي كالشهاب الطارق، أنا الذي كنت أصنع من الفرح قلائد لصدرك وأطواقًا كنتِ تُحكمين إغلاقها حول عُنقي.

حين قلت أحبك لم تكن الحروف تتسابق لتأخذ موقعها على شفتي، بل كانت تطير من أوردتي إليك دون أن أحاول إيقافها أو تهدئة سرعتها. اليوم؛ أعلم أنني لم أتخذ القرار الصحيح، وأن قلبي الذي لم يعد صالحًا للحب بعدك كان صبيًا مشاكسًا لم يترك حجرًا لم يقذفه بوجه الخوف ليأتيك.

PDF Eraser Free

المشكلة يا عزيزتي أن أرواحنا لا تعترف بأقلام الرصاص، كل محاولة لمحو ما ندوّنه بأرواحنا ليس إلا تشويهًا لها، كان الله في العون.

- مختار هيا أسرِع، وإلا سُتحرقنا الشمس ونحن لم ننتهِ من نقل الاسمنت إلى الأعلى.

أحملُ بعضي وأجري نحو رامبير الآسيوي الذي كُلف مشاركتي في نقل أكياس الإسمنت من أرضية البناية إلى الطابق الثاني، يبدو من رائحة فمه أنه أنهى توًا إفطاره المكون من خبزٍ أبيض ومرقة فاصوليا معلبة لا وقت يسعفه لطبخها فاكتفى بفتح العلبة وتغميس الخبز بها مباشرة، وبالتالي اختصر الوقت وتخلص من الأواني، كيس الخبز البلاستيكي والعلبة المعدنية للفاصوليا تربّعا على تل مهملات البناء فور الانتهاء من الإتيان على ما بهما، في حين أنني لم أُحضر إفطارًا لي فلا حاجة لهذا الجسد بالكثير من الطعام لكي لا يفقد قدرته على الاحساس بالوجع، لا أريد تخمةً إلا من جراحكِ التي أثختني.

أنحني لأحمل كيس الإسمنت الثقيل، أسمع طقطقة عظام ظهري، تلك الطقطقة التي لازمتني منذ ما يقارب العام قبل أن تنهي الشركة مشروعها الأول المكون من بناء ذي سبعة طوابق في كل طابق أربع شقق، عدا الدورين الأخيرين اللذين تمت تهيئتهما ليضما شقة واحدة مكونة من دورين جُهزا بشكل فاخر جدًا يختلف تمامًا عن بقية الشقق بالمبنى، لا عجب فقد

PDF Eraser Free

علمت لاحقًا أن صاحب البناية سيتخذها مسكنًا لابنه الذي سيتزوج قريبًا، أما الدور الأرضي فكان عبارة عن مساحة شاسعة استؤجرت فيما بعد معرضًا للسيارات المستوردة. هذه البناية التي ملأت كل مساحة الأرض المخصصة لها حتى إذا ما ازّينت للناظرين وتهيأت لاستقبال سُكّانها أفواجًا تطلب النعيم، فاجأتهم بخلوها إلا من العدد الذي لم يتجاوز أصابع اليدين من المواقف المخصصة لسيارات قاطنيها، هذا إذا استثنينا المواقف الأربعة التي تم تخصيصها لصاحب الشقة الفاخرة في الدورين الأخيرين، وتم وضع السلاسل والأقفال لمنع المتطفلين من الاقتراب منها، لم يُفكر صاحبها في تخصيص الدور الأول للمواقف أو تهيئة دور أو دورين تحت الأرض للاستفادة منها كمواقف، وما همّه أين يُوقف المستأجرون أو أولئك الذي يأتون زوّارًا أو زبائن لمعرض السيارات المستوردة سياراتهم؟ فكل ما يهم أن يصرف أقل ما يمكن ويكسب أكثر ما يستطيع، مع أنه كان يستطيع الكسب من تلك المواقف من خلال تأجيرها للزوار بالساعات، ولكن أمثال هؤلاء التجار لا يثقون إلا بالربح السريع، أما الذي يحتاج إلى موقف فلن تُعجزه الحيلة في الحصول عليه، خصوصًا أن الناس اعتادوا استغلال الأراضي الفضاء والأرصفة وحتى جزءًا من الشارع أحيانًا كمواقف، وما على المارين بالشارع إلا التوقف إلى حين رحيل ذلك الآتي من الاتجاه المعاكس، فبعد أن يتم اتخاذ جزء من الشارع كمواقف لا يعود الشارع كافيًا لمرور سيارتين متجاورتين وإن كانتا في

PDF Eraser Free

اتجاهين مختلفين، ذلك المشروع الذي أتيت لأعمل مهندسًا معماريًا في طاقم الشركة التي تنفذه، أقصد الشركة الوهمية التي يملكها أحد العمانيين اسمًا فقط لا أكثر ولا أقل، أما المالك الفعلي فقد كان السيد الموقر كومار كابور، هذا الهندي المتأنق دائمًا ـ ذو الخواتم الخمسة في أصابع يده اليمنى ـ لم يجلبني إلا لأنه يسعد كلما رأى عربيًا يعمل تحت إمرته، ولستُ إلا أحد ضحاياه الكُثر، ما زلت أذكر صدمتي حين تعرفت إلى ثلاثة مهندسين معماريين غيري يعملون في مشروع واحد، ظننت بدءًا أن للأمر علاقة بجودة العمل، إلا أن ظني البريء سرعان ما انقلب إلى صدمة حين علمت أنهم انقلبوا إلى بنّائين من الدرجة الثانية منذ سلّموا الهندي المتأنق جوازات سفرهم وأحلامهم وهم يبتسمون له، ولم يكونوا يعلمون ـ كما لم أكن أعلم ـ أن خلف ابتسامته تلك أنياب ثعلبٍ سيبتزهم أعمارهم يومًا بعد يوم، وإن كنتُ أستغرب يد السيد كابور الطائلة في هذا البلد، فغرابتي الأكثر ممن منحه اسمه ليستولي على بلده وينهب خيراته ويسرق أهله، هل وصل الكرم بهذا الرجل لأن يمنح ما لا يملكه؟ أم أن قلة الوعي وعدم الاحساس بالمسؤولية هما اللذان يوصلان الناس إلى هذا الطريق المفخخ بالخداع والكثير من التضليل الذي لا ينتهي عند حد؟ أنتقل فجأة من مهندس معماري إلى عامل بناء أحمل أكياس الإسمنت على ظهري، حتى اعتدت سماع صوت طقطقة عظامه؛ أتراكِ مسرورة الآن؟ هل أخبرتكِ مُسبقًا أنني إن غفرتُ للسيد كومار فعلته، فمن غير المحتملِ أبدًا أن أغفر

PDF Eraser Free

لكِ؟ أشعرُ بأن أسناني تصطكّ كلما مررتِ ببالي، أشعرُ بشيء في صدري يسقط وهو يتلوّى كملدوغٍ باغته عظيم الألم؛ أنتِ التي سلمتني إلى هذا المتعالي على طَبقٍ من جفاء، وهو عرف كيف يصطاد الروح التي عكّرتِ صفوها.

لا تستغربي استلامي لرسائلك وقراءتها، فما هي إلا وسيلة لإيلامكِ أكثر، لأن معرفتك باستلامي رسائلك وإهمالي الرد عليها ليس كما لو أني لم أستلمها أصلًا؛ فالأولى أشد إيلامًا وأشد وجعًا. أما لماذا أقرؤها؟ فأنا حقًا لا أدري، ربما لأمنح ضحكتي التي نسيتها سببًا لتعود، وإن كانت عودتها من باب السخرية من النوادر التي تُرسلينها دائمًا.

أربع ساعات من العمل المُضني الذي لا يُسمح لك خلاله بالتوقف ولو دقائق لتلتقط بها أنفاسك وذكرياتك، حتى يدك إن طالت لتمسح عرقك ستعودُ إليك طوفانًا من الانتقادات من سانجاي ـ مُراقب العمال ـ الذي لا يختلف عن السيد كومار كابور في شيء سوى أن ذاك رأس الكلب وهذا ذيله الذي لا يتوقف عن الهزّ كلما حضر السيد كابور، ثم يستمر في النُباح خلفه بمجرد أن يتوارى خلف غبار سيارته المرسيدس، ولن تسلم من شبهة الكسل والتخاذل والهروب من أداء العمل وتحليل الراتب الذي تتقاضاه وأنت لا تستحق ربعه، ولو أتينا إلى الراتب لوجدنا أنه بالكاد يكفيني لأعيش في هذا البلد الذي لا أعرف منه سوى غرفةٍ واحدة أتقاسمها مع أربعةٍ من الآسيويين وثلاثة من العرب، غرفة ضيقة لا تزيد مساحتها عن 3×4 تبدو مُكتظة بالأنفاس والحكايات، لا

PDF Eraser Free

تسمح لك مساحتها سوى بأن تمدّ لك فراشًا اسفنجيًا لا يستوعب طولك، فتطلُّ قدماك منه كرأس طفلٍ يلعب الغُمّيضَة، تتوسّدُ أمتعتك الملفوفة بقطعة قماش عريضةٍ أو تلك الموضوعة في حقيبة صغيرة تستوعب أشياءك القليلة، ويبقى بعضها فارغًا سامحًا لرأسك أن يغوص في داخلها كوسادة ريشٍ وثيرة، تتكور على نفسك كجنين يخشى الخروج من رحم أمه لتتفادى أن تطأك قدمُ أحدهم وهو يحاول التسلل خارجًا من هذا القمقم المُسمى ـ جوازًا ـ غرفة عُمّال؛ غرفة تستوعب الضحكات والفكاهات اليومية لكل ما نلاقيه، حتى تعلمنا السخرية من كل شيء، تستوعبها كما تستوعب الشخير عندما يرمي العمال أجسادهم في قبورهم الضيقة وينامون بالقدر الذي يسمح لهم به المنبه قبل أن يُعلي صوته مُذكرًا إياهم بأن مراقب العمال قد يخصم راتب يومٍ إن لم يبدأوا بتجميع أنفسهم قبل أن يصل هو إلى موقع العملٍ، والويل كل الويل لمن يصل بعد أن ينتهي من تسجيل الحضور اليومي، فذاك سيعمل عملًا مضاعفًا في ذلك اليوم رغم أنه لن يتقاضى أجر عمله المعتاد، ناهيك عن لسان مراقب العمال الذي سيستمر في جَلده كلما وقعت عيناه عليه ولمدة أسبوع كامل سيتكفل هذا الرجل بتذكيره بأنه تأخر عن العمل وبأنه غير مبالٍ وليس لديه أي إحساسٍ بالمسؤولية وأنه لن يكون رجلًا إلا بعد أن يترك الجوع والتعب أثره في جسده السمين، وأنهم بالغوا في إكرامنا نحن الذين لا نستحق إلا المذلة، ولا أدري حقيقةً عن أي جسدٍ سمين يتحدث هذا الرجل المترهل في السوء، فكل

PDF Eraser Free

الذين يعملون تحت إمرته يكادون يفقدون ملامحهم من شدة الإنهاك والنحول، حتى أن الناظر إليهم لا يكاد يميز بينهم إلا من خلال أصواتهم التي تعبُر الآذان كنسمات الهواء الراكض خلف غيمةٍ أثقلها الحمل وهي تتهيأ لنفض حمولتها وكأنها امرأة بدأها الطلق توًا، هذه الأصوات لا تعلو إلا في بداية كل شهر حين تستلم الراتب وتحتفل بالخروج إلى أحد المحالّ المكتظة بالآسيويين وتشتري منه ما يكفي للتزود به لشهرٍ كامل، أو لأسبوعين على الأقل، في هذا اليوم لا تشعر أنك في بلدٍ عربي أبدًا، فكل الذين يمرون بك يحملون الجنسية الآسيوية في وجوههم، أخبرني رامبير الذي يشاركني في العمل أن هذا حال البلد نهاية كل أسبوع، وأن ما رأيته وفوجئت به يتكرر أسبوعيًا كروتينٍ لا بد منه، ولا يحدث بحالٍ أن يتغير هذا الروتين في جمعةٍ ما، فكل جمعة تعني أنك ستصطدم خلال مشيك بأكثر من روحٍ هائمة تبدو وكأنها أطلقت قبل قليل، يُخيّلُ إليكَ لوهلة أنك بالبرزخ تلتقي كل من علقت أرواحهم به، هذه الأرواح للمتعبين والغارقين في الوجع حتى الثمالة، يمشون وكأنهم لم يقطعوا شبرًا من الأرض وهم من جرى من أقصاها إلى أدناها ولم يتعرفوا إلى الباب الصحيح للولوج إليها، لا بد كذلك من مصادفة الكثير من الوجوه المكتنزة بالرفاهية، هذه الوجوه التي عرفت من أين تؤكل الكتف فأكلت الكتف والقفا، أكلت حتى شبعت ولم تكتفِ، تمادت إلى القلب والروح والأمنيات وأكلت وأكلت وأكلت، ولم تشبع، ظلّت تبحث عن أي عِرق ينبض لتأتي عليه،

PDF Eraser Free

الخروج في يوم الجمعة يعني أن تستشعر يوم الحشر، لستُ وحدي من شعر بذلك فقد سمعت أحد العمانيين يقول لصاحبه ـ مُعلّقًا على المنظر ـ: (حشرٍ مع الناس عيد) أما رامبير فيرى أن الأمر عادي جدًا، لقد اعتاد في مدينته أن يرى أضعاف هذه الزحمة، مدينته التي يُنافس فقر بعض أهلها غنى بعضهم الآخر، أيهم يفرضُ حضوره قائلًا: ها أنا ذا؛ فلا ينتصر إلا الفقر. الأسر التي تنام في الشوارع، أو تلك التي تضمّها غرفة واحدة، تُعد غرفتنا التي نشتكي من ضيقها غرفة فسيحة مقارنةً بها، غرفة واحدة تُستغلُ كغرفة نوم ومعيشة ومطبخ، في حين أن دورة المياة مشتركة لكل أهل الحي يتناوبون على استخدامها، مدينته التي ترى بها معبدًا يهدي صلواته للمسجد المجاور، فيؤمن هذا الأخير عليها. الجميع يعمل ليعيش، لا أحد يهتم بالآخر، كل ما يحدث لأحدهم لا يعني غيره، لدرجة أنك قد تمر على موكب عرس، ولا تقف لتتفرج أو تبارك لأصحابه لأنك ببساطة غير مدعوّ، كما قد تمر على جنازة ولا تقف لتعزي لأن الميت لا يعنيك، يلتهي المرء بشأنه وأسرته فقط، بيومه دون أن يحمل هم غده، الكل بها يسعى من الفجر حتى المساء دون تأفف أو اعتراض، مؤمنًا أن هذا هو قدره.

هكذا ينتشر الناس بلا هوادة، كُلٌّ يبحث عن ذاته ويبغي راحتها، ولا راحة إلا لمن اجتهد وعمل طوال ما مضى من الوقت، عمل دون أن يتذمر أو يسب ويلعن كل من يتخذون من قلبه موطئًا ليصعدوا لقطف الأمنيات التي لا تسعها أيديهم.

PDF Eraser Free

اعتدت أن أشارك رفاق العمل في لحظاتهم وأقتسم معهم فتات الذاكرة كلما عتّمت السماء، ذاك الفتات الذي ما عاد يسد رمقًا للشوق، يأخذنا أحمد إلى زوجته التي أنجبت طفلًا في غيابه، كان قد تركها وهي في بداية الوَحم، أخبرنا أحمد أن زوجته طلبت منه ألا يعود لأنها تكرهه، ولكنها بعد أن وضعت طفلهما الذي أسمياه مؤتمن ـ ليكون أمينًا على أمه ـ أرسلت إليه تحثه على العودة فهي لم تستطع التأقلم مع العمر بدونه، يضحك أحمد حين يتذكر أنه كان على وشك أن يُطلّقها لولا أن والدته أخبرته أن هذه المشاعر التي تشعر بها زوجته ليست إلا وحمًا تُصاب به بعض النساء في حملهن، وطلبت منه أن يبتعد عنها قليلًا حتى تلد، فابتعد، ولكن هذا البعد طال أكثر مما يجب، فأنجبت زوجته وعادت إليه في الوقت الذي لم يكن يمكنه العودة إليها. أما إحسان أكبر فيظلُّ يحدثنا عن ابنه الذي لا يشبهه والذي أنجبته زوجته بعد عامين من غيابه، ورغم ذلك احتفل بقدومه ووزع علينا الحلوى والابتسامات الشاحبة، فهو يقول إنهم يؤمنون في بلدته بأن بركات الشيخ تُثمر طفلًا في رحم المرأة إن ترك زوجها سرواله لديها قبل أن يرحل، هذا الشيخ يظل دائمًا كالحارس الأمين على زوجات المغتربين حتى لا يحصدهن الغرباء، يزورهن دائمًا ويقضي حوائجهن، ويطمئن إليهن كلما أظلمت الليالي، ومن عظيم فضائل الشيخ أن بعض الأطفال الذين قد يشبهونه حين يتحركون في أرحام أمهاتهم وهو قبالتهم سيكون لهم شأن عظيم في المستقبل لأنهم سيمضون على نهجه وقد يرثون العلم

PDF Eraser Free

منه. سألتُ إحسان يومًا: هل أنت مقتنع فعلًا بما تقول؟ فأجابني بدون تردد: طبعًا. ومضى مبتعدًا عني، ولكنني لم أستطع معرفة السبب الذي جعله يرفع طرف كمه ليمسح شيئًا علق بوجهه، لا أظنه سوى عرق جلبه التعب وأسالته حرارة الشمس، ولم يكن دمعة البتة.

تعلمنا إغلاق الباب جيدًا علينا قبل أن ننام، اشترينا قفلًا كبيرًا بثلاثة مفاتيح لم يكن لي نصيبٌ بواحدٍ منها، ولكن لا بأس، ما فائدة مفتاح لا يفتح قلبك للحياة، تعلمنا هذا الحرص بعد تلك الليلة المرعبة التي عشناها قبل شهرٍ ونصف الشهر حين استيقظنا على الكثير من الأصوات اللاهثة تقف أعلى رؤوسنا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(3)

أيُّ دفء بعد رداء أبيك الذي
يخبئك أسفله كلما رافقته لصلاة
الفجر؟!

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

أن يمضي يومان وأنا بلا مأوى يعني أن أترك ذاكرتي مأوى لأولئك الذي يلتحفون العراء، الآن أفهم معنى أن لا تجد قطرة ماءٍ تروي ظمأك، أن تفوح رائحة عرقك فتتقبله برضا من لا حول له ولا قوة، أنت الذي اعتدت أن تصبّ أرقى العطور على جسدك كما عوّدتك أمك التي لطالما رددتْ:

- لا يمكن أن تشم بمختار إلا رائحة الجنة؛ مستسلمًا للواقع المر، ليس من باب الرضا بقضاء الله وقدره الذي الذي تنال على أثره الأجر الذي وعد اللهُ به الصابرين في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، إنما من باب قلة الحيلة أو انقطاعها المطلق إن كنا أصدق.

أتبعُ خُطواتي وأنا لا أدري إلى أين ستأخذني بالضبط، لا يزال هاتفي مُحتفظًا ببعض الحياة، ربما لأني كنتُ أغلقه بين فترةٍ وأخرى، ولا أفتحه إلا للاطمئنان إلى الوقت في غيبتي، في محاولة مني لإطالة رمقه فلا أحد يعلم أي حاجة قد تُلجئني إليه، ويبدو جليًّا أنه يُصارع ليبقى وكأنه يستنجدني

PDF Eraser Free

أن أنعشه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لا يفتأ يُرسل إلي إشارات الاستغاثة المتلاحقة: البطارية فارغة، يُرجى إعادة الشحن. أُباغتهُ بإغلاقه قبل أن يفرض هو عليّ توقفه، أشعرُ بنشوة المنتصر والمسيطر على الوضع، أنظر إلى عضلاتي التي لم تكن بارزة يومًا ما رغم محاولتي تعويض نحولي بممارسة الرياضة التي تمنحه القوة ليبدو أقل هشاشة مما هو حقًا، وكالمبهور بعضلاته المنتفخة أحاول تقمص دور المُنتشي قبل أن ألمح منارة أحد المساجد تلوح في الأفق، أستلمُ زمام خُطواتي هذه المرة وأطلبُ منها مطاوعتي على السير إليه لأتخلص من رائحتي المزعجة على الأقل، وأصلي. أتوقف فجأة؛ هل قلتُ أصلي؟ لا أذكر بالضبط متى كانت آخر مرة استقبلت بها القِبلة وأقمتُ الصلاة، فقد هجرتها منذ أن خذلتني دعواتي التي كنتُ أبعثها آناء الليل وأطراف النهار ولم تأتِ بك، وكأنني كنت أعبد الله على شفا جُرف هارٍ فانهار بي في جهنم، ليس شرطًا أن تكون جهنم في السماء، ثَمّة جهنم في الأرض بيد من لا يرحم، هذه الجحيم كانت وسيلتيً الأنجع لنسيانك واستبدال حبكِ كُرهًا، ولم أنسَ، ظللتِ تسكنين أوردتي كورمٍ خبيثٍ يقطع سير الدم في شراييني، كلما آلمني أمرٌ أسرفت فيً كيل اللوم لقلبي علّه يتوقف فتموتين معه.

أمشي الآن والضعف رفيقي، ولا رغبة لي في رفع يدي إلى السماء بقدر ما أشعر بحاجتي لأن أشم رائحة التراب، أن أتيقن أنني أنتمي إليه، وأنَّ صِلةً وثيقةً تجمعني به، أن أحتفي بكوني آدميًا خُلقت لعمارة هذه الأرض، ولستُ رقمًا فائضًا

PDF Eraser Free

عن حاجة الزمن، توسوس لي خُطواتي بالنكوص على عقبيّ؛ فمثلي لا يستحق أن يتخذ من المسجد وِقاءً لخيباته، يطلُّ وجه أبي ليأخذ بيدي، لا يبدو غاضبًا كما كان يلاحقني بعصاه وأنا لم أتعدَّ الخامسة من العمر حين يعلم من شيخ الجامع أنني لم أحضر حلقة تعليم القرآن، ذلك الشيخ الذي يسلخنا بعصاه مع كل آية، ورغم جميع محاولاتنا لتفادي ضرباته إلا أن أحدنا لم ينجح قط، فعصاه الطويلة كانت تصل إلى أبعدنا مجلسًا عنه، وتطالُ أصغرنا سنًا وأقصرنا قامة، لا أدري كيف كان يوازن بين رقة القرآن وقساوة القلب، يقول أبي إن القرآن يُليِنُ القلب، ولكنني كنتُ أجيبه أن إمام الجامع لا يملكُ قلبًا ليلين، فيضحك أبي ضحكته الرنّانة، تلك الضحكة التي تجعل أمي تلتفت إليه وتبتسم وهي تهز رأسها بكثيرٍ من الحب، يأخذني لحضنه ويهمس في أذني:

- عليك يا مختار أن تحفظ القرآن حتى يأتي شفيعًا لك يوم القيامة. فأسأله:
- متى سيأتي يوم القيامة؟
- لا أحد يعلم متى يأتي يوم القيامة بالضبط؟، ولكننا جميعًا سنموت، وهناك في القبر المظلم ـ حيث سُندفن ـ سيكون القرآن نورك.
- ولكني لا أريد أن أموت يا أبي، ولا أريدك أن تموت. وأبكي؛ كما أبكي الآن، ولكنه ـ أبي ـ ليس معي ليأخذني لحضنه ويهمس لي:

PDF Eraser Free

- لن نموت يا مختار سنصعد إلى الجنة، هناك في الجنة سيعطيك الله ما تشاء.
- هل سيعطيني دراجة يا أبي؟
- نعم، وكرةً أيضًا.

أتوقف عن البكاء، وأحتضن أبي بقوة وأنا أردد: أبي؛ أنا أحبك، متى سيأتي يوم القيامة؟

ثم أنظرُ إليه ببراءة متسائلًا:

- ولكن ما معنى شفيع يا أبي؟

يضحكُ أبي ويعيدني إلى حضنه:

- يعني واسطة يا ابني واسطة، ولكنها ليست كوساطة أهل الدنيا.

ويصمت؛ أبي كان يكره الواسطة دائمًا فهي التي جعلت زميله في العمل يترأسه رغم أنه لم يكن كفؤًا مثله، وأصمت احترامًا له لأني أعلم أنه يكره هذه الكلمة، ولا أدري لماذا يحب أن يتوسط لنا القرآن لندخل الجنة، ربما لأنه هو المُتوسط له وهو الرابح هنا، أنفض هذه الأفكار الغبية من رأسي وأخبره ـ رأسي ـ أبي لا يحب الواسطة، أغمض عينيَّ وأستسلم للنوم في حضن أبي، الذي يتكفّل بحملي إلى سريري ووضعي به وتغطيتي جيدًا خشية أن يمسني البرد بسوء.

ليتكَ معي الآن لأحتضنك، لا لا؛ لتحضنني وتُسكن هذا القهر الذي يصهرني، فأذوب كقطعةِ ثلجٍ تتلذذُ بها ألسنة

PDF Eraser Free

اللهب، وليتني أختفي وأتلاشى مثلها، ليتك تضعني تحت ردائك ـ كما كنت تفعل حين أصحبك إلى المسجد والبرد رفيق عظامي اللدود بعد ليلة شتائية متمردة، لأعتاد صلاة الفجر في جماعة ـ وتقرأ عليّ المعوذات ثلاثًا وتختمها بآية الكرسي والكافرون والإخلاص فتخفت هذه الرعشة التي ارتدت أصابعي وأنا أدرّب لساني ليعترف لحورية بحبي الذي تعرفه أصلًا وإن كانت لا تُبدي مبالاةً به، وتتعامل معه كأمرٍ مفروغٍ منه. منذ ذلك اليوم وأنا لا أملك القدرة على التحكم في أصابعي حين تبدأ بالارتعاش اللاإرادي. كانت صلاة الفجر هي المفضلة لدي لأني كنت أنعم بدفئكَ طوال الطريق إليها، لم أجد بعدكَ دفئًا كالذي يمنحني إياه رداؤك، وكم استغربت أمي لأن مجرد وضع يديها على كتفي لتوقظني؛ يجعلني أفزُّ من سريري متسائلًا:

- هل ذهب أبي؟

تبتسمُ أمي:

- وهل يذهب بلا قنديلٍ يُنير ظُلمة الطريق؟ هيا أسرع كي لا تفوتكما الصلاة.

أقتربُ من المسجد ذي المئذنة الخضراء بهلالها الذي يعتليها ليضيء ليلها ونهارها، يبدو أن العثمانيين كانوا على حق حين ارتأوا وضع هلالٍ على المآذن لتمييز المساجد من غيرها من الدور كما يُميّز الصليب الكنائس. بابه المفتوح رغم أن الوقت ليس وقت صلاة يشبه أبواب السماء التي لطالما

PDF Eraser Free

أخبرتني أمي أنها مفتوحة دائمًا وأن من يمد يده لله لا يُردُّ خائبًا أبدًا.

- ولكنه رد يدي التي لطالما مددتها إليه.
- لله حكمة في كل شيء.
- ما الحكمة في عذاباتنا؟ ما الذي سيجنيه الله من آلامنا وأحزاننا ودموعنا؟
- يا بني اذكر الله، نحن لا نعلم الغيب كله، علينا أن نرضى بقضاء الله وقدره.
- وهل أذكر سواه الآن؟

وتصمتُ أمي. تقرر الصمت كي لا ينالني الله بغضبه، فهي تعلم أني لم أعد أتردد في نطق أي شيء، ولم أعد أبالي إن اتهمني الناس بالكفر وجحْد نعمة الله عليّ، ولكن يا أمي هل هناك غضبٌ قد يحلُّ علينّا أكبر من فقد من نحب؟ أولئك الذين نرى بأعينهم كل الحياة، فيسقطوننا فجأة كأي دمعة عابرة ـ أقولها بصمتي الذي يتمادى حتى يُخيّل لأمي أن المكالمة انقطعت. هكذا ينتهي كل اتصالٍ بيني وبين أمي، حوارٌ صامتٌ في أغلبه، أفهم ما تود قوله، وتعلم بماذا قد أجيبها؛ فتصمت طويلًا وصدى أنفاسها يتردد في أروقة الهاتف، ثم تهب لي دعواتها بأن يهديني الله ويشرح صدري ويعيدني إليها سالمًا غانمًا لتفرح بي وبأطفالي الذين خبأت لهم الكثير من الحكايات، وتغلق الهاتف على صوت دمعةٍ تتأرجح بين جفنيها ورموشها لتُسقطها بعيدًا عني، حيثُ لن تمتدَّ أصابعي لتخفف من وطأتها، أو تُواسي حضورها.

PDF Eraser Free

المسجدُ فارغ إلا من صوت الماء المسكوبِ على جسدي، أبالغُ في فرك جسدي وكأني لا أريد أن أنظف قذارته وتلك الرائحة العالقة به فقط، بل أريد ليدي أن تمتد لتتوغل فيه أكثر، لتخترق هذا الجسد النحيف وتصل إلى روحي، أن تنتزعها وتتركها تحت الماء حتى تكاد تغرق وتوشك على لفظ أنفاسها فتُخرجها، تُكرر الأمر نفسه مراتٍ عدة، أبتسمُ لأمي التي تتولى مهمة فرك جسدي المغمور بالطين، جسدي الذي انسحبتْ منه أربعة أعوام لا أكثر، تتسع ابتسامتي كلما ارتفع صوتي بالبكاء لأن رغوة الصابون دخلت في عيني، يتعاظمُ صوت أمي العذب موبِّخًا:

- هكذا؛ في كل مرةٍ ستعود إليّ مُلطّخًا بالطين، ستجد ليفتي والصابون لك بالمرصاد.

أحتجُّ والدمع يتخلل أصابعي وهي تحاول التخلص من حُرقة الصابون المتشبثة بعيني التي ازداد احمرارها، لا تزال عيني تشكو من الحساسية والحمرة الدائمة ولكنني لم أعد أستنجد بأصابعي لتخفيف حمرتها أو تلك الحرقة التي تسكنها بشكلٍ مُبالغٍ فيه، أصابعي لم تعد تلك الأصابع الصغيرة التي قد تطبطب على عيني الباكية، أصبحت خشنة جدًا وأي اقتراب من عيني قد يكلفني كثيرًا:

- ولكن يا أمي كل الأولاد يلعبون بالطين.
- ولكن مختار ليس ككل الأولاد.

وقبل أن تُكمل والدتي جملتها التي تُنسيني دموع

PDF Eraser Free

الصابون، أصدر باب المسجد صوتًا يُنبئ بأن أحدهم يهمّ بفتحه.

وقفتُ بسرعة وارتديتُ ثيابي التي جهّزتُها مُسبقًا، وأبقيتُ عيني باتجاه الباب لأتبين القادم، مددتُ يدي إلى هاتفي لأعرف الساعة، لا أظن أن موعد صلاة الظهر قد اقترب، أهو باحثٌ عن النظافة مثلي؟ أم متسوِّل راحةٍ من عناء الدنيا؟ وقبل أن تصل يدي إلى هاتفي أتذكرُ أني أغلقته حفاظًا على ما تبقّى به من روح فأخرجها خاوية كما ولجت.

تقدم الظلُّ صاحبه فأتى طويلًا نحيلًا كنخلةٍ باسقة اُجتثت أطرافها فسلّمت جذعها للشمْس تتسلّى بالاختفاء خلفه، فيمتدُّ بها إلى ما لا نهاية، ترى أي وجهٍ يحمل صاحب هذا الظل؟ وأي روحٍ تشاطرهُ امتداده؟

PDF Eraser Free

(4)

الرجل الذي يفتح قلبه لعابرات
الحزن والغياب، وتمشي على جسده
عشراتُ النساءِ، ليس أهلاً للحب.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(ـ عالمًا من الدهشة كنتَ لي، خيالًا لا يمكنني تفسيره، سحرًا يصنع العجائب ولا يمنحني فرصة إغلاق عيني كي لا تفوتني تفاصيله المتناهية في الصغر. هات يدك، ودع اللحظات تجري بأي اتجاه تشاء فثمة لحظة خالدة ستجمعنا إلى الأبد. أعلم أنني لست سحابة صيف أو حلمًا عابرًا؛ وهذا يكفي. وأنني المرأة الوحيدة التي أحببتها كامرأة وحيدة عبرت هذا الكون وأنه لا شريكة لي في قلبك؛ وهذا يكفي.

- أرغب بأن تغني لي قبل النوم، أن أغفو على صوتك، وأن أضحك بسري دون أن أخبرك أن صوتك لا يصلح للغناء.

- أنا يا حبيبي بِتُّ أخجل من صوتي المملوء بالحزن، بودي لو أحدثك عن الفرح، عن الأمنيات، عن الليالي البيضاء المختبئة خلف الظلام، ولكن صوتي تمرد عليّ، لم يعد بإمكاني السيطرة عليه وحبسه في قارورةٍ أرميها في البحر علّ إعصارًا يُفتتها فلا يعثر عليها أحد. لا أخفيك سرًا أنني بِتُّ أترك نوافذي مُشرعة قبل أن أنام خشية أن يقتلني صوتي، وإن نسيت يومًا وأحكمتُ

PDF Eraser Free

إغلاق نوافذي، تكاثر الصوت حولي وملأ هواء غرفتي حتى كِدتُ أختنق. صوت، صوت، صوت، لا تضع يديك على أذنيك رجاء، فأنا أخاف على يديك حين يباغتها صوتي ولا تقدر على رده!

- خائنٌ أنت؛ ككل الرجال تنسون سريعًا وتحيون وكأن شيئًا من الحب لم يحملكم إلى عالم الرجولة سريعًا وقبل الأوان ربما، تملأون أوقاتكم بالأصدقاء والنساء، لم يجرب أحدكم الالتفات خلفه ليرى تلك التي تركها بلا روح، جسدًا باليًا كقطعة قماشٍ لم تُفصل بعد؛ بعد أن منّت نفسها بأن تفصل على قياس قلب أحدهم كانت تُقسم أنه رجُلها الهارب من الجنة لينام على صدرها.

كاذبٌ أنت؛ لم تعشق يومًا، ولست كفؤًا لأن تحبو على أوردتك ليُزهر وجه حبيبتك ياسمينًا.

خائنٌ وكاذبٌ وجبانٌ أيضًا؛ هربت سريعًا قبل أن أخبرك أنني سأحبك يومًا ما وكأنك آخر الرجال الذين أنجبتهم الأرض قبل أن تموت ويبتلعها البحر.

- أنتِ حمقاء كبيرة، أخبرتكِ مسبقًا أن الرجل الذي يفتح قلبه لعابرات الحزن والغياب ليس أهلًا للحب، هكذا ألوم نفسي، وأحاول ردها عن غيها الذي أسرفت فيه، ولكنها تعلم أنني كاذبة؛ لذلك لا تكترثُ لي مرددة: أحبه بالقدر الذي لا يمكنني العيش دونه، وإن نظر إلى امرأة غيري فلن تكون إلا نزوة ستعبر روحه سريعًا.

PDF Eraser Free

في كل ليلةٍ أفكر أنك قد تكون مع امرأة غيري، أنثى تغفو على صوتك وتصحو على وجهك، أُقسم لنفسي أنها ليست مجرد أوهام تُباغت أنثى مهجورة، إنما حقيقة واقعة، أرى قلبك مفتوحًا على مصراعيه لكل طارقة هوى، وألف أنثى تعبر دمك كل مساء. يكفيكِ غباءً ـ أصرخُ بوجهي ـ لملمي ضعفك وارحلي، اتركيه لبائعات الوهم ومانحات القلق، أنتِ حمقاء كبيرة، تجرين له بكل ضعف، تحبينه كثيرًا ـ أنا أعلم ـ ولكنه لا يستحق. ولكنني أفشل دائمًا في تصديقي، أعلمُ أني كاذبة، أفهم عاداتي التي أمارسها حين أكذب، تلك التي اكتشفتها حين كنتُ في الاعدادية لا أتجاوز الثالثة عشرة من عمري، حين اخترعت كذبة تبرر سبب تغيّبي عن المدرسة يومين متتاليين، فادّعيت المرض رغم أني لم أكن كذلك، كل ما في الأمر أن أنوثتي اكتملت، والخوف أربكني ما جعلني أختبئ من أبي والعالم كله، حتى أتت أمك لتطمئن إليّ فبكيت على صدرها إلى أن طمأنتني أن كل شيء بخير، وأن ما حدث لن يزيدني إلا جمالًا واكتمالًا. يدي التي أخبئها خلف ظهري في محاولة لإقناع الجميع أنني صادقة والدليل أني لا أضع يدي على صدري كوسيلة دفاعية ولا أشهرها بطريقة استعراضية لأشتت انتباه الآخرين عن كلامي بحركات يدي. إنني الآن أنظر مباشرة إلى عيني عكس ما كنت أفعل حين أترك نظراتي تذهب في جولة لاكتشاف ما يحيط بي، لا يمكنني احتمال الأمر، سأموت يا مختار، إن لمِسْتَ امرأةً غيري سيقف قلبي. هذه الأفكار البائسة تترك ندوبها على روحي، كل مساءاتي باكية، وكل صلواتي ليتك تعود.

PDF Eraser Free

- كنت أود إخبارك بأمر كان من الأهمّية بما لا يسمح بتأجيله ولو لحظة، بحثت عن صوتي كثيرًا فلم أجده، فتّشتُ بين هداياك القديمة، في أدراجي الممتلئة، حقائبي القديمة التي أسلمتُها إلى أعلى الخزانة، تحت الوسائد الباردة، وخلف عامي الراحل بعيدًا عنك فلم أجدْه. أيقن صوتي أن رسائله التي لا تصل لا جدوى من إرسالها فآثر الصمت والانزواء بعيدًا عني لعلمه أني لا أتقن الثرثرة إلا عنك وإليك. جسدي يسبح في بحر من العرق، الخَدَرُ يلفُّ جسمي وقلبي لا يهدأ، هل كنتُ أحلم؟ لا أدري، أرغب في النوم كما لم أرغب فيه من قبل، سأنام.

- أعلم أنني أخطأت، وأعلم أن الله غفورٌ رحيم، فمن تكون أنت لتتكبر على فطرة الله وشريعته؟ من تكون لكي لا تغفر زلةً دفعتُ سنينًا من عمري سقطت تِباعًا، وشاركتَني في الدفع سنينًا من عمرك كذلك، لو أنني لم أحملك في صدري طوال هذا العمر لكنت الآن امرأة تنعم بدفء رجل وشقاوة طفل، أنام قبل تمام العاشرة وأستيقظ حين تنقر العصافير نافذتي، أصنع الشطائر والضحكات والقبلات السريعة لأطفالي وزوجي قبل أن ألوح لهم وهم يحملون أحلامهم خلف ظهورهم أو في أيديهم، ولكنني رهنت عمري للانتظار، للدقائق التي لا تنتهي والثواني المرتكزة في عيني تغلّها كلما رمشت، لم أتخيل أن أحملَ في أحشائي طفلًا ليس من صُلبك،

PDF Eraser Free

طفلًا لن يشبهك، ولن يأخذ منكَ لون عينيك، ولا لمستك الحانية، ولن أراه وهو يجري إليك فتحمله وتقذفه إلى السماء لتعلو ضحكاته آمنًا مُطمئنًا أن له أبًا لن يتركه للسقوط، أتعلم ما هو الأشد إيلامًا في هذا كله؟ أنني لن أسمعه يناديك: بابا، ولن تلتقط أذني ضحكاتك وأنت مُستلقٍ على ظهرك وهو يحبو بكل شقاوة على جسدك، لن تأخذه بيدك أينما ذهبت، لن يكبر في جوارك لتصادقه حين تباغته المراهقة وهو معك، لن نرسم أحلامه ونكتب أيامه معًا، لن تختار اسمه ولن أسميه كما تحب، الأمر ليس بالسوء الذي تظن، إنه أسوأ صدقني.

- عجيبٌ أمر الحب، يأتي في الوقت الذي لا ننتظر، يأخذنا معه ويمضي، يتركنا أجسادًا منتهية الصلاحية لا تعرف العيش، يمر الزمان عليها ويترك أثره، تجاعيد عابرة يختلف عمقها بحسب قوة أثر الأمر الذي مر على ذلك الجلد الذي كان ناعمًا يومًا ما، نُدب في أجزاء غير ظاهرة وربما ظاهرة من الجسد، هالات سوداء تحت العينين وفوقهما أحيانًا، ابتسامات مصطنعة، ولا شيء من الدمع؛ فالدمع للمُرفّهين ونحن ابتلعنا الدمع حتى اختنقنا.

- ها أنا الآن أجري خلف الطرقات التي طالما شهدت خطواتك وأنت تلاحقني علّك تحظى بالرضا والقبول من امرأة تبتسم بغرورٍ كلما نظرت إلى المرآة وتمايلت بغنجٍ

PDF Eraser Free

مبالغٍ فيه وأرسلت قبلة إلى ذلك الوجه الملائكي الذي يبادلها النظر مبتهجًا، لتفيض أنوثتها الطاغية، كانت تعلم أنها أوتيت من السحر ما لا ينبغي لأحدٍ بعدها ولم ينبغِ لأحدٍ قبلها، لم تؤنبني يومها، لم تعاتبني، ولم ترفع صوتك بوجهي، اكتفيت بأن همست بصوتٍ بدا وكأنه مُرسلٌ إلى السماوات:

- أنتِ لا تعلمين أنك تقتلينني، ولكنني لن أنسى أن أُخبر الله أني أحبكِ.

ورحلت.

وكأن همستك اخترقت السماء وارتدّت إليّ لتُصيبني في مقتل، منذ ذلك اليوم وحبك يتكاثر في صدري حتى ما عدت أقدر على احتماله، فصرتُ أردد تعويذتك علّها ترتدُّ إليك وتصيبك:

- أنت لا تعلم أنكَ تقتلني، ولكنني لن أنسى أن أخبر الله أني أحبك.

لكن صوتي البائس لا يقوى على رفع نفسه إلى السماء، إنه لا يبرحُ صدري، لأموت وحدي دون كفّك تمتدُّ إلى جبيني وتمسحُ الخوفَ والغياب. ولا يُمحى).

رسائل متلاحقة، لا يربطها سوى أنكِ أنتِ وحدكِ من أرسلها، تارة عاشقة وتارة غاضبة، تارة واهمة وتارة نادمة، حينًا ضحية وحينًا جانية، تقررين البعد متى شئتِ وتعودين متى أردتِ، كل شيء خاضعٌ لرغباتكِ

PDF Eraser Free

ومزاجك، لا أعلم متى ستكفّين وتُسلمينني إلى النسيان، كم بلغ عدد رسائلك؟ سبع وعشرون بعد المائة؟ أم تسع وأربعون تجاوزت الألف، أم. . . .؟ لم أعد أذكر الرقم بالضبط، لا يهم، إنها مجرد أرقام لا تصنعُ فرقًا جوهريًا حين تكون الرسائل باردة، لا تحمل في طياتها سوى الذكريات الملعونة، أحملُ أصابعي الهشّة لأقذف هذه الرسائل مع أخواتها اللواتي سبقنهن إلى المصير نفسه، ينبهني السيد فيس بوك المحترم:

- بمجرد حذف نسختك من المحادثة، لا يمكن التراجع عن الإجراء.

أود لو أخبره أن لا نية لي مطلقًا في استعادتها، ولكنه لا يحب الثرثرة كثيرًا، فأؤكد:

- حذف المحادثة.

تدور بي الأيام مع الدوران الافتراضي لإتمام حذف المحادثة، تُرى هل حاول أمجد التقرّبَ إليكِ؟ هل أغراكِ مالٌ لم تجديه معي، أمجد البليد، بكرشه المتكوّرة وعينيه الغائضتين خلف جفنيه المتورمين دائمًا، أمجد الذي يمتلك كل شيء، ما زال مؤمنًا بعدم امتلاكه شيء، أتراكِ فكرتِ بجدية في الاقتران به، التباهي بركوب سيارته الجديدة، والاستلقاء بجوار حوض السباحة في حديقة منزله الكبير، كم مرةً تخيلت أصابعكِ وهي تمر على وجهه، كم مرةً كانت يداه حدود

PDF Eraser Free

مملكتك؟ هل حلمتِ بتقبيله؟ ألم تشعري بالقرف من اللعاب المتطاير من بين شفتيه كلما تحدث؟ هل كبُرتْ أحلامكِ لتنجبي منه طفلًا وصليتِ كثيرًا ليشبهك، أتراكِ ستحبينه لو جاء نسخة من أبيه البدين؟ أعصر جبهتي بيدي:

تبًا لرسائلك وهي تحملني إليك محروقًا بسُخطي وغيرتي، أحذفها من هاتفي وتستوطن روحي، تعرفين كيف تنزعين الحياة من أوردتي دون رحمة، كلما اقتربتُ من النسيانِ أتيتِ، وكلما ابتسمتُ تمردتِ، تُشاطرينني الغربة والحنين وترغمينني على مشاطرتك الألم والخوف والبكاء، كلانا لم ينسَ، ليس لأننا غير قادرين عليه، بل لأننا لم نرغب في النسيان.

ينتشلني الحاج صالح من دوامة التفكير فيك:

- محمد مختار، خذ طلب الزبون.

أضع الهاتف جانبًا وأجري نحو السيارة الزرقاء الغامقة بلوحتها الصفراء ذات الرقم الثنائي (44)، آخذ نظرة سريعة إلى نوعها قبل أن أصل، (بورش كايين)، أووه يا إلهي؛ كم عمرًا أحتاج لأشتري مثل هذه السيارة؟ ولا في أحلامك ـ أسخر من نفسي ـ يبدو أنها لأحد الأغنياء ممن يملكون ما لا طاقة لهم على صرفه من المال، أو من أولئك الذين يستدينون القلق لشراء الأوهام، عمومًا نوع السيارة ليس هو القضية الأساسية في الأمر، ما يهم

PDF Eraser Free

الآن أن أقدم فروض التقدير والاحترام للسيد المُفترش مقعده خلف مقود هذه السيارة الفخمة، يفتح نافذته بمجرد أن أقف قبالته، ليأتيني نسيم التكييف وكأن نافذةً فتحت لي على الجنة في وسط الجحيم، الصيف في مسقط لا يُطاق، تحتل ابتسامة زائفة شفتي، وقبل أن أسأل السيد صاحب السيارة الزرقاء كان صوته يتهادى بالكثير من اللطف:

- ليمون بالنعناع لو سمحت، وأضف إليه الكثير من الثلج.

أستبدلُ ابتسامتي المصطنعة بأخرى تشكره على لطفه تُرافق صوتي الذي يهب لتلبية طلبه:

- دقيقة.

أجري إلى الداخل ولسان حالي يقول: يا رايق! هل حقًا ستكون دقيقة؟ أم أنها دقائق عدة؟ لا بأس، لا أظنها تفرق كثيرًا، فمسألة الوقت غير مهمة لمن يعيش في الجنة، أُجهز العصير على عجل وعيني مُعلّقة بالثواني التي تسابقني لتنتصر، أضيف إليه الكثير من الثلج لأهب للشاب اللطيف ما يستحق، الآن أستطيع القول أنه ليس حديث نعمة، فهؤلاء لا يتركون فرصة للسخرية ممن هم دونهم إلا ويغتنمونها، ولكن أرباب النِعَم دائمًا ما ينعمون بالذوق ـ إلا فيما ندر ـ

- أسرع يا مختار، الزبون ينتظر.

دائمًا ما يقطع الحاج صالح حبل أفكاري، أحمل

PDF Eraser Free

العصير وأجري إلى السيارة، أُسلم الزبون العصيرَ وآخذ قيمته وأعود. بينما لا يزال الحاج صالح يُسبِّح بمسبحته البيضاء التي أحضرها من مكة، هذا الرجل الطيب يذهب للحج تقريبًا كل عام، وإن فاتته فرصة الذهاب بأحد الأعوام لأي ظرف فإنه لا يُفوّتها العام الذي يليه ـ هذا ما أخبرني به من سبقوني للعمل معه ـ إنه رجل يحمل في جوفه بيتًا للمغتربين لا قلبًا ينضح الدماء المتكاسلة من الأنيميا المزمنة التي يعانيها، رجل عصامي، أتى عمان ليعمل نادلًا في مقهى فأصبح يمتلك مقهىً خاصًا به بعد عشر سنوات من العمل المتواصل ليلَ نهار، والكثير من التقتير على نفسه وأسرته التي لم تشتكِ يومًا من الفقر أو ترمي الفاقة بوجهه وتهرب دون رجعة.

ـ المرأة هي عمود البيت.

هكذا يردد الحاج صالح دائمًا ـ ولولا أن زوجته كانت تدخر من خلفه ما يفيض عن سد جوعهما لما تمكن من فتح هذا المقهى، شعر لوهلة أنه لن يحقق حلمه بامتلاكِ مقهىً خاص به ففاجأته بما ينقصه من المال، وحين سألها أجابته: إنها كانت تدخر القرش الأبيض لليوم الأسود، ولم تخبره أن المال أتى من خاتم زواجهما الذي باعته دون استشارته، وادّعت أنها فقدته.

ـ لا أحد يشبه الحاجة حليمة.

PDF Eraser Free

يبتسم الحاج صالح وهو يرجع بظهره إلى الخلف متكئًا على كرسيه المصنوع من خشب الورد بنقوشٍ دقيقة منظمة رغم أنها لا توحي بشكلٍ ما.

في مقهى الحاج صالح يعمل أربعة شباب عرب، وآسيويان اثنان تعلّما سرَّ إعداد العصير بشكلٍ يُثير الإعجاب، نسكن جميعنا في شقة واحدة في الطابق الثالث من البناية نفسها التي تقبع في منطقة تجارية مزدحمة، أي إننا نبعد عن المقهى مسافة طابقين لا أكثر، نبدأ العمل في العاشرة صباحًا وننهيه حين ينتصف الليل في الثانية عشرة، من السبعة أيام لنا يوم إجازة نفعل فيه ما نشاء ونذهب أينما شئنا، ولكن السيئ بالأمر أن إجازاتنا لم تكن متوافقة، إذ إن كل واحد منا له يوم إجازة مختلف عن الآخرين، ولكننا في الآونة الأخيرة تفاهمنا ـ ورضي الحاج صالح بالاتفاق ـ أن يأخذ كل اثنين منا إجازتهما معًا، ليتسنى لنا الاستمتاع بها، وزّعنا الأدوار فيما بيننا، نذهب إلى المقهى في العاشرة، نُعدُّ العصائر التي يمكن إعدادها ونُقطِّع الفواكه، لكي لا نتأخر عن الزبائن، في حين نضطر لإعداد بعض العصائر في وقتها لكي لا تتلف كعصير البرتقال والليمون لأنها تفسد إن أعددناها قبل أوان شربها، اتفقنا أيضًا أن يبقى أحدنا لإعداد الغداء، وقمنا بتوزيع الأدوار فيما بيننا، افتتح الحاج صالح فرعًا جديدًا بعيدًا عن العاصمة مسقط، ويبدو أن اثنين منا سيذهبان لإدارة الفرع

PDF Eraser Free

الجديد، وسيكتفي هذا الفرع بحركة أربعة موظفين بداخله، لا أدري إن كان الأمر سهلًا، فنحن ستة ولا نتوقف طوال الوقت، فكيف إن أصبحنا أربعة؟

- إن صعُب الأمر عليكم سأمدّكم بموظفين جدد.

هكذا أنهى الحاج صالح تساؤلاتنا قبل أن نطرحها عليه، أو نبوح بها أمامه، يبدو أن أعيننا كانت كفيلة بالوشاية بنا، أو أننا أصبحنا مكشوفين أمامه.

أشهرٌ عشرة مرّت هادئة، لا يعكّرها إلا الحنين، وصوت أمي الذي لا يمكنني التقاطه والتدثّر به كلما داهمني البرد، ورسائلكِ التي لم تنقطع، تارةً تعتذرين، وتارةً تلومين، تارةً تُعبّرين عن حبّكِ وتارة أخرى ترمين كلماتكِ الغاضبة في رسائلكِ الطويلة، لو تعلمين، فقط لو تعلمين كيف تمرّ الأيام على الغريب، ذلك المطرود من رحمة الأوطان، لا يعلم له ذنبًا إلا عينيكِ اللتين استوطنتا روحه منذُ كنتِ في السابعة لا تعلمين ولا يعلم عن الحب شيئًا، توسّعت عيناكِ واتّسع لهما قلبه وما اتّسعت له روحكِ وأمنياتكِ، بحجم الحبِّ أتى الجرح، وبحجم الجرح يصعُب الغفران.

عشرةُ أشهرٍ مرّت، لم أشتكِ بها هواني على الناس ولا ضعفي وقلة حيلتي، ولكن من أنا لتضحك لي الحياة وتمنحني الراحة التي أستحق؟ لم أعهدها إلا أفعى تتحيّن اللحظة المناسبة لنفث سمومها، بدأ الخلاف بين

PDF Eraser Free

الحاج صالح الذي اتفق مع صاحب السجل التجاري على أن يمنحه الحاج صالح مبلغًا شهريًا مُجزيًا دون أن يتكلف أي عناء، ولكن يبدو أن نجاح المشروع وتوسع الحاج صالح وافتتاحه لأفرع جديدة جعلت الطمع يدخل بينهما شريكًا ثالثًا لن يهدأ حتى يُفسِدَ كل شيء، فطالبه شريكه بنصف الأرباح دون أن يدفع ريالًا واحدًا، وإن لم يرضَ الحاج صالح فلن يكون أمامه إلا الرجوع إلى بلده تاركًا شبابه وحلمه يهنأ بهما الغريب، عفوًا أقصد صاحب الحق، فهو ابن البلد، ونحن ـ أنا والحاج صالح وجميع من يعمل معه ـ الغرباء هنا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(5)

بانتظار وجهِ حبيبٍ لم يأتِ؛ تظلُّ
أعيننا مفتوحة بعد الموت.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

كانت أجسادٌ ثلاثة تتحدث همسًا، يتقاطر من أطرافها الماء وكأنها خرجت توًا من البحر. وكان أنها خرجت توًا من البحر فعلًا بعد أن لفظها قارب مطاطي ليتركهم لمصائرهم المرهونة بلا ضمان لغدٍ أو حياة، صاحب القارب أخذ أجرة الطريق الباهظة ورحل، وهم تقاذفتهم الأمنيات كُلٌّ في اتجاه، وكان حظ رفاقنا الأسوأ حين جرت بهم أمنياتهم بريحٍ غير طيبةٍ قذفتهم نحو بائسين لا يعلمون من الحياة إلا غرفة خشبية باردة قياسها 3 × 4 لم تعرف للصبغ رائحة ولا لونًا، استيقظنا تلك الليلة والرعب ثامننا، ترك كُلٌّ منا مضجعه ولاذ بأخيه، يومها عرفنا كم نحن محظوظون، بهذه الغرفة التي جمعتنا كإخوة لم تختلط دماؤنا قبل مولدنا، ولكنها أكملت العمر وكأنها كانت كذلك من قبل أن نُخلق، طلب منا أولئك الرجال استقبالهم للتخلص من عناء رحلتهم، يريدون النوم وبعض الطعام لا أكثر، كانوا يتحدثون بالإشارة، وربما قالوا أحيانًا كلمات مثل: مُسلم، أكل، نوم، في محاولة مستميتة لإيصال رغبتهم إلينا، يبدو أنهم قد حفظوا مسبقًا هذه الكلمات للاستعانة بها، شعرنا بالشفقة عليهم، بدأ الشعور بالخوف يقل وتحل معه الرحمة، رأينا بهم أنفسنا، غرباء مثلهم، ما الذي

PDF Eraser Free

نملكه أكثر مما يملكون، اكتشفنا بعد المقارنة أننا جميعنا بائسون لم تمنحنا الحياة ما نستحق، وأن الفقر أبونا جميعًا، أنجبنا وتخلّى عنا، تركنا للجوع والضياع، للطرقات الملتوية والسنين الفائتة، أبٌ ظالم يسألنا البر ولم يبِرّنا يومًا بلقمة أمنٍ تجعلنا نثق أن هناك غدًا في الغيب يحمل ابتسامة وعصافير، تبادلنا ـ رفاق الغرفة وأنا ـ النظرات، ولكن رامبير الذي تعلم الحب صغيرًا وودّعه صغيرًا أيضًا كان الأسبق في مد يد العون لهم، بحث عما يمكن أن يقدمه لهم من معلباتٍ يُخرس بها أصوات أمعائهم العاوية كذئابٍ لم تذق الطعام منذ أمد بعيد، يُقال بأن الذئاب تعوي بسعادة حين تجوع لأنها تعلم أن بعد الجوع شبعًا، وتعوي بحزن حين تشبع لأنها تعلم أن الشبع يتبعه جوع، حتى الذئاب علّمتها غريزتها أن الدنيا تدور أو كما يقال: دوام الحال من المُحال، ورغم التردد الواضح منا والرهبة التي لم يمحُها ذاك الانقضاض السريع على الطعام إلا أننا ارتأينا أن من الواجب مساعدة رامبير على إتمام ما بدأه على أكمل وجه، أنهى ضيوف الظلام طعامهم، كانوا ثلاثة رجال، طُوال القامة، بيض البشرة، يرتدون ملابس عادية لا تجعلك تميز من أي البلدان أتوا، جميعهم له شعر أسود ناعم وكثيف يصل طوله إلى الكتف، قد يقصُرُ أو يطولُ قليلًا، تحسستُ شعري الذي بدأ بالانحسار عن جبهتي، تاركًا مساحة تنعم بها الشمس كلما احتلت قلب السماء، ينساب عليها العرق بسلاسة دون أن يصطدم بشعيراتٍ تُعيق مجراه إلى وجهي، لا يتحدثون العربية إلا بضع كلماتٍ حفظوها أو تم

PDF Eraser Free

تحفيظهم إياها، همّوا بالنوم لولا أن أقدامًا فاجأتنا بكسر الباب غير المغلق، وإضاءة أعمت أعيننا بدلًا من أن تمنحنا النور اللازم للرؤية، حين بدأنا التعوّد على الضوء والضجيج الذي حلّ علينا في طرفةٍ عين كان أفراد الشرطة يتحلقون حولنا بمسدساتهم وعصيهم السوداء الطويلة، أخذونا جميعًا إلى مركز الشرطة، كانت ليلة طويلة، لم ننم بها، ولم ننل أجر اليوم الذي يليها، وكدنا نبقى في السجن ما لا يعلمه إلا الله من العمر لولا أن رب العمل الذي نعمل به أحضر بطاقاتنا، ورغم أنها كانت فرصةً مواتيةً للنجاة بنفسي من هذه الجحيم، وفضح المؤامرة التي تعرضت لها، وقد فكرت في ذلك فعلًا إلا أنني خفت أن ألحق بهؤلاء الغرباء الذين سيبقون في السجن إلى أن يتم ترحيلهم إلى بلادهم مرة أخرى، وكأنهم لم يأتوا منها، لا شيء سوى المال الذي ذهب هباءً، والأمنيات التي تلاشت، والخسائر الفادحة التي لن يعوضها شيء، ازدردتُ وجعي وأمّنت على أقوال كومار كابور وذيل الكلب سانجاي الذي يعوي معه. مضت تلك الليلة ولم تمضِ، في اليوم التالي اضطررنا للعمل إلى وقتٍ متأخر من الليل لنعوض ضياع الصباح الذي قضيناه في مركز الشرطة، ورغم ذلك؛ رغم عدم نومنا في اليوم الذي سبقه، والعمل المضاعف، ووقت الأكل الذي لم نتمكن من اقتطاعه بل واصلناه عملًا ظنّنا أننا لن ننتهي منه أبدًا إمعانًا في تعذيبنا، جاء قرار حرماننا من أجرة ذلك اليوم عقابًا على استقبالنا هؤلاء المتسللين، اكتفينا ببلع أفواهنا، بينما وجّه بعضنا نظرة عتب إلى رامبير لأنه كان

PDF Eraser Free

الأسبق لمعاونتهم، ولكن هذا الأخير اكتفى بالانسحاب والبكاء في فراشه، اقتربت منه، وضعت همي على كتفه فانحنى أكثر:

- أُقدِّرُ ما فعلت، أنت حنون يا رفيقي، لا بأس؛ كل شيء سيكون بخير ـ بادرته مواسيًا ـ
- ماذا لو كان لأحدهم حبيبة تنتظر عودته بمهرٍ يملأ عين أبيها، وجب عليه الآن أن ينفض يديه منها، لربما كان لأحدهم أُمٌ مريضة، اشترى بقيمة الدواء تذكرة لقاربٍ مطاطي كان يمكن أن يبعثه إلى الموت بدلًا من السجن والأمنيات.
- ولكنهم أخطأوا، جميعنا نعلم أنهم أخطأوا، لا توجد بلد تقبل التسلل إلى حدودها بهذا الشكل، نحن نتحدث بعاطفة وهم يحافظون على أمن بلادهم.
- وهل تعتقد أني ألوم الشرطة لأنها تحافظ على أمن البلد؟ لا؛ أنا فقط أفكر في أولئك الرجال، لا أراهم يختلفون عنا، نحن الذين أتت بنا جوازات سفرٍ أنيقة تحمل صورنا الملونة وابتسامة عريضة مصطنعة اضطررنا لرسمها لتبدو صورنا أجمل فيقبلوا بنا عُمّالًا أقرب للسُّخْرَة، وما أن نصل حتى ينتزعوها من وجوهنا انتزاعًا، هل نحن أفضل حالًا منهم؟ ما أدراك أنهم لم يحلموا بجوازات سفرٍ بصورٍ ملونة تبدو بشرتها أكثر صفاءً بعد معالجتها، تعبر بهم إلى ما يشتهون، تأشيرات

PDF Eraser Free

عمل تحمل المستقبل لأيديهم، غرّروا بهم كما تم التغرير بنا لنأتي إلى هنا فُرادى، لا أهل ولا أبناء ولا حبيبة تنتظر عودتك.

أرفع همي عن كتفه لأخفف الحِمل عنه قليلًا ولكن كتفه تظل مرتمية يحاول الاتكاء على صدره لعله يجد به بعض الدفء، أمضي باحثًا عما يشتت فكري، ألمح رفاقنا وقد اتخذ كل واحد منهم ركنًا ينفرد به بوجعه دون أن ينغص عليه آخر لذة ذلك الوجع، أُسلمُني إلى فراشي وأدس دمعي طرف وسادتي وأبحث عن وجهٍ يأخذني إلى النوم دون ثرثرة، ولكنه الأرق لا يرضى له شريكًا في الحضور، كهذه الليلة كانت ليلتي تلك، أرقٌ أسلمني إلى الفجر لأتقيأ عصارة معدتي صباحًا من شدة التعب.

هذه الليلة أيضًا رافقني الأرق، ففضلت أن أخرج لأتنفس رائحة الحياة بعيدًا عن الأنفاس المتزاحمة في الغرفة ذات الأمتار التي لا تتعدى الاثني عشر حين نضرب عرضها بطولها، في الخارج كان الهدوء يطغى على أنفاس العُمّال الحالمين في الداخل عدا بعض الأصوات المُتداخلة في محاولة منها للسيطرة على الصمت المُطبق والظلام المتنامي في التوغل في فضاء الليلة الغافية التي أطفأت قمرها مُبكرًا، لم يثر الأمر اهتمامي، فلربما كان لا يتعدى بعض المارة المزعجين، أضأتُ هاتفي لأستنير طريقي وأنا أبتعد أكثر عن الغرفة التي تحتوينا والمبنى الذي نشتغل لإتمامه، غرفتنا المعتمدة على جدرانٍ خشبية وسقفٍ من الألمونيوم الخفيف

PDF Eraser Free

ليسهل تفكيكها ونقلها من مكانٍ إلى آخر حسب موقع العمل في كل مرة، هذا السقف البارد لا يبدو رحيمًا في الشتاء، إنه لا يكتفي بجعل أجسادنا تقف في مهب البرد وحدها، بل يتآمر مع كل قطرة غيثٍ نفرح بها لتُحيلنا للاجئين يتكومون بعضهم حول بعض هربًا من قطرات المطر التي يشاركها السقف ضحكاتها علينا، وكلما زاد انهمار المطر علت قهقهات السقف، وزاد عدد الدلاء الموضوعة لجمع قطرات المطر المتمردة على استماتة السقف في التصدي لها. الشتاء الماضي كان قاسيًا ببرودته ومطره الذي انهمر طويلًا حتى تحولت أرضية غرفتنا إلى طمي رمليّ نتيجة انجراف بعض التربة من المبنى الذي كان لا يزال هش الأساس لم نُقم صُلب عمرانه بعد، أذكر أننا صحونا يومئذ والمياه تجري من تحتنا محملة بالكثير من التراب ما اضطرنا لاستبدال أفرشتنا لاحقًا، وكم فرحنا ـ ونحن نعيد ترميم الغرفة ـ حين وجدنا نبتة صغيرة شقت طريقها وسط الطين بغرفتنا فقررنا أن نتعهدها بالرعاية والاهتمام لننظر ما ستؤول إليه غير آبهين للحيز الذي ستشغله، يكفي أنها لن تفكر في خطف نَفَسٍ من صدورنا، لأنها تتنفس ثاني أكسيد الكربون الذي نتخلص منه نحن بتنفّسنا، أي إنها نعمة أخرى تضاف لفيض النعم هنا، وكم كانت خيبتنا عظيمة حين بدأت بالذبول بعد عدة أيام رغم أننا كنا نسقيها، أخشى أننا أغرقناها بالماء حتى ماتت غرقًا، فلم يبقَ عاملٌ إلا وسكب من إنائه قليلًا من الماء ليشعر بأهميته في حياة هذه النبتة الضعيفة، أو لربما أنها لم تحتمل الحياة في غرفتنا التي

PDF Eraser Free

لم تكن على استعدادٍ قط لاستضافة ضيف جديد لأن المقيمين بها بالكاد يستطيعون المرور بين الأجساد الغافية على التعب، ونادرًا ما يمر أحدنا بدون أن يدوس بوجعه جراح أصحابه النائمة داخل أجسادهم بسكونٍ وطمأنينة، يالِلمساكين الذين يبحثون عن فُتات قيمة قد يجدونه في بُرعم يأملون أن يتفتّح يومًا كزهرة ياسمين مثلًا أو شجرةِ برتقالٍ حامض فربما كان هذا البرعم لبذرة رماها أحدهم يومًا ما، وحده إحسان أكبر كان يقول: إنها قد تُصبح شجرة برتقالٍ بطعمٍ حلو، ولم لا؟، صحيح أننا لم نتقاسم يومًا برتقالةً حلوة لنرمي بذورها الَتي قد تكون أصلًا لهذا البرعم، إلا أن الله قادر على كل شيء.

- تمامًا كإنجاب زوجته ابنًا له بعد عامين من غيابه.

هكذا تندّر عليه الرفاق دون أن يتجرأوا على إسماعه أصواتهم.

أسترق النظر إلى هاتفي، استبقت الساعة الثانية نصف ساعةٍ أخرى إلى الثالثة فجرًا، بدت لي الغرفة أبعد من مدى بصري، يبدو أنني مشيتُ طويلًا، عدت أدراجي لأمنح جسدي بعض الراحة قبل أن أُسلمه مجددًا إلى مراقب العمال ليبدأ انتهاكاته الواضحة جدًا بحق إنسانيتي وإنسانية جميع من يعمل تحت إمرته لأجد أن تلك الضوضاء الغريبة عند المبنى مازالت موجودة، ألتفت إلى الغرفة؛ يبدو تمامًا أن جميع العمال ما زالوا في سابعِ حُلم كما تركتهم، التعب الذي ينال منهم مآربه نهارًا يحصدهَم ليلًا ليقعوا صرعى بلا حراك لا تكاد تعرف

PDF Eraser Free

أنهم أحياء إلا من خلال أنفاسهم المتثاقلة بحمل صدورهم، وغالبًا لا أحد يستيقظ إلا بعد أن تقترب مثانته من حدود الانفجار، فيخرج متثاقلًا بعينٍ نصف مغلقة، ولولا أن الأقدام تستدل طريقها الذي اعتادته لما أبقى جسدًا من تلك الأجساد المتمددة إلا وداسها أو اصطدم بها على الأقل.

ينتابني الفضول لمعرفة مصدر الصوت، أضع هاتفي المحمول على الوضع الصامت خشية أن يثير صوته أي ضجة، أقترب من المبنى وأحاول استراق النظر إلى الداخل، لم تكن العتمة سيدة الموقف تمامًا فقد كانت بعض أضواء الكشافات الصغيرة تحوم في أرجاء المكان ويتنقّل بها أصحابها بين أكياس الإسمنت وأسلاك الكهرباء التي تناوب على حملها رجالٌ لم يسبق لي أن رأيتهم، يشدني صوتٌ قَدِمَ من الخارج آمرًا من بالداخل أن يُسرعوا قبل أن يستيقظ أحد العمال من النوم وينتبه لوجودهم، لا يبدو الصوتُ غريبًا عني ولكن الظلام في الخارج لم يسمح لي بتبيّن صاحب ذلك الصوت أو تيقن هويته، عُدت إلى الغرفة بعد أن رحلت تلك السيارة دون أن أتبين نوعها، بكل الأحوال لا يهمني ما نوعها، يبدو تمامًا أن ثمة سرقة ستنكشف غدًا، وشخصيًا لا ينقصني الزجّ بنفسي في مشكلة أنا في غِنى عنها، أما رفاق الغرفة والعمل فقد كانوا غارقين في أحلامهم، أتلمّسُ الطريق إلى فراشي الفارغ، أتعثّر بأجاي الذي ترافق تقلّبه مع نقلي لخطوتي أعلى جسده، وأكاد أقع عليه لولا أن لطف الله جعلني أحافظ على توازني وأعود إلى وقفتي المهتزّة، فأبدو كلاعب سيركٍ يحاول التوازن

PDF Eraser Free

على حبلٍ رفيع قبل أن يسقط فتتهشم عظامه وأحلامه دفعةً واحدة، أسمحُ لأجاي بالولوج إلى عقلي الذي لا يبدو على ما يرام، أجاي ذو الجسد النحيل الراقد بتململٍ واضح، رفيقُ العمل الوحيد الذي لا أجرؤ على النظر إلى عينيه بلونهما الأخضر الغارق في الغموض والسحر والحزن، حكى لي مرةً أنه ترك حبيبته لتصبح زوجةً لغيره، بعد أن أتى سارق الأحلام واختطفها في سيارةٍ فارهة، حبيبته أصبحت أمًا لطفلين كلاهما لا يشبهه، وكلاهما لم يُخلق من صُلبه، لكنها ما عادت تملك تلك الابتسامة القمرية، وعيناها العسليتان أصبحتا داكنتينِ كقهوةٍ مُرّة، ورغم ذلك فالمساءات التي يقضيها في تخيل حبيبته في أحضان آخر اشتراها بالمال فباعت جسدها له بطيب نفس، أو مرغمةً كما قالت له، لا يهم فالنتيجة واحدة، هذه المساءات لا يصل وجعها إلى تلك التي يبكي فيها أمه التي رحلت ولم يُسمح له بالسفر لإلقاء نظرة أخيرة على جسدها الحبيب قبل أن يُسمح للمحرقة بالتهامهِ طريًّا، ويُذرى رمادها في النهر، لطالما ألقى جسده صغيرًا في النهر نفسه ليسبح ويستحم ويلعب فيه مع رفاقه الصغار المليئين بالطين والألوان، كيف له أن يرتمي بحضنه مجددًا وقد حمل رماد أمه بعيدًا؟ هل سيتذكر بشرته القمحية وهي تنغمس به وقد تلونت كقوسِ قزح خلّفه المطر في عيد الألوان؟ قال لي أجاي مرّة: كيف أحتمل العودة وأنا لا أعلم أي شجرةٍ نبتت من رماد أمي، ولا أي روح ارتوت منها؟ اعتدنا أن يذر رماد الأم الأقرب لقلبها وكنتُ الأقرب ولكنه غيري ذر رمادها، أخبرني الجيران أنه

PDF Eraser Free

كاهن المعبد لأنني الابن الوحيد لأمي، بقيت عيناها شاخصتين إلى السماء منتظرةً أن أهبط عليها، قالت لهم: أن الرب سيبعثني لها في أي غيمةٍ عابرة، طلبت منهم ألا يُغمضوا عينيها إن ماتت قبل حضوري، فربما أخّرني ظرفٌ قاهر عن تلبية ندائها وهي على فراش الموت تترقب رؤيتي لترقد رقدتها الأخيرة مطمئنة، موقنة أني قد آتي لتُلقي عليّ النظرة الأخيرة حتى وهي في قلب المحرقة. إن نسيتُ أمي التي جرف النهر رمادها دون أن أتبعه وأجري خلفه لأعرف مستقره؛ فهل سأنسى والدي الذي سحبه طوفان النهر قبل أن يرمي الطمي على أرضنا الصغيرة وكأنه يعتذرُ منا لأنه سلب منها راعيها الوحيد؟ حتى أرضنا الصغيرة، تنتظرُ عرقي الذي كنتُ أبذرهُ عليها حينًا وأغمسه في ماء النهرِ حينًا آخر، ولكنني أخيرًا خذلتها وهربتُ بعيدًا عنها، أنا لستُ إلا ولدًا عاقًا وجبانًا.

يفتح أجاي عينيه وأنا لا أزال في وقفتي تلك أنظرُ إليه كمن يشتهي أن يُخزّن وجعًا آخر في ذاكرته، فيطالعني بعينيه الخضراوين كنهرٍ عميق تعلم أنك غارقٌ فيه لا محالة ويفاجئني بسؤاله: ألم تنم إلى الآن؟ يمر ببالي سريعًا ما رأيته في الخارج وأخشى إن صدقْته أن أُتهم بما لا يسرّني، أجيبه بلا مُبالاة: بلى؛ ولكني ذهبت إلى دورة المياه، دورة المياه الملاصقة للغرفة والتي نتقاسمها جميعًا، نقف لأجل أن نحظى بدقائق راحة داخلها في طابور قد يمتد بنا ساعة أحيانًا، وإن أصابنا الملل أو التعب وانسحب أحدنا من مكانه فإنه لا يستطيع العودة إلا إلى آخر الطابور، وإلا فإن الجميع سيأكله

PDF Eraser Free

نيئًا لأنه ترك دوره وذهب ليرتاح قليلًا، هذا النظام اعتاده الجميع، ولم نعد نعاني طول الانتظار، لأن نفاد الصبر يعني أنك ستأخذ دلو ماءٍ بارد وتستحم في مكانٍ مفتوح مستترًا بملابسك الداخلية، ولربما قضيت حاجتك أيضًا في العراء باحثًا عن ركنٍ خفيّ تختبئ به كي لا يراك أحد، ولا ينقصنا رؤية سوءات أجسادنا، يكفي أرواحنا غُبْنًا أن تكون مفتوحةَ الجُرحِ للجميع دون مواربة.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(6)

أحيانًا نحتاجُ إلى بعضِ الكذب لنعيش، حين يُصبح الصدق كسرةَ خُبزٍ يابسة لا تسد رمق أجسادنا ولا أرواحنا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

يظهر من خلف ظله آسيويٌّ لا يشبه ظله إلا في نحوله الشديد، يحملُ في يده دلو ماءٍ فارغًا ومكنسة طويلة، ودون أن يلتفت إلي، يبدأ بالصلاة؛ يُصلي ركعتين ثم يمضي لكنس ساحة المسجد، أشعر بعُريي أمامه رغم ارتدائي ملابسي، سأصلي؛ هكذا قلت لنفسي وأنا آمرها موقنًا بأنها لا بد أن تُطيع، وللمرة الأولى لا يأتيني الشيطان ليوسوس لي بألا أفعل، وبأن من حرمني من أحب لا يستحق أن أشكره على ظلمه لي، يبدو أن الشياطين لا تدخل المساجد فعلًا، أبدأ بالاقتراب من الله، ركعة، ركعتان، ثلاث، أربع، لم أعد أذكر عدد الركعات التي صليتها، ولا عدد الآيات والأدعية التي تلوتها وتوسلت بها إلى ربي ليغفر لي ويرحمني وينقذني مما أنا فيه، لا أدري هل كنتُ خاشعًا أم متألمًا وأنا أذرف حزني في سجدةٍ طالت بي حتى لامست يده القلقة كتفي: هل أنت بخير؟ هكذا انتشلني ذلك الرجل الآسيوي من اتحادي مع الله، فرفعت رأسي وأكملت صلاتي وهو قابعٌ جواري ككلبٍ أمين يحرسُ صاحبه النائم حتى يصحو.

- السلام عليكم.

PDF Eraser Free

جاءني صوته باردًا كمطرٍ يتساقط بهدوء، وتتخلل قطراته مسامات جلدي لتتوغل في روحي بردًا وسلامًا.

- كنتُ أصلي.

أجيبه وأصمت. عيناي لا تفارقان موضع سجودي خشية أن يتملكني ضعفي، وأرتدُّ حسيرًا بائسًا مقطوعًا من الحياة، أو أن تسرقني الدنيا من إيماني الذي بدأتُ باسترداد اليسير منه.

- يبدو أنك رجلٌ صالح، نادرًا ما أجد أحدهم يصلي بهذا الخشوع، حتى أني خشيت أن تكون فارقت الحياة في سجدتك الطويلة.

- هل أبدو صالحًا؟

- ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾

ويبتسم ـ ذلك الرجل الطيب ـ وهو يتلو الآية، عامل بسيط ينظف المسجد يعلم من القرآن ما لا أعلم، هل أنا فعلًا رجل صالح؟ لا أظن؛ فالشيخ ياسين كان يقول عكس ذلك، رحمك الله يا شيخ ياسين، أظنك كنت لوّحت بعصاك في وجه هذا الآسيوي النحيل وهو يؤكد أنني رجلٌ صالح، وربما ضربته بها على رأسه ليعود إلى رشده ولا يتفوه بالحماقات.

أخذتني أفكاري بعيدًا، لست متيقنًا بالأشياء التي مرت بفكري مرور الكرام، ولا تلك التي استعمرته عابثةً برحابة صدري الذي بدأ يضيق بما احتواه، ذهبت إلى بلدي، قبّلتُ أمي، ارتميت على صدر أبي، وقرأت الكثير من القرآن في

PDF Eraser Free

حضرة الشيخ ياسين، تشاجرت مع أمجد وغلبته، خطبت حورية ووافقت بسعادة غير مصطنعة، ثم أخذتها بجولة، طلبنا الذرة المشويّة وتناولنا المثلجات.

- تبحث عن عمل؛ صحيح؟

قالها بابتسامة الخبير الذي أخرج روحي واستنطقها ثم أعادها إلى نحري راضيةً مرضية، تجمّدتُ مكاني، عاودَ الارتعاشُ أطرافي، أبهذه السرعة يا الله؟ لم أكن مُهيأً بعدُ لتستجيب لي، أنا لم أفكر حتى في الاستجابة، لم أُنْهِ تلاوة دعائي ولا إقامة صلواتي، ما زلتُ أبحثُ عن كُوّةٍ توصلني إليك، فكيف أتيتَ إليّ قبل أن أصل إليك؟

- يُمكنني أن أساعدك.

اصمت قليلًا أرجوك، فأنا لم أدرب لساني على الرد السريع، عقلي لا يزال غير مدركٍ لما تقول، من الذي أرسلك إليّ؟ هل أرسلك الله ملاكًا على هيئة بشر؟ أتلمّسُ أصابعي، لا أزالُ حيًّا، وهذه الرعشة بأطرافها تشهدُ على ذلك.

- نعم.

لم أكن محتاجًا إلى أكثر من هذه الكلمة ليأخذني من يدي ويساعدني على النهوض، تركتُ له يدي، وقبل أن أفكر في ملابسي التي تركتها على حوض الوضوء كانت يده تمتدُّ إليها وتضعها مع بقية أغراضي في يده الأخرى، وينطلق بي إلى خارج المسجد، لم أُكلِّف نفسي عناء سؤاله عن وجهتنا،

PDF Eraser Free

ولا طبيعة العمل الذي قد يوفره لي، ولا عن اسمه حتى أو عمله أو.. أو.. أو..

- أنا تاج الإسلام، أعمل بتلك المزرعة التي أمامنا، وأسكنُ في غرفةٍ صغيرة داخلها، أستغل الوقت الذي يجري به الماء بين الأشجار لآتي إلى المسجد وأنظفه سريعًا، فينقدني أهل الحارة ما تيسّر لهم من المال دون شرطٍ بيننا أو اتفاق، صاحب المزرعة يبحث عمن يُساعدني، ففي موسم الحصاد تحتاج المزرعة إلى أكثر من عاملٍ يُريحها من عناء ما أُثقلت به أشهرًا عدة.
- ولكن..
- لا تخف؛ سأعلّمك كل شيء، ولكن؛ إياك أن تخبر صاحب المزرعة أنك لا تملك الخبرة، أخبره أنك كنت مزارعًا وصاحب العمل لم يدفع لك أجرك، فمضيت تبحث عن عملٍ تسد به رمق جوعك.
- ولكن..
- إن أخبرته الحقيقة فلن يقبلك

ويتنهد وهو يضيف:

أحيانًا نحتاجُ إلى بعض الكذب لنعيش، حين يُصبح الصدق كسرةَ خُبزٍ يابسة لا تسد رمق أجسادنا ولا أرواحنا. فإننا نكذب لكي لا نموت جوعًا. كنتُ مثلك لا أعرف شيئًا وتعلّمت، ولولا أنك ممن يبدو عليه الصلاح لما ساعدتك.

PDF Eraser Free

تلعثمتُ وأنا أسأله:

- أحقًا تراني من الصالحين؟

- أو من التوابين، وفي الحالتين يجب علي مساعدتك وإلا فإنني سأكون قرينًا للشيطان.

دخلنا إلى المزرعة، كانت كجنةٍ مر بها طائفٌ من السماء فأصبحت كالصريم إلا من شجيرات قليلة يتضح جليًّا أنها غُرست حديثًا لتغطي الموت الذي مر بهذه المزرعة، والكثير من النخيل التي أحاطت بالمزرعة كسوار، أو كسور حمايةٍ يتربّص بكل من يحاول الوصول إلى داخلها، هذه القطع المتجاورة من النخيل ظلت صامدةً في وجه الجفاف وهو ينخر كل الأشجار التي جاورتها، لاحظ تاج الإسلام استغرابي فأجابني بدون أن أسأل:

- هذه المزرعة كحال كل المَزارع هنا، كانت مليئة بأصناف الأشجار والمزروعات، ولكن الجفاف قضى عليها جميعها، ولم تسلم منه إلا بضع مزارع أقامها أصحابها في جوار السدود التي أقيمت لمنع مياه الأمطار من الضياع في البحر، فكان أن جفّت أراضٍ واستولت على الماءِ أخرى، وكأن حال هذه المزارع يشبه حالنا نحن البشر، الكبير يأكل الصغير، وظلت هذه النخيل تنمو برغم الجفاف، وتضرب بجذورها في الأرض أكثر ولسان حالها يقول: لن أترك تُربتي للغرباء. آه صحيح؛ نسيت أن أخبرك أن الكثير من المزارع هنا تم بيعها

PDF Eraser Free

لغرباء؛ هكذا فجأة استيقظ أهل القرية على الكثير من الغرباء الذي يدفعون ما لم يحلم به أهالي القرية يومًا ولا خطر على قلب أحدهم، وكأن السماء كانت تُمطر ذهبًا، مدّ كل واحد يده، وحين تنبّهوا كانوا بلا أراضٍ ينتمون إليها، قلةٌ قليلة هي التي وعت الأمر ولم تستسلم للإغراءات المقدمة لهم، ومن بينهم صاحب هذه المزرعة التي يُنفق عليها صاحبها أكثر مما يستفيد، ولكنه يقول إن هذه الأرض حياته؛ وإن فقدها سيموت. العجيب بالأمر أن تلك الأراضي التي قيل إنها ستكون جزءًا من مدينة سياحية أصبحت أراض بور لا يسأل عنها أحد، فجأة فقدت قيمتها وهبطت أسهمها، حتى أن أحدًا لا يرغب في شرائها، ما الذي حدث؟ لا أحد يعلم. بعض الناس يقولون إن الشركاء اختلفوا، وبعضهم يقول إن الميزانية التي تطلبتها كانت أكبر من تلك الموضوعة لها، المضحك أن هناك من يقول إن بعض المتنفذين في البلد طمِعوا في تلك الأراضي وما ستعود به تلك المدينة السياحية من عائدات فقرروا ألا يستفيد منها سواهم، وكان لهم ذلك، ولكنهم لم يحركوا ساكنًا فيما تسببوا بإيقافه، فلا الغريب استفاد ولا القريب، كل الذي حدث أن أراضٍ زراعية تحولت إلى أراضٍ بور، بنايات لم تكتمل، جدران خاوية على عروشها، ولافتة أكل الزمان منها وشرب. ينطبق عليهم المثل القائل: لا يرحم ولا يترك رحمة الله تتنزل على عباده.

PDF Eraser Free

كرم هذا الرجل ـ تاج الإسلام ـ معي جعلني أشك في نياته، فما الذي يدعوه لمساعدة غريب لم يرَ منه إلا صلاته، ولكنه أخبرني فيما بعد أنها كانت كافية ليعرف معدني، فتلك الصلاة لا يُتقنها إلا الأنقياء، وهكذا مرّ ذلك النهار سريعًا، تنقلتُ به بين أحاديث تاج الإسلام عن هذه القرية الهادئة، ووجبة غداءٍ ذات نكهة آسيوية حارة جدًا لم تعتدها معدتي الجائعة منذ يومين مما سبب لي إسهالًا لازمني حتى اليوم التالي، وفِراش تاج الإسلام الذي بدا وثيرًا مقارنةً بيومين من النوم في ظل شجرة أو مختبئًا خلف صخرة، رميتُ عظامي على الفراش واستسلمتُ لنومٍ لم يزرني به حُلمٌ واحد، فحتى الأحلامُ لا تشتهي الضعفاء والمنبوذين والمطرودين من رحمة الحياة، وقبل أن يتثاءب النهار ويرمي شمسه في جُعبة الليل كانت يد تاج الإسلام تنفض عن جسدي بقايا النعاس وتبشرني بقدوم ربّ العمل لأتفق معه حول ما يترتب عليه بقائي هنا من مسؤوليات وواجبات، سأكذب حول إتقاني لها ليبدأ تاج الإسلام تعليمي إياها ويبدأ العم سليمان ـ صاحب المزرعة ـ مباركة جهودي التي لا أراها إلا كأثواب الدراويش المرقعة، العم سليمان رجل عطوف، حين أراه يتوسط أحفاده وهم يتحلقون حوله كتحلق الباحث عن الدفء أتذكر أبي وهو يحملني على كتفه ويطير بي وأنا أفرد ذراعيّ للهواء مُغمضًا عينيّ وأمانُ الدنيا يلفُّني، أبي والعم سليمان كلاهما له قلب من نور، وكأنهما خُلقا في الجنة وهبطا إلى الأرض ليتبوءا مقعدهما من الحياة معطرين أفئدة من حولهما بالكثير من

PDF Eraser Free

التفاصيل الرقيقة والهادئة، في كل صباح يأتي العم سليمان إلى المزرعة حاملًا معه دلتيّ الشاي والقهوة وإفطارًا لثلاثة أشخاص وأكثر؛ دائمًا يضعني في حُسبانه أنا وتاج الإسلام وضيف قادم يكسب أجر إطعامه، وكبد رطبة من البهائم يرمي لها بقايا الطعام، وأسراب من الطيور التي تهبط لتلتقط ما يرمي لها من فُتات الخبز الذي يحضره لها خصوصًا، حتى النمل له حصة من طعام العم سليمان، قبائل من النمل رأيتها تمشي على جسده وهو لا يتحرك لكي لا يُفزعها فتولي هاربة تاركة قوت شتائها في فم الصيف، هذا الرجل له من اسمه نصيبٌ وافر، فكأنه والنبي سُليمانُ أوتيا منطق الطير فملكا هذا الكون بأسره.

PDF Eraser Free

(7)

نحنُ لا ننسى؛ ليس لأننا لا نستطيع، بل لأننا لا نرغبُ في النسيان.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

قبل عام قتلت طفلًا، كان يرمي شيئًا ما باتجاهي، لا أعلم ما هو، ولكنه كان يسقط قريبًا منه، بعيدًا عني، ربما كان خفيف الوزن، ورقة مثلًا، أو ربما وردة، قد يكون لعبةً بلاستيكيةً صغيرةً من تلك التي لا يسمح باقتنائها لمن هم دون الثالثة والنصف خشية ابتلاعها والاختناق بها، لا أدري حقًا، لكنها لم تطِرْ قطُّ بعيدًا عنه، ورغم ذلك ارتبكت وخفت، علمت أنه إن كبر سيقتلني، عيناه الواسعتان بلونهما العسلي الغامق كعسل سدرٍ لم يحل عليه الحول وَشَتَا لي بذلك، نظراته التي كان يسددها باتجاهي أقسمتْ على ذلك، لستُ خبيرًا بلغة العيون ولم يسبق لي أن تمكنت من قراءة عين أحدهم، ولكن هذا الطفل كان مختلفًا، يمكنكَ قراءة عينيه من النظرة الأولى؛ قتلته، نعم؛ أعترف لم يكن أمامي خيار آخر، كان يغني؛ تلك الأغنية أعرفها جيدًا، اعتدت سماعها دائمًا في كنيسة مجاورة لبيتنا كلما مات أحدهم. الآن أسمعُ الأغنية نفسها، ولكن ليس ثمة كنيسة تجاور قاعة المحكمة، ولم يُسرِّب لي السجّان خبر موت أحدهم، ابتلعتُ ريقي وأنا أضع يدي على فمي: الله يحبني لا بد أنه سيغفر لي، هو لا يريدني أن أموت هذا اليوم، لا أظنه يريد.

PDF Eraser Free

ما زال ذلك الطفل متربصًا بي، إذن هو لم يمت، ادّعى الموت ليعدموني، يا له من لئيم، يجلس ببراءة على طاولة القاضي، مُمسكًا شيئًا في يده، قد يكون لعبة، أو وردة، أو ربما ورقة على هيئة طائرة، لا لا، أظن أنها مُشكّلة على هيئة قارب شراعي، يلتفتُ إليّ بلا اهتمام، يعود إلى لعبته وكأني غير موجود، لا بد أنه يرى أنني لا أستحق التفاتة، أو ربما كان واثقًا بهلاكي. يرفع القاضي صوته دون مبالاة بذلك اللاهي على طاولته، أنا واثق برشوته للقاضي ليحكمَ بإعدامي.

- ونظرًا إلى عدم ثبوت الأدلة، وبالرغم من اعتراف المتهم بجريمته، والذي قد يكون سببه عقليًا كما أورد محامي المتهم من تقارير طبية من مستشفى الأمراض العقلية، فإننا نحكم ببراءة المتهم من التهمة المنسوبة إليه، كما يمكنه رفع قضية رد اعتبار والمطالبة بتعويض مادي ومعنوي من أهل الضحية، لتعويضه عن الضرر النفسي الواقع عليه جراء اتهامه، والإساءة إلى سمعته؛ رُفعت الجلسة.

اقتادني اثنان من أفراد الشرطة من قفص الاتهام الذي كنت وُضعت به والقيد في يديّ، لم يعد الطفل في مكانه إلى الطاولة، طارت لعبته إلى السماء حاملة إياه معها، لم يُلوّح لي ولكنه كان مبتسمًا ويغني، الأغنية نفسها تتردد في أرجاء قاعة المحكمة بشكلٍ مزعج، انتزعت يدي منهما بقوة لأضعها على فمي، ظنَّ الشرطي أني أحاول الهرب فرفع مسدسه نحوي وأطلق رصاصته.

PDF Eraser Free

استيقظتُ وأنا أردد أغنية ما، سقطت من شفتي ما إن فتحت عيني والعرق يكتسح جسدي، وكأني خرجت توًا من قلب عاصفةٍ ماطرة، مددت يدي أتلمّس ركبتي، بدت لزجة جدًا، يبدو أن الرصاصة التي أطلقها الشرطي نجحت في إصابة ركبتي، أمسح ذلك السائل اللزج بيدي وأرفعها لأتحقق لونه، لا يبدو قانيًا كالدم، لا رطوبة على يدي، ولا سائل دافئ يسيل من بين أصابعي، هل تراني فقدت دمي؟ أم تراه نشف من الخوف؟ أم أنني أصبحت بلا دم كسائر من هم مثلي؟ أم أنني أحلم كالعادة؟! الواضح أنني أحلم فعلًا. يبدو أنني لن أنجح في التخلص من تأثير عبدالله، الذي اعتدنا أن نناديه أبا بكر منذ أن التقيته وعمل في المطعم اليمني المجاور للمحل الذي أعمل فيه، وسكن معنا في الشقة نفسها التي أتشاطرها مع أربعة من الرفاق، بعضهم يعمل معي وبعضهم مع عبدالله، عبدالله الذي أتى إلى عُمان جريحًا ليتعالج في مستشفياتها، فخرج من المستشفى بجراحٍ أكبر حين علم أنه فقد ابنته وزوجته الحامل بابنه بَكر في شهرها السابع، فرحلت آخذة ابنها معها في ذلك القصف الذي طال منزله، تيقن بعد أن انتبه أن تلك الصورة التي كانت تسكن مُخيلته طوال مكوثه في غيبوبته في المستشفى كانت فعلًا صورة زوجته وابنته يارا؛ يارا التي كان يغني لها مع فيروز كل صباحٍ وهو ذاهبٌ إلى عمله، حتى أن جميع من يركبون معه في سيارة الأجرة ـ التي كان يمتلكها بعد غربةٍ دامت عشر سنوات باع خلالها البن والمكسرات والخلطات الشعبية

PDF Eraser Free

وشيئًا من صحته وشبابه وكرامته في بلدٍ عربي كان ولا يزال يُسميه بالبلد الشقيق ـ جميع الركاب أدمنواً الأغنية وكانوا يرددون كلماتها معه وفيروز:

(يارا ال جدايلها شقر

ال فيهم بيتمرجح عُمر)

وسقط العمر طريًّا، سقط قبل أن تعود الأرجوحة بيارا التي كانت تركض فرحةً صوب القذائف وهي تنهمر على منزلهم، وتصرخ:

ـ أبي، السماءُ تُمطِرُ نجومًا.

ولم يتمكن أن يخبرها أن تلك المتساقطة بشراسة المتربص بفريسته ليست نجومًا، لم يتمكن أن يصل إلى ابنته وزوجته التي كانت أقرب لها فسوّتهما النجوم بالأرض قبل أن يصل إليهما، وسقط هو بعد أن ارتفع في الهواء جراء الريح التي خلّفتها تلك القذائف، أغمض عينيه بغية أن يفتحهما على يارا وهي تلم النجوم بيديها، لتتفتّح أزهارًا، لكنه حين استيقظ كانت يارا ترقد بعيدة عنه، في مدينة لا تغيب عنها النجوم ولا تذبل بها الأزهار، أبوه ذو السبعين عامًا رحل خلف يارا، هذا الرجل الذي احتمل وفاة زوجته وربّى أطفاله وحده ولم يشتكِ من ضعفه وتعبه ووحدته لم يحتمل رؤية يارا الصغيرة ممزقة وهي التي كانت كلما استيقظت حملت له بيديها شيئًا وقالت له بلكنة طفولية:

ـ في أي يدٍ أخبئ الحلوى يا جدي؟

PDF Eraser Free

وكم كانت فرحتها كبيرة حين يختار اليد الخاطئة لأنها حينئذ ستنفرد بالتلذذ بطعم الحلوى بعد أن تُصرَّ عليه أن يتذوق قليلًا منها من باب الكرم، ولكنها لم تكن تعلم أن قطع الحلوى أكبر من يديها الصغيرتين، فيختار الجد متعمّدًا اليد الخطأ بعد أن تُطلَّ قطعة الحلوى برأسها من بين أصابعها القابضة عليها بقوة ليتلذذ هو أيضًا بفرحة حفيدته قبل أن يمنحها دفء حضنه وقبلاته المتشاكسة مع قبلاتها اللزجة.

- كم كانت لذيذة قُبلات يارا، غالبًا ما تكون بطعم الفراولة.

هكذا يتمتم بغصةٍ يسرح بعدها بفكره بعيدًا.

في الأسبوع الأول من وجوده معنا كاد يورطني معه في مشكلة وحده الله يعلم كيف يمكننا التخلص منها، كنا نمشي في جوار الشارع المزدحم بالسيارات، كالعادة وكما يحدث بين فترة وأخرى، كان هناك عمال أجانب يقتلعون الحجارة من الرصيف ويستبدلونها بالورد، منذ أن أتيت عمان ولا عمل لهؤلاء العمال إلا اقتلاع الحجارة واستبدالها بالحشائش والورد أو العكس، توقف عبدالله عن السير فجأة، تسمّر في مكانه ما جعل يدي تنفلت من يده وأنا أحث سيري ماضيًا ما اضطرني للتوقف والالتفات إليه، أنفاسه متسارعة وعيناه جامدتان في محجريهما، شفتاه ترتجفان، تبعتهما يداه بالارتجاف ثم أعقبهما جسمه كله، لأول مرة أرى عبدالله بهذه الحال، كان دائمًا هادئًا وكأن شيئًا لم يحدث معه، كأنه

PDF Eraser Free

توًا فتح صفحات حياته وبدأ بتدوين سطورها، وكأنه ليس هو، جرى باتجاه الورد المزروع حديثًا، وبدأ باقتلاعه وسط ربكة العمال وصراخه:

- أنتم حمقى؛ تزرعون الورد في الشوارع وعلى الأرصفة، ازرعوا القنابل بدلًا منها فهكذا تموتون سريعًا، لن تشعروا بالألم، سيكون مفاجئًا بالقدر الذي لا يمنحكم فرصة للإحساس به أو الخوف منه، هذا الموت سيترك خلفكم خيطًا من الدخان يصل إلى السماء، سيراه الجميع كما سيراه الله، على كلٍّ؛ فإن الله يرى ما يحدث بكل الأحوال. هذا الدخان سيزرعكم هناك، في غيمة ربما، هذه الغيمة قد تُمطر وتنبتكم في أرض لا تزرع الورد في الشوارع، ولكنها ربما، أقول ربما تزرع القنابل بدلًا من الورود.

بكثيرٍ من الجهد نجحت في سحب عبدالله بعيدًا عن الدوار، خشية أن يباغتنا أفراد الشرطة ونكون بأمرٍ فنصبح في أمرٍ آخرَ أشد وطأةً على قلوبنا التي تقارب التوقف، آآه يا صديقي، ما الفرق بين أن نموت بقنبلةٍ رحيمة أو بخنجر مسمومٍ من كفِّ حبيبة جائرة؟ أنفض الأمر من رأسي وأعود إلى القنابل المتفتحة على الأرصفة، أشاهد الكثير من الأجساد العابرة بهدوء إلى السماء، اللحم المتطاير، كاميرات الهواتف والصحفيين المشهورة بأعينهم المفتوحة على مصراعيها، صراخ بعض الخائفين من مصيرٍ مُشابه أو حزنًا على حبيبٍ تمزّقت

PDF Eraser Free

شفتاه قبل أن تتما الكلمة التي بدأتا نطقها قبل أن تصطدما بقنبلة موقوتة، الصدمة البادية على الوجوه، الكثير من الملامح الجامدة، الأيدي المنسدلة بجوار أجسادها، وتلك المرميّة بعيدًا عنها. ترى هل سيعرف الموتى أنهم رحلوا ضحايا تفجير كان يقصدهم دون ملايين آخرين في أرجاء مختلفة من هذه الأرض؟ بعضهم يموت، وبعضهم يفقدُ جُزءًا منه، بعضهم يحزن وبعضهم يبكي وبعضهم تتبلد مشاعره والكثير منهم لا يشعر ولا يبالي بشيء، هؤلاء بالذات لا يستحقون أن نزرع لهم القنابل ليموتوا كالأبطال، وتتصاعد أرواحهم كدُخانٍ يملأ السماء والصدور بالغصة والاختناق، بل يجب أن يتركوا ليموتوا ميتة الجبناء تحت أغطيتهم الوثيرة.

أخجل من نفسي كثيرًا حين أطلب من عبدالله نسيان ما حدث وفتح صفحة جديدة يتصالح بها مع العمر، متجاهلًا أن النسيان ليس إلا كذبة كبيرة نكذبها ونصدقها طواعية، لا أحد يجبرنا على التصديق، نُصدِّق ببراءة الحب الأول وبالبلاهة نفسها، نؤمن بجماله كالقُبلة الأولى وتلويحة العائدين من سفرٍ بعيد، أطلب منه النسيان وأنا غارقٌ في الذكرى، المرارة نفسها تسكن كلماته كلما اختنق بها:

- النسيان لا يشتهي رجلًا مثلي يا صديقي، يورِقُ الدمع كلما رأيتها تجري وشعرها المسدل خلف ظهرها كنهرٍ جارٍ يثور فجأة لمشاكسة الريح، أصابعها الصغيرة وهي تحاول التقاط النجوم المتساقطة، ضحكاتها وصرخاتها، وجهها الغائب الحاضر.

PDF Eraser Free

النسيان لا يعرف الأوفياء، كيف يكون القَدَرُ وديعًا وهو يربت كتفي وهي تعتلي الأكتاف تتسابق الملائكة لتطييرها في الجنة عصفورة لها جناحان من نور وقدٌّ بطعم الفراولة.

أخبري أشجار الجنة عني يا صغيرتي، أخبريها أنني أحتاج إلى الظل، واطلبي منها أن تنمو كثيرًا بانتظاري، هناك؛ أعدكِ أنني سأخبئ الحلوى في يدي وأطلب منكِ اختيار الكف الملأى دون أن أخبركِ أن كلتا يديّ ملأى بها.

خائفٌ أنا، لم أرتدِ الخوف يوم فقدكِ يا طفلتي، مُنذُ علمتُ أنني عربي وأنا خائف، خائف من شيء ما يشبه الغول في حكايات أمي، شيء لا يشبه النهايات السعيدة التي تنهي بها حكاياتها كل ليلة، إنه كالظل الطويل الذي لا تعرف له نهاية، يُدخلك في دوامة من القلق والتوتر والانقباض من شيء لا تعلمه، خائفٌ منذ أن أعلمتني أمي أن هناك ثأرًا بيني وبين جميع من أحبهم، وأنني قد أقع في أية لحظة ضحية رصاصة طائشة لا أعلم من أية جهة قد تأتيني، أدمنتُ تفاصيل الجهات التي لم أنجح في الاعتياد على عدم الالتفات إليها كلما باغتني صوت هسهسةٍ قريبة، خائفٌ منذ أن حذرتني من قتل صاحبي لأسرق رزقه أو حبيبته، خائفٌ منذ أن أدركت أن كلمة عربي التي نعتتني بها أمي ذنبٌ سيظلُّ مُلازمًا لي ما حييت، كعلامة بارزةٍ في جبيني، أو كإصبعٍ زائدٍ ولدتُ به في يدي اليسرى.

هكذا وبدون فاصلٍ تمهيدي ينتقل عبدالله من الحديث معي إلى الحديث إلى طفلته تارة وأبيه تارة أخرى، حتى زوجته أراه يحدثها ويسألها عن بكر الذي لم يره، هل تراه كبر في الجنة؟ أم أنها لم تلد بعد؟ هل ستنتظره ليأخذها إلى المستشفى

PDF Eraser Free

أم أنها ستلد مبكرًا كما فعلت مع يارا ما سيضطرها للاستعانة بالقابلة أم إسماعيل، تلك التي وُلد على يديها، ولكنه ليس واثقًا بأن القابلة أم إسماعيل رحلت معهم، أم أنها لا تزال تُولِّدُ النساء بالحي كلما فاجأهن الطلق وأزواجهن لاهون بلقمة العيش.

أشعر بالغثيان بعد كل حديث مع عبدالله، لا أُضرب عن الطعام كما يعتقدون، أنا فعلًا لا أعود أشتهي شيئًا، أو بالأحرى أشعر بالقرف من كل شيء، يحدث أحيانًا أن يتشكل الكون على شكل وجهٍ غائبٍ فتغيب معه الحياة، ويحدث أن تبحث عن ابتسامتك فتجدها معلقة في نافذة علوية لا تصل إليها يدك.

أخبره عن أختي التي رحلت حين كنتُ في السادسة، لم أكن أدرك معنى الموت، والحزن كان أكبر من أن ينتبه أحدهم لابن السادسة وهو يبتسم بسذاجة للمعزين، خجلي عندما يمسح أحدهم على رأسي، ابتسامتي البلهاء كلما أبصرت أوجه النساء الباكيات، استغرابي الصراخ والتجمع حول أختي الصغيرة، ما زلت أذكر النساء الحائمات حولها بلا حولٍ ولا قوة، النواح والتعديد والكثير من الأصوات التي كانت تُضحكني حينئذ، الاستسلام أخيرًا، التغسيل، التكفين، كل هذا لا شيء، وحدها السكاكر الشهية التي أحضرتُها لها من المدرسة ـ وحدها ـ بقيت عالقة بيدي، ماذا لو ناديتها بأعلى صوتي:

ـ تعالي يا صغيرتي، أحضرت لك السكاكر التي تُحبين.

ما زلتُ إلى الآن في السادسة من عمري، لم أتعلم

PDF Eraser Free

إخفاء ضحكتي عن وجه الحزن أو مسح دمعتي قبل أن تسقط، ما زالت براءتي بيضاء كما عهدتها، مازالت كف أبي الدافئة تزهر ياسمينًا في روحي، ولكني لم أعد ألعب الكرة مع أبناء الجيران، ولم أعد ألاحق أبي أينما مضى، ولم يعد إخوتي يختبئون مني كلما أرادوا الخروج من المنزل. كبرتُ كثيرًا؛ لم أعد أنام في جوار المسجد بانتظار أبي أن يُنهي صلاته ويحملني معه إلى المنزل، لم أعد ألاحق السيارة التي تحمله بعيدًا دون أن يُلوِّح لي، وبالتالي لا صعوبة يجدها الجيران في إرجاعي إلى المنزل كلما جريت خلفه وأنا أبكي، لم أعد أشاكس أبناء الجيران كلما رفضوا انضمامي إلى اللعب معهم لأن بُنيتي الضعيفة لم تكن تتحمل عنفهم المتعمد معي، وما عادت الدماء تسيل من أنفي كلما أخطأ أحدهم ـ أو تعمّد ـ وأصابتني لكمة عابرة على أنفي الصغير، حتى أنفي الصغير كبر معي؛ أتصدقين؟ كبُرت كثيرًا يا صغيرتي، وبقي قلبي معلقًا في السادسة من الوجع.

حتى أنا صرت أذهب بعيدًا عن عبدالله حين أُحدثه، فكلانا يحمل همه على ظهره، يبدأ أحدنا الحديث لصاحبه وينهيه وحده وهو يخاطب الراحلين طوعًا أو أولئك الراحلين رغمًا عنهم.

- لماذا يرحل الصغار وتبقى الحلوى عالقة في أيدينا وشفاهنا مدى العمر؟ لو أنها الحلوى رحلت وأبقت لنا أحبتنا، لبكت يارا قليلًا كلما عجزنا عن منحها قطع الحلوى التي تحب، ثم استسلمت لطفولتها الباسمة المتفتحة.

PDF Eraser Free

يضحك عبدالله ضحكة خفيفة وهو يتحدث عن يارا المشاغبة وهي تتسلق الأشجار في المنزل، وكيف أنها تقف على أحد الأغصان وتنادي أمها:

- متى سوف ينبت لي جناحان وأطير كالعصافير؟
- حين تطيعين ماما وتأكلين طعامك ستكبرين وينبت لكِ جناحان، هيا انزلي يا عصفورتي الحلوة.

وتنزل يارا بعد أن تقطف ثمرتين في كل مرة، واحدة لها وواحدة لأخيها بكر، ولا تأكل ثمرتها إلا بعد أن تنهي أمها أكل الثمرة الأولى موقنة أن بكر يتلذذ مع أمه بهدية أخته الكبيرة.

- حين يأتي سينام معي في سريري وأطعمه حلوى الفراولة.
- الصغار لا يأكلون الحلوى، يشربون الحليب فقط.
- لماذا؟
- لأن أفواههم صغيرة ولم تنبت بها حبات اللؤلؤ بعد.
- سوف أتقاسم لآلئي مع أخي بكر، انظري يا ماما أنا أملك الكثير من اللآلئ بفمي.

وعند هذه الكلمة يقف عبدالله دائمًا وينشج بصوتٍ عالٍ:

- ولكنها تقاسمت الموت معه، قاسمته النيران والرماد والركام والغياب، لا أستطيع إغماض عينيّ عن جسدها المتفحّم، أو رجليها اللتين انفصلتا تمامًا عنه، ووَلَّتا هاربتين كل واحدةٍ منهما في اتجاه، شعرها النحاسي

PDF Eraser Free

جراء وهج الشمس، يشبه شعري تمامًا، هل تُصدق أن شعري كان نحاسيًا متمردًا على السواد حتى كبرت؟ حينئذ رضخ لواقعه وقبل اسوداد جذوره، لست وحدي ويارا من لهما شعر نحاسي ببلدتي، أغلب الأطفال كانوا كذلك، ربما كانت حرارة الشمس الطاغية سببًا رئيسًا لذلك.

يهدأ قليلًا ثم يُكمل حديثه وهو يقف لنُكمل عودتنا إلى الغرفة التي نتشاطرها وأربعة غرباء آخرين، لكنها ليست كالغرفة الخشبية التي سكنتها في عملي الأول، إنها غرفة إسمنتية بدورة مياة مستقلة وأسرّة حديدية سوداء:

- حين ضربت أمريكا العراق بعد حرب الكويت المشؤومة، ظللتُ أدعو الله ليلَ نهار أن يتحرر العراق، في تلك الفترة مرض أبي الغالي مرضًا شديدًا حتى يئسنا من شفائه، وأعترف الآن أني ظننتُ أنه مرض الموت، فبدأت بالتسليم لرحيله عنا، في البدء انشطر دعائي إلى اثنين: أبي والعراق، يومًا ما أحسست أن عليّ أن أختار دعاءً واحدًا أمنحه روحي وإيماني وثقتي ويقيني وكل ما أملكه من صدق فاخترت العراق، يئست من روح الله أن تعود إلى أبي الممدد، تعلو أصوات الأجهزة على دقات قلبه، ووثقت بالعرب، دعوت للعراق كي يعود حرًا. شُفي أبي وعاد كأن شيئًا لم يُصبه، وكان فضل الله علينا عظيمًا بشفائه، وما عاد العراق، ضاع العراق كما ضاعت فلسطين، وها هي سوريا تضيع وليبيا ومصر واليمن تضيع، اليمن أيضًا يا صديقي ضاعت، ضيعها

PDF Eraser Free

أبناؤها وأشقاؤها، وماذا بعد؟ الخليج؟ هو أيضًا في طريقه للذبول، وما انخفاض أسعار النفط إلا بداية السقوط. وماذا بعد؟ النصر لأمريكا، النصر لإسرائيل، ونحن؟ لنا الهزيمة والانكسار والموت، لنا ما لا نشاء ولهم ما يشاءون.

اغفر لي يا الله لأني كلما رأيت مسلمًا يبكي لا أصرخ بأعلى صوتي وألعن الظالمين في وجوههم، وإن كانت الخاتمة رصاصة طائشة تُريح صدري من كل هذا الوجع المتشعب في العروق.

إنني أبرأ إليك يا الله مما يفعل الطغاة، لم أحمل سلاحًا وأوجهه إلى رجلٍ أعزل، ولم أطلق صاروخًا نحو بيتٍ تقطنه أسرة كانت سعيدة وأمحوها من على وجه الأرض وكأنها لم تكن، ولم أكتب يا ربُّ قصيدة أو بيتًا أو حتى حرفًا أمجد به ما يفعله الظالمون من قتلٍ للأبرياء، وإني لآسف على من كنا نقتدي بهم ونعدهم مثلنا الأعلى، ومرجعنا الديني، فأناخوا عنق الدين لشهوة الحكام وسطوة المال.

يقولون بأن الغرب أكثر إنسانية، والكنائس فتحت أبوابها للاجئين، وكثير من المسلمين اعتنقوا المسيحية بعدما يئسوا من رَوح الإسلام التي طالما كانوا يحيونها، قتلناهم باسم الدين فقتلنا الدين معهم، وظللنا نتلو قصائدنا ونفخر بأفعالنا التي لا تزيدنا إلا صَغارًا، وما الغرب إلا كمن يغرس في صدرك سكينًا مُغطاةً بالورد، تآمروا علينا ونحن أعزة ثم استقبلونا ونحن أذلة، بعد أن ظللنا كالكرة تتقاذفنا أقدام دولهم، ولكنهم

PDF Eraser Free

على الأقل يقتلون بيدٍ ويفرشون الطريق بالشوكِ المُغطى بالورد بيد، أما العرب فما زالوا يطعموننا للموت بلدًا تلو الآخر. حتى نظرية المؤامرة أجدها مُضحكة، لا أحد يمكنه إجبارك على فعل شيء لا ترغب فيه، لذلك من السخف أن نرمي باللوم على غيرنا ونقول إنهم تآمروا علينا، هم وجدونا لقمة سائغة فقرروا ابتلاعنا بالهناء والعافية.

ما عدنا مسلمين، أصبحنا إباضية وسنة وشيعة وغيرها من المذاهب والطوائف، تقسم الدين إلى ديانات، وتقسمنا نحن إلى دويلات، قتلنا بعضنا بعضًا، وظلمنا بعضنا بعضًا، ولسان حال كل واحد منا يقول: «قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». عن أي جنة وعن أي نار نتحدث؟! يالنا من حمقى كبيري رؤوس! نحن أمة نتنة نبكي على الحسين الذي قتل قبل ألف عام وأكثر، ولا نبكي على الذين يُقتلون كل يوم، نبكي عليه ونحتفل بذكرى وفاته حتى ما عدنا نفرق بين مآتمنا وأفراحنا. ينطبق علينا المثل القائل: (يقتل القتيل ويمشي في جنازته). تختلط دموعنا بموائدنا العامرة ويشتبه اللطم بهديل الأناشيد. نعود ألف عام وأكثر إلى الوراء لنعاقب أنفسنا على جريمةٍ اقترفها آخرون سبقونا على طريق الموت، نُكفِّرُ عن سيئاتهم ولا نفكر في التكفير عن سيئاتنا وقد تعدت الحد المسموح به من الصفح، نتمادى في تغييب حاضرنا ولا نعود نأبه له، يموت من يموت ويُقتل من يُقتل ويُعذب من يُعذب ويُشرّد من يُشرّد ونحن لا ننفكُّ نبكي خسائرنا قبل ألف عام. أي أمة غبية نحن ومن أي طين أبله خُلقنا. لم يُعلّمنا الحزن أن

PDF Eraser Free

نقف أمام الظلم وأن نكون أسياد مواقفنا، لم نتعلم من ماضينا صناعة حاضرنا قبل مستقبلنا، ما زلنا نبكي كالنساء مجدًا ضائعًا لم يكن لنا يد لا بزواله ولا بصنعه.

علّمتنا فلسطين البلادة، قتلت فينا النخوة والشهامة، تُقتلُ الحرائر على مرأى العالم، نشاهد فيديو قتلها ولا يرمش لنا جفن، وإن رمش قليلًا نعيد مشاهدة الفيديو مراتٍ أخرى خشية أن نكون قد فوّتنا لقطة مهمة، مشاهدتنا له بدافع الفضول لا أكثر، قد نبتلع ريقنا بشيء من اللامبالاة أو المبالاة التي لا تصل إلى شيء، ربما نبكي قليلًا ونسب ونلعن ثم نقرأ نكتة سمجة فنضحك وكأن شيئًا لم يكن. يقتلون طفلًا ونراه يُحتضر ويموت وبعدها بقليل نبحث عن وجبة طعام أَجّلَ الفيديو تناولها في وقتها، تبًّا له، هل كان وقته؟ لماذا لم يؤجل موته لما بعد تناولنا وجبتنا غير الشهية؟ يحدث أن نرى الموت في كل مكان، في التلفزيون والجرائد، في الانترنت وعلى الطرقات أيضًا. كل يوم أدرك بأننا جبناء خوَنة لا نرتقي لأن نحيا على هذه الأرض، وأن الذي خلقنا حليمٌ فعلًا لم يخسف بنا الأرض أو يرسل السماء علينا كِسفًا أو يجعل صاعقةً تحل علينا ونحن نشاهد هذه الفيديوهات ولا نحزم أرواحنا ونمضي صوب فلسطين وكأننا رجل واحد بقلب واحد. هل كان ليتجرأ حفدة القردة والخنازير على ما يفعلون لو أنهم علموا أننا لن ندع فعلتهم تمر دون عقاب؟ بالطبع لا؛ ولكنهم اتكأوا على دمنا البارد وأحقادنا الأخوية ومطامعنا الدنيوية فعاثوا في فلسطين فسادًا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(8)

يخلقنا اللهُ بمرتبةٍ واحدة، ينفخُ فينا جميعًا من روحه، ولكننا نأبى إلا الاصطفاف في المراتب التي يضعنا بها البشر.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

صباح اليوم التالي بدا وكأن شيئًا لم يحدث بالأمس، حتى سانجاي مراقب العمال الذي اعتاد أن يُحاسبنا على ذرة الرمل إن نقصت لم يُعرْ أسلاك الكهرباء وأكياس الإسمنت الناقصة أدنى اهتمام، الأمرُ الذي أثار استغرابي، ولكن من أنا حتى أُرهق نفسي بالتفكير في أمرٍ إن رفعت صوتي به سينالني من الجهد أكثر مما قد ينالني من الثناء، يالسخفي! هل قلتُ ثناء؟ عن أي ثناءٍ أتحدث، يبدو أن تأثير السهر بدأ توًا، فأنا مُذ قدمتُ إلى هذا البلد لم أسمع كلمةً طيبة، ربما لأنني حصرتُ نفسي بين هذه الجدران التي تضيق يومًا بعد يوم وصمتًا بعد آخر، أُسلمُ نفسي إلى مراقب العمال الذي بدا صوته مألوفًا لدي أكثر من أي يومٍ سابق، لم يسبق لي أن اهتممت بالتفاصيل الصغيرة لهذا الرجل الذي يرى نفسه من عِلية القوم، فينظر إلينا دائمًا من طرفٍ عليّ، حتى أجاي المسكين الذي ينتمي معه إلى البلد نفسه لم يسبق له أن مد يده وصافحه، وحين علم أجاي أنني أستنكر الأمر، أجابني باسمًا:

- إنه أعلى مكانةً مني، هذا الأمر طبيعيٌ جدًا؛ فأنا داليتي وهو من الشودرا، المجتمع الفيدي الهندي لا يعترف بنا رغم أننا نحن السكان الأصليون للهند، لا أعلم كيف

PDF Eraser Free

تمكن ك.ر.نارايانان من حكم الهند من 97 ـ 2002م رغم أنه داليتي.

يقول جملته الأخيرة بابتسامة، تبدو أقرب للاستغراب منها للفخر، يتحدث عن الطَبَقية كأمرٍ مفروغٍ منه، لا يُمكن تغييره، يلازمه كاسم عائلته، أينما ذهب يحمله معه.

- هل تعلم أن الشودري إذا اعتدى على عفاف زوجة برهمي يعاقب عقابًا يُفقده ذكورته وتُصادر كل ممتلكاته. والد سانجاي تعرض لذلك العقاب بعد أن تطاول على زوجة سيده، فكان أن انقطع نسله بعد سانجاي، وهجرته زوجته، وأخيرًا أغرق نفسه في النهر ليتطهر من إثمه الذي ظل يلاحق ذريّته بعد موته.
- ولكن ماذا لو تجرأ برهمي على غيره؟
- البراهمة يا صديقي يحق لهم فعل ما يشاءون، خلقهم برهما من وجهه، وأوصاهم بقراءة أسفار الويدا، لا يحق لأحد محاسبتهم؛ فهم يتصرفون في أملاكهم.

الآن علمت صاحب الصوت الذي سمعته بالأمس، ندت عن شفتي ابتسامة ساخرة، من الذي لا يسرق في هذا البلد؟ الصغير والكبير؛ كلٌّ يسرق بحجم ما يستوعب جيبه، وكل جيبٍ يكبُر ويتّسعُ بحجم مكانة صاحبهِ، ومهما ادّعى هؤلاء الأمانة والولاء فإن هذا الذي يدّعونه لا يتعدى حدود الشفاه، فمن الذي قد يُصدّق أن مُراقب العمال قد يتجرأ على سرقة السيد كابور؛ وهو الذي يتبعه كظله ويردد كلماته كالببغاء

PDF Eraser Free

المحترف. تنكمش ابتسامتي حين تصطدم برائحة فم مراقب العمال النتنة، يبدو أنه احتفل البارحة بجريمته لدرجة أن الوقت لم يُسعفه ليُطهِّر فمه من عفونته، أجري لأحمل أكياس الإسمنت وفكري خالٍ من كل شيء أو لربما تزاحمت به الأشياء حتى لم يجد أحدها مُتسعًا ليبرز دون سواه، فتساوى وجود الأشياءِ وعدمها.

مضت تلك الليلة كغيرها، بلا ذكر ولا محاسبة لأبطالها أو تتويج لهم، مضت وكأن شيئًا لم يكن، حتى أنني كدتُ أنسى، وأنا أنغمس كل ليلةٍ في النوم قبل الجميع كي لا أورّط نفسي في ما لا أحب، ولم يكن يمر ببالي أن هؤلاء المحرومين من ممارسة أبسط أدوارهم الرجولية أو الذكورية بالمعنى الأدق، قد يفعلون أي شيء للتخفيف من وطء احتياجاتهم، كنت ألتمس العذر لأولئك الذي يُفرِغون شهواتهم بأيديهم، ولكني أبدًا لم أعذر بابو الذي كان يتطاول بنظراته على النساء اللواتي يأتين لمشاهدة ما وصل إليه جهدنا وما أنجزناه بمهاراتنا، مُدعيًا أن بعضهن يأتي لاصطياد رائحة رجل، وما أكثر الروائح التي قد يجدنها في مبنى امتلأ بالعرق الذي تمازجت فيه الرغبة بالتعب والوحدة، كدت أُلقي بكفي على وجه بابو حين همس لي:

- أترى تلك الفتاة التي تتصرف بغَنجٍ زائد؟ إنها سهلة الاصطياد، كلمة واحدة كفيلة بجعلها تُسلم أحدنا مفاتيح قلبها وجسدها.

أومأ إلى تقدمها في السن الواضح على تفاصيل جسدها،

PDF Eraser Free

ورغم ذلك فهي تبدو جميلة بشكلٍ لافت، وكل هذا الغنج ـ كما يقول بابو الخبير النسائي حسب ادعائه ـ ليس إلا بابًا مفتوحًا للولوج إليها، أخبرني أيضًا أنها لم تتزوج بعد رغم تقدمها في السن لأن والدها رفض تزويجها لأنه لم يجد من يدفع له ما يُرضيه من المال ثمنًا لجمالها الطاغي قبل زمنٍ ليس بالقصير، والذي لا يزال وكأنه حديث عهدٍ بالصبا، وحين استغربت معرفته بالأمر أجاب بأن الوافدين هنا لا حديث لهم إلا أخبار أهل القرى التي يعملون فيها، ولك أن تتخيل ما يعرفونه من معلومات، لربما أخبرك أحدهم عن نوعية الطعام الذي يأكلونه، وذاك الذي يدخرونه في منازلهم، عدد الغرف في كل منزل، وعدد الأفراد في كل غرفة، أولئك الذين يتشاطرون الأسرة المزدوجة أو ينامون منفردين كالغرباء، أشحتُ بوجهي عنه ومضيتُ وأنا لا أكاد أجد كلمة تليق بوصف نذالة هذا الرجل، أيعقل أن يكون كلامه صحيحًا؟ أيصلُ الأمر بهم أن يتبادلوا الأحاديث مع الخادمات حول أسرار المنازل التي يعملن فيها، فيعلمون حتى الزوجات المحرومات من الحب ـ كما يقول ـ، مَنْ مِنَ الأبناء صالح ومن يُتعب أهله معه، أيّ الفتيات تستحق الاحترام وتلك التي تتبع رغباتها، حتى أولئك العُمّال الذين يستأجرهم أرباب البيوت لأي عمل يحاولون معرفة كل ما تقع أعينهم عليه، يستقرئون العلاقات ويُقيّمون الأرواح قبل المباني، ولربما تطاول أحدهم فأرسل عينيه إلى ربات البيوت لتستقر على أجسادهن حتى بعد خروجه من المنزل.

PDF Eraser Free

قلقي الدائم ونومي المرتبك والمتقطّع يجعلني ـ رغم التعب ـ أصحو على أية حركة قد تبدر من أحد الرفاق، ولو كان يتقلّب في نومه، أو يُعدِّل من هيئته ليجعله أكثر راحة، وإن كنت أشك في أي إحساس بالراحة قد يحصل عليه غريب قضى يومه بين الرمل والإسمنت وصوت مراقب العمال البذيء ورائحة فمه الكريهة، صحوتُ هذه الليلة على أقدامٍ تتخطاني، لم يبدُ الأمر كمن يود الذهاب إلى دورة المياه؛ فذاك لن يتسحّب بهذا الحذر، وبابو ليس من النوع الذي يُولي راحة الآخرين أدنى اهتمام، مُنذ عرفته وهو لا ينفك يُثير الضيق لكل الموجودين، حتى لم يُبقِ له رفيقًا، سمحتُ له بالخروج بهدوء دون أن ينتبه أنه أيقظني من شيءٍ أقرب للصحو منه للنوم، ثم تبعته، فلربما كان له دور بما حدث تلك الليلة، أو كان شريكًا فيه، خصوصًا أنه دخل المبنى الذي أوشكنا على الانتهاء منه ولا ينقصه سوى تركيب الأجهزة الكهربائية ومن ثم إمداده بالكهرباء، ولكن الهدوء والعتمة لا يُنبئان بأن بابو على وشك تكرار أحداث تلك الليلة، تريّثتُ قليلًا ثم لحقتُ به لأفاجأ بتلك الفتاة التي أخبرني يومًا أنها تبحث عن رائحة رجل أيًا كان ذلك الرجل، شعرت بالدوار، دمائي توشك أن تنفر من أنفي بعد أن رفضها دماغي، الأرض ترتجُّ تحتي وكأني أعتلي سفينةً تتلاطمها أمواجُ بحرٍ غاضب خطواتي ثقُلَتْ فرحت أجرها مُحدِثًا بعض الصوت بحذائي المسحوب مع قدمي على الأرض، ورغم الفوضى التي أثارتها خطواتي إلا أن بابو لم يُعرِها أي اهتمام، وكأنني لست إلا خيال غيمةٍ مارقة في عتمة

PDF Eraser Free

ليلة غير قمرية، لكن الارتباك بدا واضحًا على الفتاة وكأنها تجربتها الأولى في التواطؤ مع رجل لانتهاك عالمها البريء، استسلم بابو للضحك بشكلٍ مُقزز قائلًا: لا بأس إن كنت تريدها؛ يمكنك الاستمتاع بها بعدي، بصقتُ بوجهه، وددتُ لو أقول له: أنا لم آكل يومًا فَضلة أحد، ولكن خوفي من خدش مشاعر الفتاة أوقفت لساني فاكتفى بالارتجاف داخل فمي دون أن يُصدر ضجيجًا يزعجُ أحدًا، أمسكتُ بيد الفتاة وسحبتها إلى الخارج، ودون أن أتجرأ على النظر إلى عينيها طلبتُ منها أن تدلني على منزلها لأطمئن لوصولها إليه قبل أن ينتبه أحد لغيابها، فندفن هذه الليلة مع جملة العمر الذي دُفن.

رافقتها وبقي بابو بالمبنى الخالي، ولكني لم أتوقع قط الضربة التي سيردها إلي أضعافًا مُضاعفة. الطريق الطويل إلى منزلها استسلم لهدوءٍ لا يقطعه سوى أنفاسها المتحشرجة بدمعها العالق بطرف حنجرتها، من جانبي لم أكن قادرًا على اجترار صوتي واللوذ بكلمة قد تُسرّبُ الوجع إلى خارج صدري، أشعر بأن قلبي كبالون يوشك أن ينفجر من فرط ما امتلأ ضيمًا وقهرًا.

- وعدني بأن يأخذني إلى بلده، قال بأنه سيتزوجني هناك، أَقسمَ أنه ادّخر من المال ما يكفي لحياة كريمة في بلده، هناك لا يهتمون بكل هذه العادات البالية التي حرمتني من أبسط حقوقي في الحياة، أسرة صغيرة، زوج محب، وأطفال أدّخرهم لشيبي، لم أفكر في ما ستؤول إليه الأمور، فكما أنه لا أحد يهتم بي لا أريد الاهتمام

PDF Eraser Free

بأحد، ما الذي سأخسره؟ لا شيء، بل على العكس، سأكسب زوجًا يمنحني الحياة التي أرجوها، لا أتخيل حياة مثالية، ولا أحلم بحياةٍ ملؤها الرفاهية، أعلم أنني سأعاني كثيرًا نظرًا إلى فرق المستوى المعيشي، واختلاف العادات والتقاليد، وأعلم أنني لن أتمكن من التواصل مع أسرته بسهولة نظرًا إلى اختلاف اللغة، كما أنني سأخسر أسرتي ولن يعود بإمكاني العودة إلى هنا مرة أخرى، بكل الأحوال أنا لا أشعر بانتمائي إلى هذه الأسرة التي لا تنظر إليّ ولا تهتم إلا بمصلحتها وما قد تجنيه من ورائي، أتقبّل كل ما قد يحدث معي بكثيرٍ من الحب، هكذا الزوجات الصالحات. تعبتُ من كوني وَقْفًا لأسرتي، أبي يريد ثمن تربيته، إخوتي يريدون خدمة لزوجاتهم، أمي عاجزة عن بسط نفوذها في البيت فتمارس سطوتها عليّ، لا تخرجي، لا تلبسي، لا تتحدثي، لا تقابلي الناس، كل شيء ممنوع، وكل شيء مُحرّم، وكل الأوامر واجبة التنفيذ وغير قابلة للنقاش أو الاعتراض. حتى جارتي هبة تزوجت، رغم الفضيحة التي لحقتها وهي في السابعة والعشرين من عمرها، بعد أن حبلت بطفلٍ غير شرعي، ما زلت أذكر المعاناة التي عاشتها، هي الكريمة ربة الشرف والعفاف والبيوت المستورة التي لا يطالها أحد، لم يتوقع أهلها الذين رفضوا تزويجها بحجة أن لا أحد يليق بمستواهم الأسري أن الضربة ستأتيهم من قعر دارهم، ومن ذاك

PDF Eraser Free

الذي وثقوا به وكأنه ليس رجلًا، عاملوه معاملة العبد الذي لا يتجرأ على رفع بصره إلى سيدته، فكان أن امتلك قلبها فسلمته جسدها، لم ينتبه أهلها لتلك المشاعر التي أضفت لمعةً لعينيها كلما نادوه لجلب القهوة أو خدمة ضيفٍ قادم، حتى والدتها لم تنتبه لليالي التي كانت تتسحّبُ فيها من فراشها لتقضيها معه، ولم تنتبه لبطنها الذي بدأ يتكوّر ولم تهتم بمداراته لأنها لم تفكر قط أن شيئًا كهذا قد يحدث، فرغم حبها له كانت كأهلها لا تثق بأن عبدًا يمكن أن يغرس طفلًا بأحشاء سيدته، حتى انتبهت على سؤال الطبيبة:

- هل أنتِ متزوجة؟

فأجابت الأم بالنيابة عنها: لا، لم نجد بعد من يليق بها، ابنة الأصول لا تتزوج أيًا كان.

صمتت الطبيبة، أجرت لها بعض الفحوصات، واتصالًا هاتفيًا، وبينما هبة وأمها بانتظار النتائج كانت الشرطة تطلب منهما اصطحابهما إلى مركز الشرطة، وهناك كانت الصدمة، إما أن تتزوج خادمها وإما تقضي عدة أشهر في السجن، ورغم الحب، والطفل، اختارت السجن، ربما كان اختيار أهلها ولم يكن خيارها، ولكني لست واثقة بذلك، خرجت بعدها وكانت في أشهرها الأخيرة من الحمل بعد تعهّدٍ بعدم المس بذلك الطفل وإلا تعرضت أسرتها للمساءلة القانونية، احتملوها حتى بدأ الطفل محاولته لرؤية النور، واشتدّت الآلام، ولكنها ما كانت لتذهب إلى المستشفى، كل شيءٍ مُخطط له، أمها

PDF Eraser Free

وخادمتها العجوز ولا ثالث لهما إلا مصباح صغير، لم يكن مسموحًا لها أن تُظهر ألمها، فكلما تألمت كالت لها أمها سيلًا من الشتائم لا يهدأ ولا ينتهي، الآلام تزداد والطفل يصر على القدوم، ابتسمت الخادمة بخبث لا يتناسب وحجم الألم الذي كان يمزق هبة:

- أرى رأسه، إنه قادم، حفيدكم الأول يا (حبّتي)(*).
- اخرسي أيتها الملعونة، إياكِ أن أسمعكِ ترددين هذا الكلام مرة أخرى. نهرتها أم هبة.

أطل رأسه للدنيا، رافقت لعناتُ أمها صرخته الخائفة من الحياة:

- أسود يا بنت الحرام، أسود.

كان الوجع يقتصُّ من هبة ويمزقها، وكان الطفل يقاوم بكل ما أوتي من رغبةٍ في الحياة، ظلت قدماه الصغيرتان تلامسان جسدها وهي ترفس رافضةً الموت، ولكن تلك اليد البيضاء المطبقة على عنقه كانت أقوى من رغبته، هدأت رجلاه أخيرًا، حبله السري لا يزال مخفيًّا في جسدها لم يستنشق الحياة بعد، ضربة من أمها توجّهت إلى بطنها كانت كفيلة بفقدانها وعيها، هل كان حقًا ما سمعته أم أنه مجرد حُلُمٍ راودها:

- مات ابن الحرام، ولد ميتًا، لا حول ولا قوة إلا بالله، ادفنوه تحت النخلة الصغيرة بالمزرعة، إنها تحتاج

(*) حبتي: سيدتي (باللهجة العمانية).

PDF Eraser Free

إلى سماد لتنمو وتكبر، القبور أطهر من احتواء أجساد أبناء الحرام.

ورغم أن قصة هبة انتشرت، وأصبحت فاكهة الأحاديث، إلا أنها تزوجت، لم يكن شيخًا أو سليل شيوخ كما حلم والدها، ولم يكن شابًا كما حلمت هي، كان عجوزًا متصابيًا رأى بها فرصة لا تعوّض لتجديد شبابه، وفرض سطوته عليها، ولكنها تزوجت، أصبحت أمًا، لديها الآن سبعة أطفال، لم تعد تبحث عن ابنها بين النخلات الصغيرة في مزرعتهم الكبيرة، كل النخلات الصغيرة كبرت، تخيل أن هبة لديها سبعة أطفال وأنا لم أحمل بطفلٍ واحد، فرضت سيطرتها على زوجها، وأصبحت الآمرة الناهية، وهو كخاتمٍ في يدها، لم يتمكن من فرض سطوته عليها، ولكنه تمكن من الاستيلاء على جسدها والتمتع به متى شاء، جسدها الآثم كما تسلّى بتسميته أهل الحارة لمسه رجل، وأنا بقيتُ كنخلةٍ شاخت سريعًا، لا الماء رواها، ولا ثمارها تدلّت جنيّة.

أريد الزواج، بلغت الأربعين ويوشك شبابي على الرحيل، يأكلني القلق من أن أكبر وحيدة، أن أحيا خادمةً لأخوتي وزوجاتهم، أرعى أطفالهم، ولا أشم بطفلٍ رائحتي. أتيتُ إليه لأتفق معه على طريقةٍ للهرب، ولكنه طلب أن أمنحه نفسي أولًا، هنا كان الاختلاف، لا أريد أن أكون كهبة، لا أريد عارًا يلحقني ووجهًا أدسّه في التراب، هذا إذا لم يدسَّني أهلي بكليتي في التراب، أريد أسرة أرعاها، وزوجًا أحبه، وأطفالًا أركض خلفهم لأطعمهم، أو أُلبسهم ثيابهم التي

PDF Eraser Free

يعاندون كثيرًا في ارتدائها، لولا هذا الخلاف لما وجدتنا هنا، أظننا كنا الآن في بلده، زوجين نهنأ بما حلمنا به من حياة.

ثرثرت كثيرًا، بعض كلامها استوعبته وبعضه لم أستطع الاقتناع به، ولكني لم أستطع الرد عليها بكلمة، هل حقًا صدّقت أنه كان يرغب في الزواج بها، هذا النتن بابو؛ كيف استطاع الوصول إلى قلبها، أم أن قلبها لم يكن مهمًا أمام تحقيق رغبتها في الزواج؟ كيف تجاهل حديثُها عَرْضَه لي بأن يهبها لي بعد أن يقضي وطره منها؟ لماذا يفعل الآباء ذلك ببناتهم؟ لماذا يسدون بوجوههن كل الأبواب فلا يجدن بابًا يطرقنه سواء الباب الذي يفتحه بابو ومن على شاكلته من الأوغاد.

ـ لقد وصلت، قالتها دون أن ترفع وجهها إلي، كل ما استطعت فعله حينئذ ـ مستجمعًا شجاعتي ـ أنني أمسكت يدها وهمست بصوتٍ أرجو أنها سمعته، رغم أني لستُ متيقنًا بذلك:

لا تعودي، أرجوك. إنه كاذب ومحتال، عديني ألا تعودي.

انسلت يدها من بين أصابعي واندسّت بمنزلها، بقيت مكاني فترة ثم تداركت ضعفي وعدت.

ذهبتْ؛ وبقيت برودة يدها التي فارقتها منذ قليل تسري في أوردتي شيئًا فشيئًا حتى أدركني الارتجاف؛ هذه الليلة كانت أقسى ما مرّ عليّ في هذا البلد حتى هذه اللحظة، فشتّان

PDF Eraser Free

بين سرقة الأموال وسرقة الأجساد، وبين أن تسرق ما لن يكتشفه سوى من يشاركك في جُرمك وبين أن تترك أثرًا في ضحيتك لا تمحوه الأيام وإن لم يلمحه أحد كأن تسرق حياة غيرك وأحلامه في لحظة ضعف تشبه سكرات الموت، دائمًا ما تدفع الفتيات ثمن جشع آبائهن، فتمتد أيديهم لغلق كل الأبواب دون رغبات بناتهم حرصًا على بيعهن بأغلى ثمن، ليقتاتوا من أجسادهن عمرًا يُساوي ما أنفقوه في تربيتهن حتى كبرن، وكلما ازدادت أعوامهن عامًا ارتفع سعرهن، حتى ينتبهن يومًا وأسهمهن تهبط سريعًا ولا يجدن من يفكر في اقتنائهن، وينفضّ عنهن كل من كان يحلم برشف رحيقهن العذب كما ينفضُّ التُّجارُ عن مزادٍ تَلِفت بضاعته قبل أن يشتريها أحد، هذه الفاتنة، فارعة الطول، ببشرتها البيضاء التي تخالطها حمرة خفيفة، حتى يُخيل للناظر إليها أنه يرى الدم يجري تحت جلدها الشفاف كنهرٍ جارٍ مضت بها السنون سريعة خاوية إلا من يديها وهي تُمسِّد جسدها الذي بدأ يذوي دون أن يتذوق طعم رجل. دخلتُ الغرفة التي تجمعني ببقايا الأرواح التي لم تكن متناثرة بعشوائية في أرضيتها كما هي عادتها، كان الجميع مستيقظًا، لم أستطع تفسير نظراتهم التي لم تبارح جسدي للاستدلال على أي أثرٍ قد يثبت أو ينفي ما أخبرهم به بابو؛ سبقني إليهم وادّعى أنه رآني مع فتاة في المبنى، كانت هذه صفعته التي وجهها إليّ انتقامًا من حرمانه من إكمال جريمته، لم يوجه إلي أحدهم كلمة واحدة، لكن ابتسامة بابو المتشفّية كانت كفيلة بشرح كل شيء.

PDF Eraser Free

لم أهمس بكلمة، كان المكان أضيق من احتمالي بكل السخط الجاثم على صدري، جمعت بعض أغراضي التي قد يستدلُّ بها الآخرون عليّ إن لم يجدوا بجسدي ما يُخبرهم عني، كشامةٍ تدّعي أمي أنها تكونت نتيجة توحّمها على حبة رطب في الشتاء، وحين لم يجلب لها أبي ما اشتهت ظهرت بارزة في أسفل كتفي اليمنى، ولكن هذه الشامة الغامقة بدأت بالتلاشي شيئًا فشيئًا، حتى هذه النعمة العظيمة حرمني الله منها، وكأنني لا بد أن أخرج من الدنيا عاريًا من كل شيءٍ؛ حتى وإن كان هذا الشيء مجرد شامةٍ غامقة يستدلون بها على جسدي الخاوي من الحياة.

خرجت دون أن أحدد لي جهة يمكنها أن تقبلني، فأي مكانٍ مهما كان سيئًا سيكون أرحم بكثير من هذا العفن الذي أوشك على خنقي، لم أكتفِ بالمشي، فالغضب في داخلي أكبر من أن أحتمله، أود لو أصرخ، أن أُسلِّم صوتي إلى الهواء ليحمله بعيدًا، ولكن؛ من ذا الذي قد يلتقطُ صوتًا يعبرُ الهواء بالكثير من الدمع، أُطلق ساقيَّ لمبتغاهما؛ وأجري.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(9)

كلُّ شيء له شهادة، حتى الموت،
وحدها الحياة لا تُمنحُ شهادةً تُثبتُ
أنكَ اقترفتها يومًا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

ثلاثة أشهرٍ مرّت عليّ وأنا أعمل مزارعًا، تعلّمت خلالها فنون التحدير والتنبيت والخراف والجداد(*) وكل ما يمت بصلة إلى النخيل بصفة خاصة، ناهيك من ري المزروعات وطبيعة كل نبات وآلية التعامل معه وطرائق تشذيبه، العم سليمان كان كريمًا معنا حدًا يفوق التصور، ففوق الراتب الذي نستحقه كانت زوجته تأتينا بالغداء كل يوم، بعد أن نكون قد شاركناه في إفطاره، الوجبة الوحيدة التي كنا نحمل همها هي وجبة العشاء، حتى أنني بدأت أسترجع بعض الكيلوغرامات التي فقدتها سابقًا رغم العمل الذي يستمر من صلاة الفجر حتى قبيل الغروب بقليل، عدا الأيام التي أصاحب بها العم سليمان في جولاته التفقّدية لأصدقائه، ورغم أنني أنهي المطلوب مني قبل مصاحبة العم سليمان لكي لا أثقل كاهل تاج الإسلام بأي عمل منوط بي، إلا أنه كان يغضبُ دائمًا ويتذمّر من تحمله للعمل وحده.

بدأ العم سليمان يستعذب وجودي، فأمسيت رفيق جولته

(*) التحدير والتنبيت والخراف والجداد: أسماء المهام التي يقوم بها العامل لتهيئة النخلة، وحصد ثمارها.

PDF Eraser Free

شبه اليومية التي تبدأ بعد صلاة العصر إلى قبيل وقت صلاة المغرب بقليل، ككل الرجال بسنّه في هذه الحارة الغافية بين غابات النخيل، يلتقي فيها أصدقاء العمر في جوار منزل أحدهم يراقبون المارة وأطفال الحي وهم يبعثون فيهم الدفء بشقاوتهم اللذيذة حد استطعامها على شفاههم كلما مرت مجموعة أطفال على دراجاتهم الهوائية في سباقٍ عجيب مع الزمن، يتضاحك الشيبة ويصرخ أحدهم:

- لا تستعجلوا العمر، انظروا إلينا، كنا نجري مثلكم ونستعجله المرور فمر دون أن نشعر به، ويكاد ينقلب الحديث أحيانًا من المرح إلى الشجن لولا أن العم خلفان ـ وهو الشخصية الأكثر فُكاهة بين أصحابه ـ يستلم زمام الأمر:

- من الذي كبر يا رجل؟ يا شيخ أنا ما زلت في الثلاثين من عمري، لا تغترّ بالشعيرات البيضاء في رأسي، بعضها صبغه الخوف وبعضها الآخر تكفّلت به الأفكار النيّرة.

يضحك الجميع بكثيرٍ من الرضا رغم السنين الغابرة التي تلوح في الأفق مع كل اجتماع، هذه الاجتماعات شبه اليومية تمنح الحياة لأصحابها، يتبادلون الأحاديث والذكريات والتندر بمغامرات الشباب وعشق الصبايا الذي لم يفوّته أحدهم، كما يلعبون لعبةً بدأت أشاركهم فيها، بل أغلبهم أحيانًا، وكلما فزت أرى الصبي بقلب العم سليمان يتقافز فرحًا في عينيه، امتهنت الفوز لأجل هذه الفرحة الصغيرة التي تعيده عقودًا من الدهر يكتسي فيها شعره الوضّاء بالسواد، ويستقيم اعوجاج

PDF Eraser Free

ظهره، يستمر الأصدقاء وأنا معهم في نقل الحجارة من مربع إلى آخر أو بمعنى أدق من حفرة إلى أخرى، مستمتعين بلعبةً (الحواليس) اللعبة الشعبية الأشهر لدى كبار السن بكل الأحياء الشعبية هنا، الحواليس أشبه بالشطرنج، يلعبها لاعبان اثنان يتحلّق حولهما المتابعون والمشجعون ومنتظرو أدوارهم للعب، ولكنها بلا جنود وملك. جميع الحجارة متساوية والفوز يعتمد على قدرة اللاعب على إخراج جميع حجارة اللاعب الآخر، وكم كنت أُنهي فوزي بجملة (كش ملك) فيلتفت إلي العم سليمان موبخًا:

- لا أحد يكش الملك يا مختار.

لعبة الحواليس أجمل ما تبقّى من حياة هؤلاء الرجال المتفتّحين كأزهار حاربت الذبول طويلًا، فبقي العطر يسكنها رغم السنين والعمر. لعل أجمل ما بجلساتي مع هؤلاء الرجال، هو كَمّ الحياة التي يدفعونها لصدري كلما اجتمعت بهم، الأحاديث والذكريات وآخر الأخبار المتداولة، الخوض بكل شيء حتى السياسة، إلى اللعبة التي لا يخسر بها أحد لأنهم يتنافسون بحب، إلى النكت التي لا يستطيعون الاستغناء عنها، والأحاديث الحصرية بالرفاق فقط، لا تصل إلى أبنائهم ولا أسرهم، ولا غيرهم من الرجال، الكثير من القُرب يجمعهم، ولأنهم لم يرتدوا يومًا إلا الحياة والرضا، كان آخر ما توقعته أن يكون الموت حاضرًا بينهم، كانت المرة الأولى التي أراه بها، تغامز الرفاق - وسط دهشتي - عندما لاح طيفه من بعيد:

PDF Eraser Free

- أتى الميّت!

في البداية ظننت أنه اسمه، ولكني طويت هذا التوقع، فلا يمكن لأب أن يُسمّي ابنه الميّت، كمن يتطيّر بموته أو يرجوه له، وهو الذي كان يحلم به، لربما شبّهوهُ بالموتى نظرًا إلى صفرته الشديدة، لا بد أن له وجهًا شاحبًا كالأموات، ولكنه حين اقترب كان الأكثر شبابًا وحيويةً بينهم، طرق الفضول رأسي، رأيته يطلُّ من عيني، ويلوِّحُ لي لأُعيره انتباهي، همس في أذني: اسألهم لماذا قالوا عنه ميت؟ إن لم تسألهم سأظل واقفًا بين عينيك حتى يروني.

يالهذا الفضول الذي بدأ يُصاحبني منذ اعتدت التسامر مع العم سليمان ورفاقه!

- حسنًا؛ سأسألهم، ولكن ادخل قبل أن يراك أحد، هذا إذا لم يروك وهم يعرّفونني إلى صاحبهم الميّت ـ هكذا أجبتُ ذلك الصوت الملحاح، ولكنه (الميّت) رآه، أشار إليه وهو يضحك:

- انظروا إليه، يكاد الفضول يهرب من عينيه ليعرف لماذا أسميتموني الميّت حين لمحتموني من بعيد، أنا أعلم أنكم تتندّرون عليّ بمجرد رؤيتي، يُعجبكم اسمي الجديد؛ هاه؟

يقولها بدعابة. ارتبكت، شعرت به يقرأني، هل يعقل أن يكون ميتًا فعلًا، وما هذا الماثل بيننا إلا روحه التي اعتادت الحضور؟ شاركه الجميع في الضحك، ومن بينهم العم سليمان

PDF Eraser Free

الذي لم يعتد الضحك علي، أمسك الميت بذقني وأدار وجهي إليه لأمنحه انتباهي الذي لم يغادرني أصلًا:

- أنا ميّت، صدِّق يا مختار؛ أنا ميّت.

فغرتُ فاهي وازدادت عيناي اتساعًا، حتى أنني لم أنطق حرفًا استجابةً لقوله، مع تأكيد الجميع على مقولته:

- نعم صحيح هو ميّت فعلًا.

أكمل الميت كلامه سريعًا خشية أن يتوقف قلبي وأظن أنه ليس سوى روحٍ هائمة لم تقبلها السماوات بعد:

- تماسك جيدًا، ما بالك خفت؟ لستُ مسحورًا، انقرض السحر من زمان، أنا ميّت فعلًا ولكن في الأوراق الرسمية فقط، قبل ثلاثة أعوام سافر أخي الذي يكبرني بثمانية أشهر فقط وهذه حكاية أخرى، إذ إن أَبَويّ استعجلا لأحضر إلى الدنيا، فحملت بي أمي بعد خروجها من الأربعين مباشرة، ظلت طوال حياتي تكرر أنها حملت بي سهوًا ـ وغمز بعينه اليمنى وابتسامة خبيثة عانقت شفتيه اللتين غطاهما شاربٌ كثيف يمد يديه ليصافح لحيةً تصل إلى أسفل عنقة، لحية يدل مظهرها أن صاحبها اعتاد تهذيبها بشكل دائم ـ هل تصدق أن هناك حملًا يحدث سهوًا؟ لا عليك، كلام الوالدة مصاحف ربانية لا نستطيع إلا تصديقه، المهم أنني أنا أيضًا كنتُ مستعجلًا مواجهة الحياة فولدتني في الشهر السادس بعد شهرٍ واحدٍ فقط من معرفة أمي بحملها بي،

PDF Eraser Free

إذ إنها كانت تعتقد أن العادة الشهرية انقطعت لديها بسبب الرضاعة، ولم تكن تتوقع أن ثمة صغيرًا مشاكسًا يختبئ بين أحشائها، لم يتوقع أحد أن أبقى حيًا بذاك الزمن الذي يصعب به حياة ابن السابع والثامن فما بالك بابن السادس، ولكني كسرت القاعدة واستطعت الصمود، وكلما اقترب الموت مني كشّرتُ بوجهه وأمرته بالذهاب، وهكذا استسلم الموت لهذا الطفل المشاكس وتركه ليحيا حياةً طيبة، هيه هيه، راح زمان الصغر ولكنني ما زلت مشاكسًا، ما قولكم يا رفاق؟

لكزه العم خلفان:

- أكمل الحكاية، لقد اصفرّ لون الرجل، يبدو أنه لا يعرف حكاياتنا نحن العمانيين مع الأسماء، ولكننا سنخبره بها لاحقًا بعد أن تتم حكايتك.

- المهم أن أخي رحمه الله قرر الذهاب لأداء العمرة، وبما أنني نسخة طبق الأصل منه، لم يهتم بتجديد جوازه المنتهي، أو أنه تكاسل عن تجديده، خصوصًا مع وجود بديل جاهز دائمًا، أخذ جوازي وسافر به، وفي طريق العودة وقبل خروجهم من مكةَ تعرضوا لحادث تصادم توفي فيه أخي رحمه الله واستخرجوا له شهادة وفاة باسمي طبعًا لأنه كان يحمل جوازي، ودُفن هناك ليبقى في جوار الرسول ﷺ كما اعتاد الناس أن يدفنوا كل من يموت بمكةَ أو المدينة حيث يموت، ولا يعتبر من إكرامه

PDF Eraser Free

إحضاره لدفنه ببلده، إذ إن موته هناك يعد كرامة من الكرامات التي لا يهبها الله لأي أحد، من يستحقها فقط هو من ينالها، ـ أحيانًا أتساءل: هل يعرف الرسول أن الراقد في جواره أخي أم أنه يظنني أنا أيضًا؟!

ـ اسكت لا تكفر يا الميّت، يقاطعه العم خلفان؛ فيُكمل الميت دون أن يلتفت لتنبيهه:

ـ ومنذ ثلاث سنوات إلى الآن وأنا أحاول استخراج شهادة حياة، ولكنهم يخبرونني أنه لا يوجد ما يسمى بشهادة حياة، كل شيء له شهادة إلا الحياة، حتى الموت نال نصيبه من الشهادات، وبقيت الحياة شيئًا ثَانويًا لا يستحق منحه التفاتة، ليت ابن آدم يتعلم أن هذه الحياة بلا معنى.

ويلتفت إلى العم مرهون ويضحك:

ـ أتظن أن مختارًا سيصدق قصة اسمك يا مرهون؟

التفتُّ إليه والاستفهام يُلوّن وجهي؟ فيُكمل وهو يضحك طوال الوقت حتى أني لم أفهم شيئًا مما يقول لولا أن العم سليمان أخبرني بقصته لاحقًا ونحن عائدان، العم مرهون فعلًا قصته غريبة، إذ إن جميع إخوته الذين سبقوه توفوا قبل أن يكملوا العامين، أحدهم مكث بالحياة شهرًا والثاني ستة أشهر أما الثالث فهو الأوفر حظًا بقي يكابد الحياة عامًا وتسعة أشهر قبل أن يقطفه الموت، والرابع لم يأتِ أصلًا إلى الحياة إذ إن أمه أجهضت وهي في الشهر الرابع، وحين جاء مرهون أشار

PDF Eraser Free

عليهم العقلاء وأهل الحكمة والصلاح بأن يُرهن لأحد الجن ليعيش، وبالفعل تم رهنه وأُسمي مرهون بعد أن رهنوه لجنيّة طيّبة تعيش في إحدى الغافات (والغاف هو نوع من الأشجار المعمرة التي قد تعيش أكثر من مئتي عام، ويصل طولها إلى أكثر من عشرين مترًا بعد حوالى ثمانين عامًا، وهي شجرة شبه صحراوية لا تحتاج إلى ماء كثير بل تمدّ جذورها عميقًا في التربة لتروي ظمأها، في سلّةٍ من السعف معلقةً بأحد أغصانها كانوا يتركونه كل ليلة حتى قبيل الفجر، وقبل أن تستيقظ الطيور يحضرونه إلى المنزل بعد أن يكون قد شبع صراخًا وبكاءً ولا كف حانية تمتد إليه لتحتضنه، أو تخفف بكاءه، يظن الأهالي أن الجنية كانت ترضعه لكي لا يشعر بالجوع، استمر الحال أسبوعًا كاملًا بعدها أعادوه إلى أمه لينام قريرًا، الغريب أنه ومنذ عاد لم يعد يستيقظ ليبكي ليلًا، يقول الناس: إن الجنية كانت تأخذه لترضعه كل ليلة، وتترك بسريره جذعًا على هيئته، ولم يكن أحد يتجرأ على لمسه خشية أن تغضب الجنية فلا تعيده إليهم. كيف لم يخطر لهم أن الطفل اعتاد الوحدة مساءً، فهِمَ ـ رغم حداثة عهده بالحياة ـ أن البكاء لا يأتي له بأحد فتعوّد الصمت. كيف لم يخافوا عليه من أفعى تنقضّ عليه أو طائر يتخطفه وهو معلق بغصن شجرة كأي طائرٍ خرج من بيضته فلم يجد والديه ليرعياه أو يهتمّا به أو حتى يُطعماه؟!

الغريب أن مرهون عاش كما عاش مبيوع وهو جارٌ لهم باعه أهله ولم يرهنوه فقط لأحد الجيران بعد أن مات ثلاثة

PDF Eraser Free

إخوة له قبله، فباعوه للجار ليعيش، وكأن ملك الموت حين يأتي سيقول في نفسه: أووه، هذا ليس ابن فلان الذي اعتدت أخذ أرواح أطفاله، ورغم أن الأمر نفسي بحت، إلا أنه وعلى حد قولهم: على نياتكم ترزقون.

العم سليمان نفسه أخبرني بقصته التي لا تختلف كثيرًا عن قصص رفاقه، إذ إنه تزوج مرتين وكلتا الزوجتين ماتت أثناء ولادة طفلهما البكر، ورغم رغبة العم سليمان في الزواج إلا أنه أصيب بالخوف من الزواج، فزواجه يعني وفاة زوجته وطفله القادم ـ هكذا كانت تُحدثه نفسه ـ نصحه أحدهم بأن يتزوج شجرة عتيقة اعتاد الناس أن يقدّموا لها النذور، معتقدين أنها مسكونة بالجن المسلمين الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم، فأشاروا عليه بأن يتزوج تلك الشجرة ويبيت عندها ليله فتنفكّ عقدة موت زوجاته، وبالفعل عقد قَرانه عليها وبات عندها تلك الليلة حتى الصباح، وتزوج بعدها بإنسية أنجبت له ولم تمت، مسكين العم سليمان ترى كيف شعر تجاه عروسه الشجرة، وكيف قضى ليلته معها؟!

- ولكن يا عم سليمان هل تصدق فعلًا أن لزواجك بتلك الشجرة علاقةً بالأمر؟ هكذا سألته يومها، فكان أن هزّ رأسه قليلًا وهو ينظر إلى الأرض:

- إنها الجاهلية يا بني، كُنّا جُهّالًا يسهل ملءَ عقولنا بالخرافات، والإنسان في لحظة ضعف قد يفعل أي شيء. الحمد لله على نعمة الإسلام والعلم، لولا العلم

PDF Eraser Free

لما تخلصنا من تلك الأفكار ولظلت وِرثًا لأبنائنا كما انتقلت إلينا.

شرد ذهني عنه قليلًا، أتراني كنتُ سألجأ إلى السحر أو الجن لو أن أحدهم أشار إليّ بفعلها لأصل إلى حورية، أم أنني سأسخر من الأمر؟ من ذا الذي يصدق أن هناك من تزوج شجرة لتحيا له الإنسانة التي سيتزوجها لاحقًا.

العم سليمان شخص لمّاح، أصبح يعرف مزاجي حين يتعكّر وتأخذني الأفكار بعيدًا عنه، ولا يمكن بحالٍ ألا يتعكّر إن مرّت حورية ببالي، لكن كل الذي يظنه أن ضيقي بسبب غربتي وبعدي عن وطني وأهلي، لذلك يحاول مواساتي دائمًا:

- يا بني العمل ليس عيبًا، والتغرّب وسيلة من وسائل كسب الرزق، عليك بالصبر حتى تحصل على ما تريد، أنا نفسي تغرّبتُ قبل أن أبلغ حتى الحُلم، ولأنه لم يكن مسموحًا لنا بالسفر للعمل بسنٍ صغيرة، كنا ننسب أنفسنا إلى أي قريبٍ أو جارٍ يعمل ببلدٍ مجاورة فيأخذنا معه وكأننا أبناؤه بعد أن يستخرج لنا جوازات سفر باسمه، الأمر نفسه يفعله الآن بعض العمانيين ممن لهم أصول بدول أخرى، إذ ينسبون أقاربهم إليهم وإحضارهم ليعيشوا هنا من أجل حياةٍ أفضل باعتبارهم مواطنين عمانيين، بدأ شاربي بخط ملامحه على وجهي وأنا أعمل، غريبٌ بلا أهل وبلا هويّة، لا أدري ما مدى قدرتك على تصديق ذلك، ولكنه حدث فعلًا، عملت في

PDF Eraser Free

محطات البترول إلى أن تشبّع صدري برائحة النفط، صبيًّا أُعدُّ القهوة وأقدمها لضيوف ربّ عملي عملت، مثل أي غريب منبوذٍ هنا كنا هناك في الدول المجاورة، نتنقل من عملٍ إلى آخر من أجل أن نأتي بما يجعل عائلاتنا تصبر على فراقنا سنين، لم نذق مُتع الحياة وشبابنا يتفتّح، لم يكن لدينا وسائل اتصال للاطمئنان على أحبتنا، وسيلتنا الوحيدة كانت الرسائل التي يحملها أحد العائدين، فنبعث معه الحب والمال في ظرف رسائل مختومٍ بالعرق والشوق، كنا نعرضُ أسرارنا للغرباء مضطرين لأن زوجاتنا وأمهاتنا لا يعرفن القراءة، كلما بعثنا رسالة، لفح الشوق أحد قرّاء القرية فوصل باردًا لمن نحب. حين بدأ النفط يُغيّر الاقتصاد في بلادنا بدأنا بالعودة وعملنا هنا، وماذا عملنا؟ لا علم إلا ما تعلمناه في الكتاتيب، ولا شهادات خبرة مُنحت لنا حين عودتنا، فأي شهادة خبرة قد تُمنح لصبي قهوة أو عاملٍ في محطة تعبئة وقود؟ اضطررنا أن نكون تابعين في بلادنا للخبراء الأجانب، وابن البلد لا أحد يثق بقدرته على الإنتاج، ولا يمنح الفرصة وإن امتلك الشهادات، لا تزال عُقدة الأجنبي حاضرة حتى وقتنا الحاضر، هم الخبراء والمدراء، وعلى العمانيين التعلم دائمًا، التعلم حتى التقاعد، لا يمكن لعماني أن يحل محل أجنبي خبير، وربما كان ذلك الخبير يستمدّ خبرته من العماني المُهمّش، وحين فكّروا في تعمين الوظائف، عمّنوا

PDF Eraser Free

الوظائف الدنيا كسائقي سيارات نقل الغاز أو المياة الصالحة للشرب، حتى هذه الوظائف لم تسلم من الأجانب، فامتلكوا السيارات ووظفوا العمانيين سواقًا، أما الوظائف العليا والإدارة فقد ظلت رهن الأجانب الخبراء ـ ومدّ ألفها كثيرًا مؤكدًا إحساسه بالمرارة ـ هل تصدق أن ابني الحاصل على الدكتوراه في علوم الأرض يعمل تحت إمرة أجنبي؟، والمضحك أن العمل مجمله يعمله عبدالله ابني الكبير، ولكن الشكر والثناء جميعه للخبير، كثيرًا ما يأتيني راغبًا في الاستقالة بنفسٍ كسيرة، أنزعج من انهزاميته، أضطر لأن أقسو عليه، يجب عليه البقاء كعظمة تسد مجاري أنفاسهم حتى يختنقوا بإصرارنا وحقنا في الوجود، البلد بلدنا يا مختار وهم من يجب عليهم الرحيل.

سامحني يا مختار أنا لا أقصدك وأمثالك بهذا الكلام، أعني أولئك الذي يمصون الدم والدسم من هذا البلد حتى إذا ما يبست آبار النفط تركوه ورحلوا لينعموا بشيخوخة رغيدة، أولئك الذين استولوا على التجارة واحتكروا الموارد والمصادر في البلد، وتسيّدوا علينا وكأننا نحن الغرباء هنا، لا حق لأحدنا في أخذ حقه إلا إن رضي عنه الغريب، ورمى له فتات حق كمتنعّمٍ ومتفضّلٍ عليه.

ـ لا بأس يا عمي سليمان ـ أقولها بسرّي، وأكتفي بمنحه ابتسامة حاولت جاهدًا أن أجعلها صادقة لثقتي بحبه لي، لكي لا يفهم أنني مستاء من حديثه الذي أعلم واقعيته

PDF Eraser Free

ومنطقيته، لائذًا بسحابة بيضاء سكنت السماء منذ فترة ليست بالقليلة، لم تتضخم بالماء، ولم يصاحبها في سمائها الشاسعة أحد ـ لا بأس؛ أنا فعلًا غريب، كتلك الغيمة الوحيدة في سماءٍ لا حدّ لاتساعها، ولكنني لستُ ممن يكفرون بالنعمة، ولم آتِ إلا هربًا من وجع انسلّ إلى صدري على غفلةٍ من أحلامي التي بنيتها عامًا تلو الآخر، هذه الأحلام التي اتّحدت في حُلم واحد كما لم يتحد العربُ يومًا على حلم، ولأن الأحلام أعمارها قصيرة أُغتيلت فجأة بيد من تهيأت للتفتّح على يديها.

علّمني تاج الإسلام أن أخرج يوميًا بعد صلاة العشاء بعد أن نترك الماء يجري بآلية منظمة بين المزروعات لنعود إليه ونغلقه بحدود الساعة العاشرة مساءً ونطبخ عشاءنا المشترك ونأكله ونحن نتبادل الجراح والضحكات، أصبحت عادات تاج الإسلام عاداتي أنا أيضًا، ورغم أنني لم أجد عربيًا واحدًا يشاطرني الحديث إلا أن تاج الإسلام ورفاقه كانوا يتحدثون العربية الركيكة احترامًا لوجودي بينهم، كما أنني تعلمت بعض كلماتهم التي كانت تتناثر من أفواههم بشكل لا إرادي بين أحاديثهم.

- إنها المرة الأولى التي أرى فيها عربيًا يعمل في مزرعة، فهذه الأعمال الشاقة لا تليق بالعرب ذوي الجلود اللينة.

هكذا تساءل أحد رفاق السهرات المسائية، فما كان مني إلا أن سلّمتُه جلدي ليتلمّسه قبل أن أهمس له:

PDF Eraser Free

- بعض العرب جلودهم خشنة كالصبّار يا صديقي، فاحذر أشواكها.

وضحكتُ فشاركني الجميع في ضحكتي المعتمة لأسباب لم يهتموا بمعرفتها، من الجيد أحيانًا أن نضحك دون سبب لننفض عن أرواحنا عناء يومٍ حار.

عدتُ لركوب الدراجة كطفولتي المشاكسة، يعتلي تاج الإسلام دراجته ويأخذني خلفه كلما خرجنا في نزهاتنا الليلية المُعتادة، كما تعلمت أن أستغل فراغي الليلي في العمل بتصليح الأجهزة الكهربائية أو توصيل التمديدات الكهربائية والمائية بالمنازل، مستغلًا خبرتي السابقة بها. عمل إضافي وجّهني له تاج الإسلام لأستفيد من كل دقيقة في غربتي بما يعود بالنفع لمستقبلي. تعلّمت أن أدّعي معرفتي بكل شيء وإن كنت أجهل به من سائلي عنه، وبالتجربة والمحاولة كل شيء يصبح سهلًا، وإن عجزت عن إصلاح شيءٍ ما ليس عليك إلا أن تدّعي أنه يحتاج إلى قطعة غيار جديدة، وباستبدال ما لم تتمكن من إصلاحه يبدو لغيرك أنك أصلحت التالف، حِيَلٌ لا يمكنني القول إنها ذكية، ولكنها تنطلي على البشر الذين يمنحونك ثقتهم العمياء.

هل يُمكن للأمر أن ينتهي عند هذا الحد من المتع الصغيرة التي تقاسمناها معًا؟ لا أظن ذلك، فالحياة التي اعتادت كيِّي كلما ابتسمت كان لا بد أن تترك أثرها في كل تجربة أمر بها.

PDF Eraser Free

صباح أحد الأيام وأنا أعتلي نخلة الخصاب ـ النخلة التي تُؤتي أُكلها بعد أن تنفض جميع النخلات ثمارها وتستريح من ثِقلها الذي حملته أشهُرًا ـ لأُحذِّر عسقها وأُدلّيه تحضيرًا لقطاف ثمره الذي ما زال غضًّا في مهده، أتاني تاج الإسلام راكضًا وهو يردد بخوف:

ـ تفتيش تفتيش، اهرب.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(10)

كل شيء يفقد قيمته حين تكون وحدك.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

مُتعبٌ جدًا، كأني آخر الأحياء، وعلى عاتقي عبء عِمارة الأرض، أحمل فأسي وعرقي وقلقي وخوفي أينما حللت، لا مجال لأن أنظر خلفي مهما بدت الأصوات قريبة مني، فأنا أعلم أني آخر الأحياء على هذه الأرض، وأي صوتٍ لن يكون إلا هلوسة غريب يقضي لحظاته الأخيرة وحيدًا، أو وهم يحمله إليّ يقيني بأني ماضٍ للغياب لا محالة. أحمل زيتونةً ـ كما أوصاني أبي ـ لأغرسها قبل أن تُفاجئني القيامة بلا عملٍ صالحٍ يشفع لي، وحدي أملك كل شيء، لوهلة؛ أنا الحاكم والمحكوم، الملك والرعية، ولكن بلا قيمة، كل شيء يفقد قيمته حين تكون وحدك، لا قلب ينبض معك، ولا صوت يتلو صلواته عليك، متيقنٌ أنْ لا أحد سيبكي عليك، ولن يفتقدك أو يلحظ غيابك أحد.

ترى هل كان يخطر ببال أبي حين قرر أن يُسميني محمد المختار أنه كان يرسم لي قدرًا مُركّبًا كالاسم الذي أطلقه عليّ؛ محمد المختار، محمد نسبة إلى النبي العظيم الرحيم ﷺ، باصمًا بأسماء أبنائه على حبه لهذا النبي المبعوث رحمةً للعالمين ـ يقولها بثقة ـ راجيًا أن نشبهه ونقتدي به في

PDF Eraser Free

سير حياتنا، وحين يستنكر أحدهم تسمية أبنائه جميعهم بأسماء مركبة، جميعها يبدأ باسم محمد يجيب بأنه لو رُزِق عشرة أبناء لأسماهم جميعًا محمد وفرّق بينهم باسم آخر يضيفه إليه كمحمد الأمين ومحمد المصطفى ومحمد الصادق وأنا محمد المختار، ومختار ـ كما اعتاد الجميع مناداتي ـ نسبة إلى المُناضل الليبي العظيم عمر المختار الذي لم يستسلم للاحتلال الايطالي لبلده وظل يحاربهم وهو شيخٌ كبير إلى أن استطاع الإيطاليون القبض عليه وإعدامه، علمت لاحقًا حين بحثت في سيرة من نلت شرف التسمّي باسمه أن الإيطاليين ساوموه على حياته والعفو عنه بأن طلبوا منه أن يطلب من رفاقه الاستسلام لهم وعدم محاربتهم، ولكنه رفض واختار أن يموت شهيدًا بدل أن يحيا ذليلًا، رافعًا رأسه كما أوصى بمقولته الشهيرة: (كُن عزيزًا وإياك أن تنحني مهما كان الأمر ضروريًا فربما لا تأتيك الفرصة كي ترفع رأسك مرة أخرى) فكان له ما أراده من خلود، وظل عالي المقام حيًا وميتًا، وارتفعت حدة المقاومة بعد انتشار صورته معلقًا على المشنقة وقد تجاوز عمره السبعين عامًا حتى تمكن الليبيون من طرد الطليان من بلادهم، ومن المصادفات العجيبة أنني والمختار عمر وُلدنا في العشرين من أغسطس الشهر الذي يُولد فيه العظماء والأبطال ـ كما يقول أبي ـ رحمة الله عليك يا أبي، لطالما كنت ترجو لي مستقبلًا مشرفًا، ولطالما أملت أن أكون كمحمد ﷺ أو عمر المختار رحمه الله فيخلدني التاريخ ويذكرني الناس كما يذكرون الأبطال، لذلك ما فتئتَ تسرد لي حكاياتهم وسيرهم، وما

PDF Eraser Free

دريت أنني سأخذلك كثيرًا، جبانٌ لم أقوَ على صد اليأس ودرء الحزن عن نفسي، هربت من ضعفي فلحقني خوفي أينما حللت. لطالما دسّنا أبي ـ اسمًا اسمًا ـ في صلواته، يَهَبُ كلًا منا ما يرجوه له من الخير، ويستعيذ من كل ما يخشاه عليه، ولكنه رحل، ورحلت معه صلواته، لم تعد تحمينا وتتشكل حولنا كطاقةٍ تُبعد عنا كل سوء.

اجتمعتُ وبقية العمال لمناقشة ما قد يؤول إليه حالنا بعد هرب مجاهد بميزانية المحل، الصمت تسيّد الاجتماع وبدأ يفرض حضوره ويملي علينا اشتراطاته، وضع جميع البنود وطرح كل الاحتمالات لم يتجرأ أحدنا على كسر هيبته، ولا التطرق إلى مناقشته أو تعديل ما يجيء به، جميعنا متورطون في الجبن حتى النخاع، الخوف يُورث الجبن والغربة لا تمنح أهلها إلا الخوف، ومن نكون نحن حتى نفكر ونتكلم ونقرر؟ كنا نعلم أن مجاهد وضع صاحب المحل في موقف صعب وأنه سيصل به إلى أبواب المحاكم لأنه أعطى مجاهد الخيط والمِخْيَط ـ كما يقال ـ واكتفى منه بمبلغ زهيدٍ يهبه له نهاية كل شهر، كأغلب العمانيين الراغبين في دخول سلك التجارة دون مجازفة وخسارة محتملة، غير عارفين أو متوقعين بأن الخسارة الأكيدة هي في الخيرات التي يأخذها غيرهم، مكتفين بما يُرمى لهم من فُتات ربح، هذا الربح الذي يناله الشيخ منصور مقابل تحمل اسمه للمسؤوليات كافة المترتبة على أعمال مجاهد والتي كانت من الجودة بقدر يغري الجميع بمنحه الثقة

PDF Eraser Free

بدءًا من صاحب المحل إلى جميع المتعاملين معه ومن بينهم نحن العاملين معه أو تحت إمرته بأعينٍ شبه عمياء. ورغم أن مجاهد جاء هاربًا من نيران الحرب إلا أنه حمل جذوتها معه وأراد أن يطفئها في صدور من حوله، كنت أظن أن من يتألم لا يستطيع إيلام الآخرين، ولكنه أثبت لي أنني واهم، مجاهد فقد بيته ووظيفته، تحول من طبيب إلى منجد أثاث مستعمل، كشهادة الهندسة التي جئت بها معي كانت شهادته وأعلى درجة، وإن حاول أحدنا إبرازها: هذا ما لدينا ـ جاءه الرد ـ إن كنت غير راضٍ يمكنك الرحيل، فتبتلع شهادتك وتكمل العمل بصمت مختنق، لأنك تعلم أن هناك الكثيرين ممن يغبطونك على وظيفتك هذه التي تدر عليك بعض المال، وأن خروجك يتبعه بأيام إن لم تكن ساعات آخَر غيرك يطلب أقل مما تأخذ من الأجر، لكنهم لا يعلمون الإحساس بالدونية الذي يسحقك كرحىً لا تمل الدوران حتى تأتي على آخر ذرة كرامة تندي جبينك حين تساوي إنسانيتك والتراب الذي جئت منه. مجاهد لم يهرب بالميزانية فقط، هرب بأحلامنا ومستقبلنا الذي رسمناه في الظلام ليبحث عن الضوء، وفي ليالي الأرق الطويلة والأحاديث المحبوسة في الشفاه الزرقاء الباردة، بحبيبات بعضنا الواقفات على الضفة الأخرى من الانتظار، حالماتٍ بشقةٍ صغيرة وأطفال يكبرون وبعض اللعب بأيديهم بدلًا من الشقوق التي كبرت مع أهاليهم، بأدوية أمهاتنا التي اعتادت ألا تكون مستعجلة، ببيوتنا التي لم نصفّ بها حجرًا

PDF Eraser Free

واحدًا بعد، هرب بأراوحنا وضحكاتنا التي طالما حلمنا بها.

رب العمل الطيب ـ لست على ثقة تمامًا بأن ما يتصف به يُسمى طيبة أو سذاجة، لم يستوجب منحه ثقته لأحدٍ بهذا الشكل المطلق ـ أغلق هاتفه هربًا من المطالبين ممن أخذ مجاهد أموالهم على وعد إنجاز متطلباتهم من الأثاث باحترافية بالغة اعتادها الكثيرون منه، والحقيقة أنه لم يكن سوى آمرٍ ناهٍ ونحن من كان يكدح تحت وطأة الخشب ليل نهار لينجز ما يمليه علينا وما يرينا إياه من صور لأثاث من الرقي ما يؤهله لتهافت الزبائن على امتلاكه، وبما يشبه السحر يتحول كل قديم بالٍ على يدينا ـ أو يديه كما يظن الناس ـ إلى تحفة نادرة لن تتكرر مع زبون آخر، مجبرون نحن الآن على إكمالها مجانًا أو التخلي عن الرجل الذي طالما أكرمنا وتركه للسجن يدفع به ثمن طيبته وثقته التي وضعها بمن لا يستحق، كان الاختيار صعبًا والقرار يجب أن يكون سريعًا، ولم نكن مؤهلين أو متأهبين لاتخاذه، بقي الصمت يجول بيننا يبحث عن فرجة يخرج بها حاملًا أوراقه التي بقيت خالية من إمضاء لأحدنا أو بصمة لآخر أو كلمة سقطت في وجهه خلسة أو نبرة حادة تلقاها بوجهه الجامد الملامح، استمر يوجه إلينا نظراته الحادة واحدًا تلو الآخر ونحن كأننا مصلوبون والطير تأكل رؤوسنا ولم تبقَ إلا أحداقنا المسافرة بعيدًا حيث الأحلام التي تبخرت على حين غرة، مُتسمّرون في أماكننا حتى أن أحدنا لم يفكر في مبادلة صاحبه مقعده الذي يصدر صريرًا كلما تململ بجسده

PDF Eraser Free

قليلًا ولم يحظَ بالتفاتة من الآخرين تنبئ بانزعاجهم من صوتٍ قد يُصدره أي منهم لو فكر في التحرك يمينًا أو شمالًا، جميعنا كان يبحر في ملكوته الخاص به على أمل ألا يلتقي رفاقه الحائرين لكي لا يعرقلوا مسيرة حلمه رغم أنه يعلم أن أحلامه لم تعد كما كانت قبل هرب مجاهد الملعون ـ كما أسماه مروان ـ وكما أمّنا على هذه التسمية دون أن ينطق أحدنا بلفظة آمين، ولكن أرواحنا كانت تردد بصوت واحد وكأننا في كورال لأغنية بائسة: مجاهد الملعون مجاهد الملعون مجاهد الملعون. وأخيرًا استطاع الصمت مغادرتنا، خرج من الفرجة التي منحه إياها مروان حين تحرك لأن شدًّا عضليًا أصاب فخذه الأيسر فصرخ من الألم ومد رجله شادًا بيده عليها في محاولة مستميتة للتخلص من الألم بسرعة، وجدتني بداية الأمر أنظر إليه من طرفٍ خفي شاكًّا أنه افتعل الأمر ليمنح الصمت فرصة الرحيل عنا، والخروج من الدائرة التي أحطناه بها، إلا أن الألم الواضح في عينيه جعلني أنتفض وأقفز إليه محاولًا مساعدته بينما اكتفى الآخرون بمتابعة الحدث وقوفًا حولنا إلى أن بدأ الشد بالتراخي وترك رجله لحالها فما بها من الهوان يكفيها وليست بحاجة إلى وجع آخر، وأي وجع قد يعني سقوطًا مدوّيًا تعلم مسبقًا أن لا أحد سيلتفت إليه، ربما منحوه بعض الوقت من الحزن والذكرى ثم مضى كُلٌّ إلى وجهته يسألها الحياة.

المضحك أن مجاهدَ كسب ثقتنا جميعًا، كنا نراه

PDF Eraser Free

مجاهدًا حقيقيًا، خرج من رحم الحرب، ارتدى ثورته وأتى بطلًا من أبطال الروايات المخلدين، الوحيد بيننا المؤتمن على الأسرار والأموال، ولكنه هرب بكل شيء. تاركًا جراحنا مفتوحة آخذًا معه ضماداتنا وأموالنا، هرب تاركًا ألسنتنا فارغة من أحاديثها السرية، فقدنا بعض كلماتنا التي قضينا عمرًا طويلًا في اكتسابها، كان يمكنه الهرب بالمال فقط، لماذا أخذ كل شي معه؟ الآن علينا أن نعمل ونتعلم، نجمع المال ونرتب الجمل، نحاول تذكر الحكايات التي أفضينا بها إليه ونسيناها واثقين أنها ببئر عميقة لن يصل إليها أحد، أتراه يتندر الآن بالدمع المحشو بالسواد في أصواتنا مع غانية اشترى جسدها بعرق أحدنا؟، أتراه يطعم أذنها حكاياتنا ويكتشف بأموالنا تفاصيل جسدها المترهل؟، لا؛ لا بد أنه سيختار جسدًا غضًّا طريًا، بأموالنا سيكون له حق الاختيار، وبأحلامنا ستتلون له الحياة بألوان قوس قزح التي كنا نبحث عنها خلف كل غيمة بكت وهربت سريعًا.

دخل علينا الشيخ منصور ونحن واقفون حيارى لا الصمت أفلح في تشتيت أفكارنا ولا شدّ مروان العضلي بفخذه الأيسر استطاع تغيير دفة أفكارنا نحو وجهةٍ أخرى غير الخوف الذي كان يتلاعب بنا يمنة ويسرة، مستسلمين له بطواعيةٍ مقيتة لطالما كنتُ أكرهها فيّ فإذا بي أتشاطرها مع الرفاق جميعًا في هذه اللحظة بالذات، ألقى علينا الشيخ منصور السلام فرددنا عليه بصوتٍ واهٍ لا يكاد الواحد منا يسمعه إلا من نفسه،

PDF Eraser Free

ونحنُ نقفُ بمنتهى التكاسل حتى كأن ساعةً مرت ونحن نحاول الوقوف تقديرًا له، لم يتجرأ أحدنا على رفع عينيه إليه خشية أن يرى بها ذاك الانكسار الذي يعلوها وتلك الحيرة والتردد اللذين خالطاها، لكن صمته الذي طال جعلني أسترق نظرة أردتها خاطفة فما كانت كذلك، إذ فوجئت بعينيه معلقتين بصدري.

PDF Eraser Free

(11)

أنتَ حُرٌّ في اتخاذ القرار؛ فخذ القرار الذي يضمن بقاء رأسكَ مرفوعًا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

رفض الحاج صالح هذا الاستغلال الواضح، صحيح أنه لن يمكنه الاستمرار في العمل هنا وسيضطر للعودة، ولكن ذلك أكرم له من أن يُصبح مطية لجشع شريكه، جمعنا الحاج صالح وأخبرنا بنيّة العودة إلى بلده بشكلٍ نهائي، وهناك سيبدأ من جديد دون شريكٍ يشاطره عرقه، أما نحن فلم يكن أمامنا من خيار؛ إما البقاء وإما الرحيل، البقاء يعني أن نبقى متمتّعين ببعض المزايا التي منحنا إياها الحاج صالح وفقد بعضها كإيجار الشقة الذي تكفّل به، ولكننا سنضمن بقاءنا على رأس العمل لفترة قادمة لا نعلم مدتها، في المقابل لن نضطر للبحث عن عملٍ جديد، ولن أضطر للاختباء والهرب من أعين المراقبين، كي لا يكتشف أحدهم أنني أقيم بشكلٍ غير شرعي، بعد انتهاء بطاقة عملي التي تركتها بحوزة السيد كومار كابور وهربت تاركًا كل شيء خلفي. أي حبٍّ وحلمٍ تنتظرين من مهاجر غير شرعي؟!

يالها من مهزلة؛ كنتُ أفكرُ في تخصيص مساحة من قلبي للفرح، أريد أن أفرح، أن أتعلم الضحك كما تعلمت الكلام قبل ثلاثين عامًا، أن أقرأ نكتةً سخيفةً وأضحك، أن أشاهد فيلمًا كوميديًا وأضحك، أن أذكرك و. . . . ولا أبكي، لا أعلم

PDF Eraser Free

إن كنت سأستطيع ولكني سأحاول جاهدًا أن أضحك كلما مررتِ في جوار قلبي ولم تُلقِ التحية عليه، أو بكثيرٍ من اللامبالاة ألقيتِها ومضيتِ، ربما تكون ابتسامتي كتلك التي تطفو على شفتي الآن، هذه الابتسامة الساذجة، أبدو بها غبيًا وهي تميل بطرف شفتي الأيسر إلى الأعلى، هذه الابتسامة تجرحني، ولكنها تُسمى ابتسامة وأنا سأتعلمُ أن أحبها، أتصالحُ معها، على الأقل قد أعقدُ معها صلحًا بأن تطفو على شفتي كلما هممتُ بالبكاء ولم أستطع، هذه المساحة من قلبي كنتُ قد قررتُ ألا أملأها بالبكاء بعد أن تركتِها فارغة ـ هي الممتلئة بكِ منذ عرفتك ـ

ناداني الحاج صالح وحادثني على انفراد:

- وضعك سيكون صعبًا يا مختار، أنت بالذات لا تملك قرارًا لتأخذه.

قالها بالكثير من الصدق، فتقبّلتها بالكثير من السخرية المريرة التي اعتادت ألا تخرج من روحي، خشية أن يلمحها أحدهم فيظن أني أسخر منه، أنا الساخرُ مني، وحدي دون الجميع.

- عليكَ أن تبقى هنا، تعلّم أن تتقبل كل ما يحدث معك، لا أرغبُ في تركك وحيدًا، ولكنني مثلك؛ لا أملك قرارًا أتخذهُ بشأنك، عليك أن تبقى لأن رحيلك يعني دخولك دوّامة جديدة من المتاعب التي لا تعلم كيف ستنتهي.

PDF Eraser Free

قال الكثير من الكلام، ومنحني الكثير من الحب، وتركني بلا شيء، وحيدًا أواجهُ قرارًا لم أتخذْهُ، أُسلِّمُ له وأمنحه إرادتي المُكبّلة بقيد غريب.

منذ ما يقارب الساعة وهاتفي يومِضُ برسائلكِ المتتالية، أتأمل رفاق غرفتي وقد انتصف الليل على أمنياتهم المرتبكة، أتخيلهم يستيقظون من سباتهم الطويل ويبدأون بالهذيان، يوقدون شموعهم وحيدين بانتظار أن يشاركهم أحدهم في إطفائها ولكنه لا يأتي، يتثاءب الليل ويغفو ولا يأتي. يكتبون الرسائل والقصائد والتعاويذ ويرسلون الأمنيات والصلوات ـ جميعها تمضي فرادى فرادى ـ ولا شيء يأتي ولو وحيدًا.

أقول لهم وهم يغطون في وحدتهم العميقة:

- تصبحون على حبيبٍ يطرق أبواب غرفكم الباردة، حبيب يستيقظ بعد منتصف الليل من سباته الطويل، ليرسل صلاته الهامسة إلى سابع سماءٍ راجيًا أن يبعث الله له حبيبًا مع الملائكة التي تأتي لتوقظه صباحًا كي يصلي قبل طلوع الشمس.

أما أنا؛ فأرغب في ليلةٍ لا تنتهي من الفرح، أن أُضيء الشموع والأمنيات ولا أُطفئها، أن أخلع قلبي وأغسله من الهمِّ سبعًا جميعها بحبك، أرغبُ في قمرٍ فجريّ وسماء تتراقص النجوم في وجنتيها وكأني في صالة عرسٍ تملأها التهاني والزغاريد، ولا ينتهي الليل، يطول كثيرًا كليلي هذا، بشرط ألا يكون توأمه في الغربة والحزن والانكسار.

PDF Eraser Free

أتناول هاتفي، أستشعر دفئكِ، أشتمُّ عطركِ الهائم بين كلماتكِ:

(مغرمة بك، منذ أن علمتني الانشطار لألف امرأة من جنون، أن أخبئ بين أصابعي دفء يديك كلما حاول أحدهم مصافحتي، أن أكتبك كلما احتجت إلى رؤيتك وأن أُصغي إلى البحر كلما غاب صوتك، الرجل القادم من دفتر مراهقتي أنت؛ لذا لم يكن صعبًا عليّ تخبئته في أدراج روحي، أنت المرسوم بعيني بؤبؤ أمنيات، الغافي على كبدي كفجر جديد، الرابح دائمًا كلما حاول أحدهم مزاحمتك في ذاكرتي، الأول والأخير والوحيد في أجندة يومياتي، حبيبي الذي كلما ناديتك بها ذاب السكر بشفتي وابتسمت.

مغرمة بك، لا تسألني كيف ومتى وأين ولماذا؟ كل ما أذكره أنني استيقظت يومًا برغبةٍ مجنونة في احتضانك إلى ما لا نهاية. جريت إلى النافذة وفتحتها لربما تكون رائحتك أيقظتني دون أن أشعر، لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، نظرت إلى الساعة فرأيتها تقترب من الرابعة فجرًا، وهاتفي خالٍ من أية رسالة منك قد تبرر هذا الحنين المفاجئ كإعصارٍ صيفي يأتي ويرحل سريعًا مخلفًا الكثير من الدمار الذي يلحظه الجميع، وهكذا كنت، فقد سألني أبي عن شرودي على مائدة الإفطار، وارتبكتُ كثيرًا وأنا أطرق باب شقتكم لأتلعثم وأنا أسأل أمك إن كان ثمة جديد لأخبارك فترد آسفة أنك لم ترسل إليها منذ يومين، وتُردف: خيرًا يا ابنتي، هل ثمة ما يُقلق؟ أهز رأسي نفيًا وأحاول عبثًا الابتسام مرددةً: لا أبدًا، أحببت الاطمئنان فقط، إلى اللقاء يا خالة، تأخرت كثيرًا عن العمل. أجري على

PDF Eraser Free

الدرج خشية أن تلحقني بسؤالٍ آخر لا أجد له إجابةً كاذبة، في العمل أكّدت لي زميلتي أن شيئًا من الاحمرار علا شحوب وجنتي هذا الصباح، هل تراها استشعرت شوقي إليك؟ وإلا ما سر سؤالها المباغت:

- هل أنتِ عاشقة يا حورية؟

أنسحب إلى دورة المياه لأبكي، المكان الوحيد الذي يمكن ألا يقاطعني به أحد، أو يتطفل على حزني وشوقي أحد.

كان يمكن لهذا الحب أن يصبح شيئًا آخر غير الذي هو عليه الآن، كان يمكن أن يكون كأحاديث طفلٍ لم يبلغ الثانية من العمر يخبرك كم يحبك وكم أنت شهي كالحلوى التي أحضرتها له في زيارةٍ خاطفة، كقبلةٍ منه تترك أثرها الرطب على خدك، فتمد يدك لتمسحها ولكنك لا تلبث أن تغير رأيك فبعض الحب لا يمكنكَ محوه بمسحة يد، كانتشائك وأنت تحمله بين يديك وتدور به وهو يضحك في حين أنك تُصاب بالدوار، يتمادى أكثر فيطلب أن تحمله على كتفك ليصل إلى السحاب علّ المطر ينهمر بين يديه، ولكنك لا تفعل رغم أنك تندم لاحقًا فقد كان الأمر يستحق التعب.

يااااه، لو أن هذا الحب اكتمل، لكبر هذا الطفل، لكان الآن في عمر الثالثة ربما. ولكنك تُصرُّ على معاقبتي. تُعاقبني؟ على ماذا؟ على هربك واستسلامك أمام أول رفضٍ جاء مني؟ هل جلست مع نفسك قليلًا وتساءلت: لماذا فعلتها؟ هل كانت تقصد فعلًا أنني لا أستحقها وأنني لا

PDF Eraser Free

أعني لها أكثر من حبيب طفولة كبرت معه ورأت في عينيه أنوثتها تتفتح ولم يكن مسموحًا لأحدٍ بقطف هذا البرعم فهو لمختار، هو الذي اعتنى به منذ أن رآه في شقة الجيران ببابها المفتوح على مصراعيه على طفلةٍ تبكي أمها التي رحلت قبل أن تُكمل صك أزرار فستانها الخلفية بلونها الماروني المتناسق مع لون الفستان الوردي الفاتح، فحلت يدك محلها، لماذا يحق لك الاعتراض والغضب والرحيل وأنا لا أعلم بعد هل تحبني فعلًا أم أن حبك لي أمر مفروغٌ منه كطفولتنا التي رحلت، وشبابنا المشتت بين الكثير من الحكايات والرغبات والأمنيات، لماذا لم تمنحني فرصة أخرى؟ ألم أكن أستحق ذلك؟ حسنًا؛ أنا لا أستحق، ماذا عن هذا الحب الذي تتحدث عنه، ألا يستحق؟!)

أنا حقًا لا أملك إجابة عن أسئلتك، أرغب في النسيان ولا أستطيع، أرغب في العودة فلا أستطيع، مشطورٌ إلى نصفين لم يتمكن أحدهما من إزاحة الآخر عنه، وفرض وجوده الوحيد ليتسنى لي اتّباعه والمضي به أو معه.

رحل الحاج صالح، وبقينا بعده، بقينا جميعًا، المُخيّرُ باتخاذ القرار وغير المُخيّر، جرّت أرواحنا خلفها كل ما استطاعت حمله أو لم تستطع حمله من التعب والذل، ومضت.

بنيتُ جدرانًا حول ذاكرتي، خشيتُ أن تطل عليّ يومًا من نافذةٍ عُلوية، فصمّمتُ جدارًا بلا نوافذ ولا أبواب،

PDF Eraser Free

مستعينًا بكل ما تعلمته يومًا في كلية الهندسة، صببتُ سقفًا إسمنتيًا عليها ـ أنا الذي أضحى خبيرًا في البناء، كخبرته في الزراعة ـ باستماتةٍ أردتُها أن تموت في سجنها، ولكنها نجحت في اختراقه، لا تؤمنُ بالموتِ ذكرياتُنا، ظلّت حية، في كل يومٍ تصنعُ ثقبًا تتسرب منه رائحةُ الأمس، حتى اختنقت بها، وحين شارفتُ الموت، فتح المالك الجديد أو القديم، فهو شريكٌ قديمٌ فعلًا، عليّ تصحيح خطئي، وإعادة جملتي بشكلٍ صحيح: فتح المالك الوحيد الباب، فتسرّب الواقع إلى صدري، تنفّست، ملأت صدري برائحته، عادت إليّ الحياة من جديد، أو هكذا ظننت.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(12)

يومًا ما سيعودُ الطينُ إلى الطين،
وسينبتُ من أجسادنا زهرٌ وشوك.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(الألم بداخلي لا يبدو كما هو عليه فعلًا، أنا أتألم حقًا؟ شيْءٌ ما بداخلي يتعاظم، يكاد يخنقني، هل أملك الحق بمعاقبة نفسي على خذلانك، وتركك لغربة لا ترحم؟ أم أن أي عقابٍ سيكون رحيمًا بالقدر الذي لا أستحق؟ غاضبٌ مني أنا أعلم، وأعتذرُ لأني أزعجك الآن؛ ولكني أردت أن أخبرك أنني وأنا أوشك على السقوط بعد أن باغتتني نوبة الربو بالأمس فجأة كنت أمدُّ يدي لتلتقطها، وحين شعرتُ بتخاذل جسدي عن حمل رأسي توسلتُ الأقدار إلى صدرك ليتلقفه. أنت لا تعلم أن قمة العجز أن تمد يديك لتقبض الهواء لتعود وتقذفه دفعة واحدة بصدرك عله يستريح من نوبة ربوٍ مزعجة، ولكن الذي يحدث أن الأكسجين يختفي فجأة وكأنك في بحر لُجّي ليس له قرار ولا خيار لديك إلا الغرق. حينئذ تُغمضُ عينيك وتستسلم لمصيرك، وأنا أغمضت عينيّ وسلمتُني إلى صدرك، وحين أفقت كنتُ كالمطرودِ من رحمة الله، فلا أنتَ كنتَ معي ولا وجعي أتى بك ولا أنفاسي المتقطعة وصلت بعضها بعضًا، كقماشٍ تعب صاحبه من كثرة ترقيعه فتركه يبلى. ضعيفة جدًا، هشة كطفلة وجدت نفسها وحيدة في جوار البحر، لعبت معه قليلًا ثم تذكرت أنه ليس ومن تحب سواء، يومًا ما قد يبتلعها ويضحك،

PDF Eraser Free

حاولت الهرب ولكن امتداد البحر لا نهاية له وقدماها صغيرتان بالقدر الذي لا يسعفها لتخطيه.

أتهاوى، أوشك على السقوط، وكلما ازداد ضعفي وخوفي رأيتُ أحبتي المختبئين في عيني فأتماسك. وكلما تداعيتُ أكثر يطل وجهك من نافذة علوية كأمنية دانية ورب رحيم، تمد كفك لي بشيء يشبه الحياة.

نوبات الربو تأتي برائحة الموت، أراه يقترب من سريري كثيرًا، حتى إذا ما أوشكت على تسليمه روحي استيقظت على صوتك يطرق باب غرفتي فأجري نحو الباب وأفتحه، ولكن ليس سوى الريح تقلّب الظلام وتعبث بهدوئه. أتكوّمُ على بعضي ولا أستطيع البكاء، السرير كبير، أوسع من أن يحتضنني وأنا خائفة، أظل أرتجف حتى الصباح، تارة أتصفح وجه الليل، وتارة أُحدِّثُ الفراغ، وتارة أخرى تنظر إليّ بتلك النظرة التي تُسقطني من عيني فأخفض رأسي وأصمت.

هل حقًا طرقتَ بابي؟ هل تأخرتُ عليك فغضبت ورحلت؟ هل ترقبني من خلف الريح؟ هل ما زلتُ قلبك المُعلّق بين السماء والأرض، أم أنني سقطتُ أخيرًا وشيّعتني إلى مثواي قبل الأخير؟ أحقًا فعلتَها؟ وكل هذا الوجع الذي يسري كالسمِّ في جسدي ليس إلا نفحةً من جحيم الفراق؟

أختنق بي، بصوتي وقد بدأ يتحشرج حنينًا، بك وأنت أقرب من حبل الوريد وأبعد من هدير المسافات، بحكايتنا التي لم تكتمل، نهايتنا غير المتوقعة، بكل شيء أختنق).

PDF Eraser Free

وماذا بعد؟ هل أحمد الله على سلامتك وأنكِ الآن بخير؟ أم ألوم قلبي الذي لم يشعر بوخز ألمك؟ ولم يرتجف هلعًا وهو يراكِ قابعةً خلف قناع الأكسجين مستسلمةً لضعفكِ وذكراي؟ هل نسيت الدرب الذي تزلزل تحت قدمي يوم كان ظلك يجري أمامك وأنت تتبعينه، صوتي الذي اختنق بعبراتي فلم أقوَ على مناداتكِ وما تجرّأتِ على الالتفات خلفكِ كي لا يحل عليك غضبٌ من رجزٍ أليم. تتحدثين عن المرض ونسيتِ الرجل الذي خلّفتِهِ غير صالح إلا للهروب، لا يبيتُ ليلته مطمئنًا لحلم إلا ويباغته سَفَرٌ بعيد لا يشبه سابقه إلا في العذاب والغربةً والترحال.

يحدث أحيانًا أن تشعر بالألم في كل خلية من جسدك ولكن أكثر ما يوجعك هو قلبك العاجز عن رفع صوته ويديه ليدافع عن نفسه! لطالما كان هذا القلب طفلًا يتوسد يديكِ كي ينام. كم مرة وبّختُه! هززت كتفه لينتبه! رششت عليه بعض الماء البارد عله يستفيق ولكنه لا يستفيق. هذا القلب المتمرد سيقتلني!

كيف تطلبين الغفران وقد تركتِني للظلام يتقاذفني بين لياليه بلا هوادة، تمارسين هوايتك المفضلة في إخضاعي لقلبكِ متى شئت، دائمًا كنتُ أتبعكِ كظلك، آن لهذا الظل أن ينكسر، آن لي أن أسأل الله السلام لروحي قبل أن تغادرني بأوجاعها، آن لي أن أصرخ: سلامٌ عليّ لا عليكِ، لا على الجراح ولا الحنين ولا الدموع ولا الغياب ولا العذاب، سلامٌ عليّ، عليّ وحدي أنا من بين جميع ذكرياتك ونزواتك

PDF Eraser Free

وطيشك وكل من سكن قلبكِ يومًا أو تهاوى بين يديك وجعًا.

لا تبعثي برسائلكِ، توقفي أرجوكِ، أنا الذي تعبت وما عدت أحتمل، رسائلك لا تحمل إلا الوجع الذي لا يطاق، تنبّش جراحي التي لم تندمل أصلًا، رسائلك تحرقني ولا أملك إلا انتظارها، مُرّة عذبةً تأتي، تُشعل أرقي وأبتسم كأن روحي عادت إلي فجأة، ظالمة ومنصِفة تأتي، على هيئة موتٍ وحياةٍ تأتي، وأنا ضعيفٌ لا أملك إلا انتظارها.

لا شيء يبقى على حاله؛ كل طريقٍ جمعنا يومًا أضحى مرتعًا للغياب، قفرًا إلا من خطواتنا التي تقادمت آثارها واستسلمت للنسيان ليمحوها حينما يشاء، حتى أحاديثنا ارتأينا منحها لأول قافلة تمر من هنا، علّها تبيعها بثمنٍ بخسٍ لعزيزٍ لا يجد من يحادثه فتملأ أحاديثنا فراغه الذي بدأ يكبر معه، تمر الأيام ولا تمر كما نتمناها، تمر باردة خالية من لحظة دفءٍ تستفيق عليها رغباتنا النائمة، كأننا ما خُلقنا للحب كهذه الليلة الماطرة بسحبها الثقيلة والخانقة، لماذا لا أرغب في الخروج والجري خلف كل قطرة تسقط من السماء ومحاولة التقاطها، تارة بيدي وتارة بلساني، وكثيرًا ما أركلها بقدمي وأتخيلها تطير إلى المرمى مباشرة محققةً هدفًا ولا أروع منه، كما كنتُ أفعلها كثيرًا. أشد لحافي عليّ وأختبئ من وقع خطوات المطر على الأرض، أخشى من صاعقةٍ قد تجتثّني من فوقِ الأرض، النوم لا يأتي حينما أتمناه، أحاول إغراءه بعينيّ المغمضتين ويديّ اللتين وضعتهما بين فخذي في محاولة مني للتكور على نفسي علّي أخبئني بعيدًا عن كل ما يخيفني في

PDF Eraser Free

هذه الأرض المَقصيِّ بها بعيدًا عن طفولتي، وأمي، وعينيكِ، لم يكن المطر يخيفني بهذا الشكل، كنت أحسبه يأتي حاملًا الحياة بيدٍ والفرح بيده الأخرى، ولكنه هنا يأتي مختلفًا، يحمل الموت بيدٍ والحزن والخوف بيده الأخرى، في كل مرة يهطل المطر يموت الناس، ولا تعيش الأشجار، آخر مرة هطل بها المطر أخذ رجلًا وزوجته وفتياته الثلاث اللواتي لم يتجاوز عمر أكبرهن السابعة، جرفهم الوادي سريعًا فلفظ الرجل حيًا وابتلع فتياته وزوجته وأهداهن إلى الموت، هكذا خرج الرجل خالي الوفاض من زواج استمر أكثر من ثمانية أعوام، وزوجة طيبة محبة، وثلاث فتيات يتراقصن حوله كالفراشات، رحلنَ جميعًا وتركنه يقضم وحدته وقلقه، لا أدري؛ هل الأب سيموت وهو على قيد الحياة؟ أم أنه سينسى، وبعد عام سيتزوج امرأة جديدة، وينجب أطفالا آخرين، قد يُسمي طفلته الأولى باسم زوجته الراحلة من باب الوفاء وقد لا يفعل، أما الراحلون فسيبقون بعيدًا ينتظرون انقطاع المطر، ستتوقف أرجل الفتيات الراقصة عن الدوران على وقع قطراته، ولن يمددن أيديهن وأصابعهن كلما أقبلت غيمة من بعيد ليصرخن بفرح: أبي؛ إنه المطر!

«لله ما أعطى وله ما أخذ» هكذا أحاول إسكات قلبي الذي بدأ بالبكاء عليكِ. حين ابتعدتِ آمنتُ أن الصلاة للأوفياء وأنا لم أكن وفيًا بما يكفي ليتقبل الله مني ـ كما ظننت ـ لذا هجرت صلاتي وجعلت محياي لطريق لم يُرسم على خرائط الجغرافيا قبلًا، وتركت نُسُكي لما لا أعلم من الغيب،

PDF Eraser Free

وتخليتُ عن ربي، عن ثقتي به ويقيني بما يمنحني من الخير من دون أن أنتبه، وها أنا منفيٌّ من الكونِ، تحيط بي الجهات الأربع وسماءٌ تحتل الجهة الخامسة وأرضٌ صمّاء تجذب الطين إلى الطين، طيننا أجسادنا وطينها القبور، تأخذنا زادًا لأشجارها، قد ينبت منا الزهر وقد تغرسنا في خلايا الشوك، وغالبًا لا نكون مخيرين أين تُبعث أرواحنا مرة أخرى وعلى أية شاكلة وفي أية هيئة؟ في الزهر أو الشوك لا يعود الأمر بذاك القدر الذي نظن من الأهمية.

أتردد فيما يجب عليّ فعله، اليوم هو الجمعة، يوم الراحة من العمل والاستمتاع بالوقت مع الأصدقاء، أو التسلي بقراءة كتابٍ ما قمت بتحميله من الانترنت، إذ عليّ ادّخار المال بدل تضييعه في شراء الكتب الورقية الغالية، ياللسخرية، وكأني ألمح ذاك الزمان حين كنت أدّخر مصروفي المدرسي لأشتري مجلةً ما أو كتابًا نصحني به أحد الأصدقاء أو ذكره صدفة أو متعمدًا أحد المعلمين بالمدرسة، الآن أصبحت الكتب تُهدر المال، يوقظني صوت الهاتف من تفكيري في ما يجب عليّ فعله، ربما كان أحد الأصدقاء متلهفًا للخروج سريعًا للاستمتاع بأكبر قدر من الوقت، ولكن صوت الرسالة ليس إلا ذاك الصوت الآتي برسائلكِ، أمسك هاتفي، تباغتني رعشةٌ لذيذة، وأحلامٌ تستفيق وأخرى تغادر، يبدأ العرق بالتصبب من سائر جسدي، وخصوصًا يدي، هذه اليد التي لم تكف عن التعرّق مُنذ لمستكِ للمرة الأولى وأنتِ ابنة ساعات حين أخذتني أمي معها لتبارك قدومكِ وتسأل الله أن يجعلكِ

PDF Eraser Free

من الذرية الصالحة وتمنحكِ الحنان الذي أخذته أمكِ بين يديها وهي تُسلم روحها لله بعد ولادةٍ مُتعسّرة نزفت بها كثيرًا حتى الموت، أمسحُ كفي بسرعة على رجلي ليمتص ثوبي عرقها كي أتمكن من فتح رسالتك، التي لم تكن كسابقاتها مما فاجأني قليلًا، ولكني لم أسمح للمفاجأة أن تأخذني بعيدًا، بل استسلمت للخدر اللذيذ الذي بدأ يسري في جسدي بمجرد فتحها:

- (أنا امرأة متمردة، تعلم أنني لست كباقي النساء لم أخلق لأختبئ خلف خيمة من حرير، كنت دائمًا أحلم بأن أخطف من صوتي صمت كل نساء الأرض وأصرخ في وجه الموت ذاك الذي خطف أمي حين ولدتني وتركت لي حسنها وعمرها كما يقول الجميع وليتها أخذت عمري وحسني المولود معي كما تنطق أعينهم. لماذا تلومني حين أخشى الفقر؟ أليس هو من اختطفها حين لم يجد أبي المال الكافي لأخذها إلى مستشفى خاص لتلدني هناك؟ أليس الفقر نفسه هو ما جعل أسرّة المستشفى الحكومي تمتلئ فجأة وتهش أمي خارج المستشفى وآلام الطلق رفيقتها والولادة المتعسرة تسلب الحياة منها رويدًا رويدًا وبكثير من الألم.

أريد ارتداء الحياة، لماذا استكثرت علي الخوف من الموت الذي سيقطفني كأمي مع أول طفلٍ سيُعرّيني من حياتي ليرتديها؟ طفلنا الذي سنراقبه وهو يكبر في أحشائي يومًا تلو الآخر، سنراقبه وهو يتحرك، سنحلم بتفاصيله الدقيقة، سنزور

PDF Eraser Free

طبيبة النساء معًا وستخبرنا بكونه بنتًا أو صبيًا، وسأحزن إن كانت بنتًا لأنها ستحمل قدري وأمي معها، سأبكي، ولكنك ستطمئنني أن كل شيء سيكون بخير، ولكنني لست واثقة، سأظل خائفة، أصحو من نومي حين يأتيني شبح الموت مهرولًا ليأخذني معه، كل ليلةٍ هانئة ستنتهي بالكثير من القلق والبكاء. أنت لا تفهم لأنك لم تشأ أن تفهم، رميت حلمك أمامي، ولم تُبادر بالتقاطه مرة أخرى، أخطأتُ بحقكَ نعم، ولكنك شاركتني في الذنب نفسه، كلانا لم يكن قويًا بما يكفي ليتمسك بصاحبه، وها نحن الآن؛ خسرنا معًا، نبكي معًا، نموت معًا، ورغم استسلامي ما زِلتَ تُكابر.

لماذا استهنت بامرأة مثلي وهربت؟ أنت جبان ككل الرجال العاشقين، تريدون تفاحة متدلية تقضمونها متى تشاؤون دون أن تشعروا بالخطيئة وتُطردوا من الجنة، دون خطيئة أولى ولا نزوة أخيرة.

كم أتمنى لو أغفو دون أن يطل وجهك ويحتل كل المساحات الشاسعة بيننا، دون أن تمر أصابعي بسرعة وتوتر على جميع التطبيقات بهاتفي لتدور وتدور كما كنت أدير مجسم الكرة الأرضية وأنا بالصف الخامس باحثة عن خريطة تشبه وطني ولا أجدها ولا أجدك، أترك أصابعي تكمل دورانها وأرحل بعيدًا حيث لا مجال لأن أكون معك، ولكنك لا تتركني، تبقى متعلقًا بيدي أينما ذهبت، كطفلٍ يخشى الضياع، لماذا تُعاند قلبك؟ من أين لك كل هذه القسوة؟ ألست أنا حبيبتك وطفلتك التي تعهدتها منذ أن وُلِدت ولم

PDF Eraser Free

تجد لها أمًا، فأخذتها أمك لتمنحها الحب والأمومة التي لم تشعر بفقدانها يومًا، هل تذكر حلوى أم علي التي أحبها، الوحيدة التي تتقنها أمك، أحببتها لأول مرة حين كنت في الخامسة من عمري، كنت ألعب ببيتكم فشممت رائحتها وبقيت عالقة بروحي ولكني لم أتجرأ على طلبها من خالتي أم مختار، شيء من الحياء منعني، عدت إلى منزلي وأغلقت باب غرفتي وبكيت، طلبت من الله أن يبعث أمي لتصنع لي أم علي ـ تلك التي تصنعها أمك ـ وترحل مرة أخرى، فبعثك الله لتدق الباب ورائحة أم علي تسبقك وترفعني عن سريري لأجري إليك وبقايا الدمع عالقة بجفني.

ـ ما بكِ؟ سألتني.

ـ لا شيء؛ غير أني كنت أدعو الله أن يبعث أمي لتطبخ لنا أم علي.

ضحكت وطوقتني بيديك وهمست: لقد بعثها الله لتسكن في بيتنا وتصنع لك أم علي هناك. يومها أيقنت أن الله أخذ مني أمي ووهب لي أمك كأمٍّ بديلة، أم لا ترفع صوتها حين تغضب ولا توبخني إن أخطأت، ولا تسمح لأبي بمعاقبتي، بل تمسح على رأسي وتقول له:

ـ هذه يتيمة، من يؤذيها لا يدخل الجنة ولا يشم ريحها.

كنت حنونًا كأمك، تمسح على رأسي وتحتويني وأنت ابن السابعة وكأنك ابن سبعين عامًا من النضج، أحبك أنت تعلم ذلك، كان شيئًا مفروغًا منه، شيئًا بديهيًا كأن نكبر كل

PDF Eraser Free

يوم ويزداد طولنا، كأن ينبت على ذقنك شاربان وتهذبهما فتبدو وسيمًا وترتدي ثوب الرجولة، ثم تُشير لي أن هناك بعض الشعيرات الواجب علي التخلص منها قبل أن تغدو كشاربيك فلا يفرِّقُ بيننا الجيران، لم أكن أغضب منك فقد كنتَ مرآتي وعيني المشرعة على الحياة، ورغم ملامح الأنوثة التي ارتدتني سريعًا، إلا أني لم أشعر بأن ثمة شيئًا يستوجبُ التفريق بيننا في المضاجع كما يفعلون مع الإخوة، فأنت لم تكن أخي، هكذا بدأت أحبك بشكلٍ مختلف، ولكنني أخفقت في الحفاظ عليك حين خفت من الفقر أن يخطفني منك سريعًا، رفضتك خوفًا من الموت، لا أريد أن أذهب سريعًا كأمي، ولكنني أيضًا لم أستطع العيش دونك، كيف لي أن أعقد صلحًا مع نفسي ومعك، عُد إليّ يا مختار، سامحني لأني لم أكن أفهم الحياة كما يجب، عُد كما أنت، بلا هدايا ولا مال، ولا حزن ولا رحيل، عُد حبيبًا لم أرتوِ منه يومًا، عُد إليّ قبل أن يذبل الورد المتفتح على صدري، عُدْ إليّ ولا بأس بأن أموت وأنا ألد طفلتك الأولى).

تصمتين، نعم تصمتين؛ فقد كانت رسالتكِ صوتية هذه المرة، صوتكِ سرى في دمي حتى أضعفني، إلى أن انقطع كنت أتابع صوتك. أوشكت أذني على التقاط الخفقة التاسعة والأربعين بعد الألف لنبضك، أنفاسك لم تكن متسارعة ولا هادئة كانت أشبه بأجراس كنيسة تترنح علّها توقظ الإيمان في قلب أحدهم، وكلما مد قلبي يديه متثائبًا تحت غطائه ربّتُّ عليه وغطيته جيدًا، لم يكن الوقت ملائمًا إلا للأحلام، كان

PDF Eraser Free

يجب عليه عدم الاستيقاظ مُبكرًا، لا بأس بأن أتأخر قليلًا، علّ قدرًا ما يحمل عني هذا الحب، لعله دربٌ آخرُ لا أسلكه ولا يأخذني إليك، هناك؛ حيث أنتِ وكل المواقيت المختلّة بعقلي، وكأني لم أعد معنيًّا إلا بمطاردتك والبحث عنك ورغبة الوصول إليك، يقال بأن جميع الدورب توصلنا إن كانت الرغبة صادقة، ورغبتي أصدق من طفلٍ يشتهي لعبة، أو يتيم يحلم بأم لن تعود، ولكني لم أصل، ليس كل ما يقال صحيحًا، أعترف أنني الآن بلا مقاومة، ألقيت أسلحتي جميعها. قبل يوم وبضع سنينٍ من العمر لم أعد أذكر الرقم بالضبط، كنت أرتكب الخطأ نفسه الذي أفكر في ارتكابه الآن، أغلقت الأبواب والنوافذ والستائر، لا لم تكن هناك ستائر أو كانت قبلًا ولا توجد الآن ـ لستُ متيقنًا ـ أنَّبْتُني كثيرًا، ضربت يدي برأسي أو رأسي بيدي، لا فرق فالنتيجة واحدة، اكتشفت وأنا أذرع الغرفة أن هناك بلاطة مكسورة وأخرى لفظتها الأرضية، وثمة بيت مهجور للنمل، حتى النمل لا يهوى العيش مع الغرباء، أغلق الباب ورائي، توقفت يدي عن ضرب رأسي أو رأسي عن ضرب يدي، أخطو مستعجلًا، أُلقّم خطوتي ثلاث درجاتٍ معًا في كل قفزة، لا بأس بارتكاب الخطأ طالما أننا لا نؤذي أحدًا؛ هكذا سوّلت لي نفسي، وكمن ملك الدنيا وعلم أنه وحده صاحب القرار طويت السلالم في لمح البصر، لم أظن أن اصطدامي بعينيكِ في نهايته قد يُعيدني إلى أعلاه أجر قلبي خلفي كطفلٍ وبّخته أمه توًا لأنه لم يرتب غرفته، كل القرارات لا أهمية لها طالما أننا

PDF Eraser Free

لا نجرؤ على تنفيذها، أعود والخِزي يأكلني وعصا الشيخ ياسين تجري على ظهري قبل أن يأخذني أبي في حضنه موجهًا نظرته إلى الشيخ ياسين، ويمضي بي بلا حرفٍ يعين الشيخ ياسين على بلع ريقه الواقف على طرف شفتيه الكبيرتين. تجرين لتصلي أعلى الدرج قبلي، تُغلقين أمامي الباب بيديكِ، وبعض الدمعُ العالق على رمشكِ يوشك أن يفقد صلابته ويسقط:

- لا تتراجع أرجوك.

تهمسين بها بتوسلٍ شديد، وكأنكِ إعصارٌ يوشك أن يعصف بي، أتراجع خطواتٍ إلى الوراء، هذه المرة تأخذ مني كل درجة خطوتين في محاولة للسيطرة على أعصابي، أشعر بالكثير من التوتر والارتباك، يدي القابضة على الدرج بقوة تشي بضعفي وهشاشتي أمامك، يباغتكِ الغضب فجأة، تهددينني بالرحيل، بعدم الرجوع هذه المرة، بنفضي من ثوبكِ كما فعلتِها سابقًا، إما أن نلتقي وإما لننسى، آن الأوان أن ننسى ـ ترددينها ـ آن لهذا العبث أن ينتهي، ستستفيق يومًا بلا صوتي، لن أهمس لك ليستيقظ قلبك، ولن أقول وداعًا ربما، كعابرة محطة التقيتها ذات سفر سأكون، لن تسعفك التذاكر ولن تخبرك القطارات عن أثري، سأضيع في ذاكرتك والطريق التي أهدت إلينا وردًا وأغنية لفيروز ستغلقها الإصلاحات التي لن تنتهي أبدًا. حتى أنا سأُضيعني، سأمحوني من كل شيء وأنساني في مكان ما لن أُخبرني به حتى لا يفشي لك قلبي سرًا من خلفي، فأنا أعلم أن قلبي لن يطاوعني على تركك، لذا سأمنحه حرية القرار بين أن يتبعني أو أن يبقى معك،

PDF Eraser Free

وصدقني لن يختلف الأمر كثيرًا ففي الحالتين أنا لا أثق بقلبي لذا لن أخبره برحيلي ليتفاجأ بي يومًا ما أبعد مما تظن، سأطوي كل السنين وأتركها خلفي وأمضي دون رجعة إلى ما شاء لي النسيان، لن أتدلّى كتفاحة من الجنة، ولن يقطفني آدميٌّ غيرك، أعلم ما أريد، بِتُّ أعلم ما أريد، ولكن إرادتي لم تتوافق وإرادتك، كما لم تتوافق إرادتك وإرادتي يومًا ما، لم تغفر لي زلتي، وأنا تعبت من استجداء مغفرة لن تأتي، هل عليّ أن أموت لتسأل الله لي المغفرة؟

لماذا لا تغفر لي لأطمئن لمغفرة الله؟

أغرق في عينيك الحائرتين، تتجلى صورتكِ أمامي كحقيقةٍ واضحة لا يمكن طمسها، أيقنت أنه لا مفر، لا بد من الرجوع، هذا الهروب لن يوصلنا إلى شيء، كلانا يموت بعيدًا عن صاحبه.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(13)

تتشابه أشكال العائدين والضائعين،
كلاهما يبحث عن شيء فقده ذات
يومٍ ولم يجده.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

كدتُ أُفلت الحابول(*) وأنا أسمع كلمة اهرب، ولكني تنبّهتُ قبل أن أقع صريع الخوف:

- ممّ أهرب؟ أين؟ ما الذي حدث؟

- لا مجال للشرح الآن؛ فقط اهرب، هيا بسرعة.

نزلت بسرعة وأخذت حاجاتي التي كان تاج الإسلام قد أحضرها معه وهو يجري نحوي، وركضت إلى الجهة التي أشار إليها دون أن أعلم إلى أين ستوصلني؟ ولا ما الذي تُخبئه لي.

بعد ساعاتٍ لم أُحصها من الركض الذي لا أعلم سببه، سوى أنني إن توقفت سيزجُّ بي في السجن، ثم سأُرحّل إلى بلدي بعد أن أدفع العديد من الغرامات التي لا طاقة لي بها توقفت لأُحصي أنفاسي التي بدأت تتقطع وكأنها تنُبئني بمللها مني ورغبتها في تركي وحيدًا في هذه الأرض القَفِرة، دقات قلبي تتسارع حتى لكأنها ستفِرُّ من صدري كسربِ عصافير فاجأتها بنادق الصيادين التي تهافتت عليها من كل حدبٍ

(*) الحابول: هو حبل يستخدم للوصول إلى أعلى النخلة لجني الرطب.

PDF Eraser Free

وصوب، وقبل أن تعانق السماء تردّت واحدةً تلو الأخرى، فكيف لي أن ألـمَّ نبضي الذي توسّد الأرض يرجوها حفنة ترابٍ قد تسدُّ رمقه، سقطت دُفعةً واحدة على الأرض، ها هو التراب يعودُ إلى التراب، ولكن ليس ككل عودة، فثمة أنفاسٌ ترتعدُ تعبًا، لا تعي مما يدور حولها شيئًا.

أفقتُ بعد أمدٍ والشمس تأكل جسدي نيئًا بعد أن عجزت الأرض عن قليه فاكتفت بتقليبه على نارٍ حامية علّه ينضج وما نضج ولا استوى رمادًا ولا ترك عجزه للريح.

ثمةَ صوتٌ كان يتردّدُ بين الوعي واللاوعي، لم أكن مُتيقنًا بما أسمع، وكأن أمي كانت تردد دعواتها بأن يحفظني الله أينما ذهبت وأن أعود إليها سالمًا ثم تختتمُ دعاءها: أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه. لكم أقسمت أن هذا الدعاء سيعيدني إليها، وأنها إن تركته يومًا فلن تضمن عودتي أبدًا، أتراها الآن تردد: أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه؟

أظنه أبي بصوته الجهوري الذي لم يملّ تلاوة سورة يس كلما أهمّه أمر ولم يجد لنفسه من ضيقه مخرجًا، اِتلُ يا أبي فابنك بينه وبين الموت شعرة مهترئة، شعرةٌ لا ينقصها إلا يدٌ طويلة كيد الشيخ ياسين تمتد لها لتقطفها خضراء جنيّة، أتقلّبُ قليلًا وعصا الشيخ ياسين تجلد ظهري الغضّ لأني لم أبدأ يومي بأدعية الصباح: ـ ولكني لم أحفظها يا شيخ، أعدك أن أحفظها غدًا، غدًا سأرددها سبعًا، ولن أنسى أن أنفُث في وجه الشيطان تعبي.

PDF Eraser Free

- أنا لست لك، هذا ليس سوى حلمٍ أحمق لصبيٍ طائش.

هكذا كانت حورية تُردد بغرورٍ أنثوي أقسى من عصا الشيخ ياسين التي كانت تتراقص على ظهري، وكأنهما تناوبتا على جلْدي، إحداهما تَسْلق ظهري والأخرى تُحرق صدري.

- استيقظ، هيا استيقظ، استيقظ..

فتحت عينيّ، لم يكن سوى غرابٍ يبحث في الأرض ليواري سوءتي فيها ربما، فلا أخَ له يبدو مرميًا بلا فائدة وقد تبرأت منه الحياة ولفظته من فمها الكبير جدًا كفوهةِ كهف اتخذه الجنُّ مجلسًا لكبيرهم ذي الأسنان البارزة، هذا الفم الكبير يكاد ينغلق دوني بعد أن اكتشف جنّيٌ صغير أني دخلت مجلسهم هربًا من شيءٍ أوصاني تاج الإسلام بأن أهرب منه قبل أن يقبض عليّ ويبتلعني، هل سينفعني الآن أن أتساءل: أيهما أرحم؟ أن يبتلعني أحدهم أو يلفظني آخر؟ لا أظن؛ ففي نهاية المطاف أنا الآن مرميٌّ بلا فائدة.

أغمضتُ عينيّ مجددًا، رأيتُ كبير الجن ذا الأسنان البارزة يُمسُك بيده اليُسرى مِنجلًا يكاد يُعمي بصري من شدة لمعانه، بينما كان يتكئ بيده اليمنى على ظهر أحدهم، والذي بدا بدوره منحنيًا كعرجونٍ قديم لم يُخلق إلا للاتكاء عليه، كنتُ محاطًا بخمسةٍ من الجن الشِّداد الغِلاظ الذين لا يعصون كبيرهم ويفعلون ما يؤمرون، هل كانوا حقًا خمسة؟ لا؛ أعتقد أنهم ثمانية فثمة أطياف لم تبدُ لي للوهلة الأولى، فحسبتها ظلالًا، ولكن يبدو أنهم من أولئك الجن الذين لا يظهرون لبشر، أشعر بأن أيديهم تقبض على جسدي بمقامع من حديد،

PDF Eraser Free

الكثير من الصمت الذي لا يخترقه إلا صوت كبيرهم وهو يوشوشُ لصاحبه بين فينةٍ وأخرى، فيذهب هذا الأخير ويعود ويقف في جواره دون أن يخبره شيئًا وكأنه يرى ويسمع ويعلم كل ما يدور خارج حدود هذا الكهف الذي لم أشاهد أوسع منه، يبدو وكأنه عالَمٌ في ذاته، أو مملكةُ لا حدود لها، الأمر الوحيد الذي يجعلها تختلف عن عالمنا هو تلك الفوهة التي تبدو قريبةً من السماء السابعة وأنا في سابعِ أرضٍ لا يمكنني امتداد بصري لأن أحلم بالنفاذ من تلك الفوهة، هل هذه هي الفوهة التي ينفذون منها إلى السماء ليسترقوا السمع فيتبعهم شهابٌ ثاقب، كما أخبرنا القرآن الكريم في سورة الصافات ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾؟ من يدري؛ ربما تكون هي وقد لا تكون، ما يعنيني أنا بهذا الأمر؟ لم أفكر يومًا في ولوج السماء أو التسمّع إلى الملأ الأعلى لمعرفة الغيب، ورغم ذلك فالأقدار تتقاذفني من كل جانب. أخيرًا أتى إليّ اثنان ممن كانوا يحيطون بكبير الجن بعد أن أشار إليهم بيده إشارةً لم أفهمها، وحملاني من تحت إبطي وطارا بي، أغمضتُ عينيّ وأنا أعلو بسرعةٍ لم يستوعبها عقلي البشري، كل شيءٍ بدا صغيرًا فجأة إلا كبيرهم الذي كان يكبر ويكبر كلما ابتعدنا عنه، خرجا بي من تلك الفوهة، الأرض أبعد من مدى بصري، والسماء؟ لم يكن ثمة سماء، فقط فضاءٌ رحيب لا حدود لاتساعه ولا لعمقه، وفجأةً أفلتاني، هويتُ كصقرٍ داهمه الموتُ في عليائه فخرَّ سريعًا نحو الأرض، لم يكن مُباليًا بأي حالٍ ستتلقفه ولا كيف سينتهي به سقوطه، فآخر همه كان عمرًا لم يعد يُزهرُ في السماء، ويورِقُ كنجمة لا تغيب.

PDF Eraser Free

قطراتٌ من الماء البارد تتساقط على وجهي، يبدو أنني اجتزتُ برزخي إلى الجنة، فهذا الماء البارد كثلجٍ لا يمتُّ إلى هذه الصحراء بصلة، أيعقل أن هذه الأشهر الثلاثة تكفّلت بمسح ذنوبي جميعها حتى أعود كيوم ولدتني أمي مُبرأً من كل ذنبٍ، فأدخل الجنة بلا عقابٍ ولا سابقة حسابٍ على تقصيري طوال السنين الماضية؟ صحيح أن أمي كانت تهمس لي دائمًا بأن رحمة الله أقرب من غضبه، وأن دمعة واحدة كفيلة بطمس ذنوب عمرٍ قد يطول إلى ما شاء الله، أتراها دموعي التي سكبتها حين دخولي إلى مسجد القرية أول مرة؟ الماء البارد يسقط مرة أخرى على وجهي، أفتح عينيّ، الصحراء نفسها، أدورُ ببصري؛ ليس ثمة جنة على امتداد بصري، بالتأكيد أنا لست في النار؛ فالنار ليس بها إلا الحميم من الشراب، فما هذا الماء البارد؟ أهو الزمهرير؟ لا أظن؛ فأنا لا أشعر بالبرد، ما زالت الجحيم تحتي، لا بد أنني من أصحاب الأعراف، أقف بين الجنة والنار، فتلفحني النار من تحتي وتصل قطراتُ ماءٍ باردة من الجنة تعينني على احتمال حالي، تساوت حسناتي وسيئاتي إذن؛ الحمدلله، هذا أفضل بكثير من الخلود في النار وأكل الشوك والصديد وشرب الحميم. أُديرُ رأسي باتجاه اليد التي امتدت إلى وجهي بردًا وسلامًا، ليتراءى لي وجهٌ كأن القمر انشقّ عنه، أغمض عينيّ قليلًا مؤمنًا أخيرًا أنني من أهل الجنة فعلًا وما هذا الوجه إلا ملاكٌ خُلقَ من نور، تعود يده لتستقر على وجهي بسلامٍ؛ فأمنحه نظراتي التائهة، ابتسامته القلقة تقطرُ حُنوًّا يمتدُّ منّ يومنا حتى يوم القيامة، يرفع رأسي بيدٍ وبيده الأخرى يسقيني شربة ماءٍ لا أظنني سأظمأ بعدها

PDF Eraser Free

أبدًا، تبدأ الحياة بالانتشاء في عروقي، وتربو الدماء بأوردتي ليتسلل ذلك الوجه النوراني إلى روحي، أرفع يدي لأتلمّس وجهه فأفاجأ بخشونته، يبدو أنني لست في الجنة، فلا أظن أن أهل الجنة بجلودٍ خشنة، وقبل أن تأخذني أفكاري بعيدًا تهادى صوته كمزامير داود في جهوريته:

- هذا المكان لا يعيش فيه أحد؛ كيف وصلت إليه؟

أحاول الإجابة عن سؤاله، ولكن ثقلًا في رأسي يقبض على لساني، أُفلتُ رأسي من يده وأسمح له بأن يستجيب لنداء الجاذبية، لا طاقة لي بمحاربة الأرض والأرضيين معًا، أُبحر ببصري في الفضاء اللامُتناهي باحثًا عن ظلٍّ أتفيأُ ببعضه وأتخذُ من بعضه كوةً أنفذُ بها من ضعفي قبل أن يقضي عليّ، يُكمل الرجل حديثه المُتشكك:

- أنا الوحيد الذي يمر من هنا، بحثًا عن خلايا النحل النادرة والطبيعية لاستخراج العسل الذي قال الله عنه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، فأخرج هائمًا بين الجبال أيامًا عدة لا أعود إلى منزلي، وحين رأيتك هنا شككتُ في كونك إنسيًّا، فلما رأيتك لم تفرَّ من أمامي وأنا أقرأ المعوذات واليسير من القرآن اطمأن قلبي، والآن أصدقني القول؛ ممن أنتَ هارب؟

بحثتُ في طفولتي عن كذبةٍ بيضاء تقفُ صامدةً أمامه وهو ينظر إليّ بعينينِ تُبحران في دمي كرُبّانٍ ماهرٍ أمسك زِمام البحر بيده فتراجعتُ عن تنبيش صندوق طفولتي ذي اللون البني

PDF Eraser Free

الغامق الذي ظلّ يبهت كلما امتدّت إليه يدي الصغيرة لتقذف به مغامرة جديدة أو قصة تقترب من الخيال حدّ استحالة تصديقها، وكم كنت أشعر بالخوف من افتضاح أمري بعد أن فاض بالحكايات التي كانت تملؤه، هذه الحكايات التي ظلّت تتسلق جدران غرفتي الصغيرة فأزهر به عالمٌ كنت أنا فارسه وبطله المغوار الذي لا يُشقُّ له غبار، صندوقٌ أشبه بتابوتٍ صغير، بيد أن الذكريات به لا تموت ولا تتآكل، إنها تظلُّ حية تتعارك فيما بينها أيها يتسيّد الذاكرة، حتى إذا لم تنجح إحداهن في الوصول إلى مبتغاها، أخذت تقاتل أخواتها وكلُّ حكاية تُقتل تترك خلفها الكثير من التفاصيل التي تجعلها تنبتُ من جديدٍ لتملأ فراغًا ما في الذاكرة.

- لا أدري؛ تاج الإسلام قال لي: اهرب؛ فهربت.

هزّ الرجل رأسه بكثيرٍ من الامتعاض:

- يبدو أن تاج الإسلام يُضحّي في كل عامٍ برجلٍ!

مددتُ بصري بتضرّعٍ إلى الرجل لكي لا يصدمني في رجلٍ كنتُ أعدّه من أولئك الذين ترفّعوا عن الحياة فمنحتهم أريجها وخرّت لهم راكعة، ارتجفت مقلتاي، حاولت رموشي طمأنتها بأن تضمّها بين الفينة والأخرى، ولكنه أكمل:

- إنه العام الثالث على التوالي الذي أجد به رجلًا هاربًا من شيءٍ لا يعلم عنه إلا أن تاج الإسلام أتاه لاهثًا وهو يصرخ فيه أن اهرب؛ فهرب في الاتجاه الذي لا يستدلُّ به على طريق عودةٍ.

PDF Eraser Free

أُرسل نظراتي خلفي، ترى من أي جهةٍ أتيت؟ هل كان جريي وأنا أهرب في اتجاهٍ واحد؟ أم أنني احتطت لنجاتي فأخذت أعدو في كل الاتجاهات لأُضيّع أثر خطواتي المتباعدة، حتى إن فكر أحدهم في تتبعي لم تقده حواسه إلا إلى الدوران حول نفسه؟ أنفضُ رأسي بشدة في محاولةٍ يائسة لطرد تلك الأفكار من رأسي، تاج الإسلام الذي مدَّ يده لي حين كنت أملأ رئتيّ برائحة التراب في سجودي الذي طال حتى ظنَّ أنني متُّ في سجدتي تلك، ليخبرني بعدها أن سيماء الأوابين في وجهي لا تخفى على أحد، هل كانت سمات الأوابين أم المغفلين تلك التي أبصرها تاج الإسلام في وجهي؟ تتشابه أشكال العائدين والضائعين، كلاهما يبحث عن شيء مفقود. أتذكر أنني تسلّمتُ راتبي الأخير قبل يوم واحد فقط من هروبي، هل كان ذلك اليوم بالأمس؟ أم أن عمرًا آخر تداخل مع عمري فالتبس العُمران عليّ حتى لم أعد أعي حساب الأيام؟

أنتفضُ كمن لدغته حية في نومه، أنبش أغراضي التي أحضرها تاج الإسلام، راتبيّ الشهرين اللذين كان يصرُّ الشيخ سليمان على نقدي إياهما بالكثير من الحب ـ بعد أن طلبت منه أن يدّخِرَ معه راتبي لشهرين متتاليين ـ المبالغ الإضافية التي منحني إياها كلما أخبرته أنها المرة الأولى لفعلي شيئًا ما، وكم كان سعيدًا وأنا أعترف له بأنها المرة الأولى التي أعمل بها مزارعًا، مباركًا صدقي، أذكرُ مرّة أنه قال لتاج الإسلام الذي تبرّع بإيصال راتبي لي بأن روحه تمتلئُ رضًا كلما رأى سعاداتنا الصغيرة تتماوج في أحداقنا، لذلك يحب تسليمي

PDF Eraser Free

راتبي بيده، وأذكر أنه قال لي إن الصدق أجمل بكثير من أي كذبة نُوهم أنفسنا بأنها تُجمّلنا في أعين الآخرين، وأن الأعين التي لا تحبنا كما نحن بعيوبنا وتشوهاتنا لا تستحق أن ترانا، فلماذا نهتم بتجميل أنفسنا لأجلها؟

كم ضحك العم سليمان كثيرًا حين رآني أفتح الأشراك التي ينصبها تاج الإسلام للعصافير التي تلتقط الحب، وأطيّر تلك التي أوقعها فضولها أو جوعها فيه، واستغرب كيف أني كنتُ أبذرُ لها الحَبَّ بعيدًا عن تلك الأشراك التي ستجعلها عشاءً دسمًا لتاج الإسلام إن هو ظفر بها، وكم كان يستغرب حين لا يجد بالشَرَك ما يكفيه شر جوع ليلته دون أن يبذِّر ماله في جيب المطعم القريب، وقد اعتاد قبل مجيئي اصطياد عشائه دون تعب؛ فأجيبه بأن الطيور فهمت حيلته، حتى الطيور تتعلم، الإنسان وحده من لا يتعلم من تجارب الآخرين، لا بد أن يجرب كل شيء ليتعلم وغالبًا يظل يكرر الخطأ نفسه. يومئذ سألني العم سليمان عن سبب فعلتي تلك فأخبرته أنني أحاول التكفير عن ذنوبي السابقة مع هذه الكائنات الصغيرة الطائرة، فقد كنتُ أتفنن في قتلها وأنا صغير، كنتُ أملك من المهارة ما يجعلني أصيب كل طيرٍ أرغب في صيده بضربة تخترق جسده مباشرة، وكنت كلما عُدتُ إلى منزلي مساءً بحصيلةٍ دسمة من الطيور التي تركت أجنحتها في السماء وخرّت صريعة بضربات مقلاعي الصغير (النشّاب) أتعمد المشي بخيلاء مصطنعة كمحاربٍ أنهى للتوِّ معركته منتصرًا بعد أن قتل جميع أعدائه وجرّ من تبقّى منهم أسرى بحبلٍ يصل في النهاية إلى يده

PDF Eraser Free

المتينة، ولا أدري من أين أحصل على تلك القوة والمهارة التي تجعل أمهر الطيور تسقط بين يديّ دون حِراك؟، ولم أنسَ أن أعترف للعم سليمان بسرٍّ آخر من أسراري التي أُكفِّر بها عن أوزاري التي حملتها على ظهري منذ صغري؛ حيث كنتُ أحاول ادّخار بعض مصروفي لشراء بعض الحمام لأسعد بإطلاق سراحه وبعثه إلى السماء في محاولة يائسة مني لنسيان تلك الأجساد التي كانت تتساقط تِباعًا بين يديّ راجيًا منه أن يبحث عن بعض الأجنحة المنفلتة عن أجسادها وأن يطلب منها ـ إن وجدها ـ أن تغفر لي، ولأستبدل تلك الصورة بأخرى تتطاير بها الأجسادُ إلى السماء بدل السقوط منها، ولكن هيهات؛ يبدو أنني سأظل أتذكر تلك الأجساد المتساقطة حتى اللحظة التي سأرى بها جسدي يطير ويطير ثم يسقط وحده بلا رِفاق ولا حياة.

وضع الرجل البدوي يده على كتفي، فأعادني إلى اللحظة التي أنا بها الآن:

- لا تسمح لأحدٍ بأن يقطف عَرَقَك، انهض وحاول العودة إلى المكان الذي كنت تعمل فيه، وابحث عن تاج الإسلام وخذ ما سلبه منك.

حاولتُ النهوض فلم تُسعفني قدماي، مدَّ البدوي يده وأوقفني ليبدو ظلي صغيرًا بما يكفي لأشعر معه بضآلة حجمي وقلة حيلتي في تلك اللحظة بالذات، خائفًا يلتصق بقدمي ولا يبعد عنها إلا بما يسمح له بتسجيل حضوره إلى جانبي في

PDF Eraser Free

أزمتي تلك، يبدو أن الرجل البدوي عرف بذلك الشعور الذي بدأ بالنمو داخلي، فرسم عدة خطوط على ما أطل برأسه من ظلي، ثم أزاحني قليلًا عن مكاني، فابتعدتُ وظلي وبقيت الآثار مكانها:

- أرأيت؛ حتى ظلالنا الصغيرة لا تسمح للجراح بأن تترك ندوبها عليها، اِمضِ حُرًّا، مُعافىً من كلِّ جرح، ولا تسمح لأحد بأن يترك ندوبه على روحك.

ابتعد البدوي وتركني بعد أن أوصلني إلى الطريق الذي قد أستدلُّ به على طريق عودتي أو أمضي منه إلى بدايةٍ جديدة، افترشتُ أمتعتي التي عادت كما كانت خاليةً إلا من بعض قطع الملابس التي أستغلها لستر جسدي كي لا أكون عاري الروح والجسد معًا، أخذتُ أقلّب الطرق بناظري وأنا أفكر قبل اتخاذ قرار العودة في استرجاع تعبي من تاج الإسلام، أو نسيانه والبحث عن روحي في مكانٍ آخر قد يكون أكثر أمنًا للمكشوفين أمثالي، كانت الشمس تميل إلى الغروب وكان علي اتخاذ قرارٍ سريع أو البحث عن ملجأ آوي إليه قبل أن يباغتني الليل ولا أجد من يخبئني من وحدتي.

وقفتُ وحملتُ أمتعتي ومضيتُ والشمس خلفي تُلوِّحُ لي تسألني عودةً أو مودعةً رُبما، فمن أنا حتى تسألني الشمس عودة مع الفجرِ، وماذا قد يغير وجودي من عدمه في هذا الكون المتنامي في الاتساع، وهل سيتغير نظامه بسقوط رجل أو قيام آخر؟ بالتأكيد لا؛ التفتُّ إلى الشمس ولوّحتُ لها

PDF Eraser Free

بابتسامة لا أدري كيف أتت من قلب التعب كأغنية قديمة طالت كثيرًا ورغم ذلك لم يملّها المستمعون، هل تذكرين كيف كنتِ تعشقين أغاني عبدالحليم وأغنية (زي الهوا) بالتحديد؟ أتراكِ كنتِ تُلمّحين لي بأنك كالهواء لا يمكن التشبثُ بكِ ولا الاستغناء عنكِ أو الاكتفاء بك؟ أستشعركِ ولكن لا يمكنني لمسكِ أو رؤيتكِ أو ملء قبضة يدي منك كما هي رئتي ملأى بك؟ هل كنتِ حقًا تشبهينه في سخائه وهو يدخل روحي ليُحييها ويخرج ليُحافظ على الحياة بداخلي أيضًا، أم أنكِ لا تشبهينه إلا في كونكما ـ أنتِ وهو ـ تمنحان الحياة إن أقبلتما، وتسلبانها إن أدبرتما، لماذا كنتِ ترددين هذه الأغنية دائمًا وتضحكين حين تصلين إلى المقطع الذي يقول:

(رميت الورد

طفيت الشمع

يا حبيبي)

هل كنتِ تتخيلينني وأنا أرمي روحي أمامكِ لتدوسيها بكعبكِ العالي وتمضي بعد أن تتمتعي برؤيتها تلوذ بالأرضِ ولا منجى ولا ملجأ منكِ ولا حتى إليكِ.

لماذا وأنتِ تدّعين أني لا أعنيكِ تهتمين بفعل كل ما من شأنه أن يجعلني أحبك أكثر وأتعلق بكِ أكثر؟ أيّ غرورٍ هذا وأيّ أنانية تسكن داخلك؟ لماذا أراكِ الآن تستمتعين بوجعي وتضحكين لدمعي؟ أراكِ وأنتِ مزهوّة بنفسك والقلوب تترامى صرعى تحت قدميك، أيّ روحٍ تقبع كلبؤة بين أضلُعِك، تنهشُ كل من يحاول الاقتراب منكِ.

PDF Eraser Free

أذكر آخر عيدٍ كنت به معك، سألتني ليلة العيد:

- ترى كيف سأبدو غدًا؟

كنت على وشك أن أخبرك كم ستبدين فاتنة، ولكنكِ بادرتِ بالإجابة:

- سأكون فاتنةً بلا شك! أليس كذلك؟

ثم نظرتِ إليّ بعينين متوهجتين غرورًا ـ كنت أظنه عشقًا ـ فابتسمت:

- طبعًا فاتنة، بل طاغية الحسن ستكونين، من يتجرأ على قول غير ذلك؟ تعلمين أن لا أحد يشبهك، وأنكِ دون نساء الأرض تنفردين بهذا الجمال.

وابتسمتِ، فابتسم معكِ كل شيء، قلبي وروحي والأرض والسماء والأشجار والعصافير ونهر النيل، حتى أنه من فرط ابتسامته نام ليلته هادئًا كمن كان يتأرجح بين قمرين.

كل خطوة كانت تُبعد الشمس أكثر وتقرّبني من الظلام أكثر، وأنا كنتُ أحثُّ خطوي علّني أجدني في بُقعةٍ ما من هذه الأرض التي تطويها قدماي طيًّا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(14)

للذكرى بوابة لا يمكن إغلاقها، ثمّةَ ثقب تنفذُ منه دائمًا إلى الروح.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(متعلقة بك؛ وكأنك بِضعي المخلوق مني، أو كأنك الحياة نفسها، مولعة بك حد المرض، وكأنهم للتو أخبروني أني مصابة بداء عضال لن أشفى منه فابتسمت؛ لأني تيقّنت أني سأعيش معك وأموت بك، سنتنفس معًا ونتألم معًا ونخلد للراحة بين دقائق الوجع معًا، حتى الساعات التي سأفقدُ فيها الوعي ستكون معي، هل تعلم ما معنى ذلك؟ يعني أنه لا مفر لي منك إلا إليك، ولا مفر لك مني إلا إليّ، ورغم ذلك تقتلني هذه المسافة التي ما زالت كسكينٍ تقطع الحبل الذي وصلنا يومًا، ذاك الذي لم يكن كخيط العنكبوت وَهَنًا، ورغم ذلك لم يصمد، أعلم أنني من مد يده ليمزقه، غبية كنت، جاهلة بما أريد، أعترف أنني لم أكن أعلم، لم أكن أفهم، لم أكن أعي ما أفعل، فعلت ما فعلت وظننتُ بأني أتبع سعادتي وأمنياتي وأحلامي حتى تعثرتُ بها مرة واحدة، اعتدت أن تتلقّفني يدك كلما سقطت، ولكنني هذه المرة لم أجدها، بحثت عنها في كل الاتجاهات، كأمٍّ فقدت طفلها في يوم الحج الأعظم، جرفته الحشود قبل أن تنتبه ليده التي أفلتتها، منذ ذلك اليوم وهي تبحث عنه، وأنا أبحث عنك، وكلانا لم يجد ضالته. تخيل أن هذه المسافة الفاصلة بين جسدينا تفصل يومًا بين قلبينا وروحينا، عُدَّ معي: كم وردة ستذبل؟ وكم

PDF Eraser Free

طائرًا سيسقط جناحاه؟ وكم ليلة لن يجري خلفها فجر؟ وكم عمرًا سينتهي في اللحظة التي كان يخبئ فيها ضحكاته للغد، ويرحل قبل أن يأتي الغد بضحكاته؟

أحبك؛ ليتك تُصدِّق أن كل شيء بخير طالما أن هذا القلب يحيا بك ويدسك في قطع الحلوى التي يهديها إلى الأطفال علهم حين يكبرون يملأون الأرض حبًا وسِلْمًا، ليتك تمنحني فرصة النطق بها مرة واحدة، وتترك لعينيّ فرصة تكملة الحديث الذي لم نُكمله يومًا لأننا لم نبدأه ربما كما ينبغي، اقرأها ولو مرة واحدة في عيني فإن لم تصدقني فارحل مرة أخرى، وإن صدقتها؛ اغرس في فناء بيتنا زيتونة لا شرقية ولا غربية، تضيء حبًا كلما رويناها، وتوقد من زيتها منارات المآذن والكنائس والمعابد ليهتدي إليها العميان والعشاق، ولا ترحل، أبدًا لا ترحل إلا ويدي في يدك).

أقرأُ رسالتكِ للمرة التي لا أعلمها، أضعت العدَّ في مشوار النسيان، ولم أنسَ، خذلني قلبي واختار البقاء معك، أين أخبئ وجهي من الحزن؟ كيف يمكن لشفتيّ ألا ترتعشا حين يذكرك أحدهم وأنتِ لم تتركي موضعًا في قلبي لا يحمل جراحك؟

خمسةُ أعوامٍ وكلما عبرتِ أمامي كصخرةٍ أتعثَّرُ بها في الأرض أو ليلةً تبرأت من قمرها أو موجة عاتية وأنا في قارب مطاطي أترك جسدي لقشعريرة سوداء تتلبَّسه وأختبئ داخل جلدي ولا أجدني، وحدك تظهرين لي خلف كل خط في يدي وفي داخل كل نسمة هواء تعبر صدري فأتلو تعويذاتي ليتخللها اسمك مع كل حرف حتى أنتهي بك إليك، لو تعلمين كم هو صعبٌ هذا البعد الاختياري، أن أرسم المسافات وأعبرها جريًا دون توقف، أن أشير إلى أول قطارٍ لا يتوقف

PDF Eraser Free

إلا مرة واحدة، يقف ليأخذني ثم يمضي، أرجوه أن يتوقف فلا يفعل، يظل يوغل في الطرق اللامتناهية ولا يصل إلى مكان، يُخيل إليّ من فرْط سرعته أن الأمكنة تغادره ولا يغادرها، كلاهما لا يعرف الآخر ولا يذكره، ألتفت حولي، لا ركاب سواي في هذا القطار الراحل، إلى أين يمضي بي؟ حقًا أنا لا أعلم! الشيء الوحيد الذي أعلمه وآسفٌ جدًا عليه أنني أنا من اخترت الركوب به، أنا أيضًا لم أكن أعلم أني سأنتهي بي إليك، وأنك لن تعبري صدري إلا إلى روحي، لم أكن أعلم أن النهايات ليست إلا بدايات أخرى أشد ألمًا وأقسى أثرًا، وأن الرحيل بوابة لا يُمكن إحكام إغلاقها، ثمة ثقب تنفذ منه الذكرى دائمًا كضوءٍ لا يمكن تجاهله لمن تحيط به العتمة. كبريق هذا الذهب الذي يملأ عشرات المحالّ حولي، أغلب روادها من العمانيين، وجميع أصحابها ممن يعرف أول ناظرٍ إلى وجوههم أنهم ليسوا كذلك رغم الملابس التي يرتدونها والتي تشبه زي أصحاب الأرض، فإذا اقتربت منهم وحدثتهم محت لكنتهم ذلك اللبس الذي اعتراك لوهلة، هذه اللكنة التي لا تمتُّ إلى العرب بصلة وإن حاول أصحابها الانتساب إليهم وإلى العمانيين بشكلٍ خاص، وأظن أن بعضهم مُنح الجنسية للسنين التي قضاها هنا يعمل ويكدح ويبني ويُعمّر آخذًا في اعتباره مصلحة هذا الوطن ومتجاهلًا عن قصدٍ مصلحته الخاصة وحساباته البنكية التي تكاد تفيض وتغص بها البنوك المحلية والدولية عفوًا أقصد التي لا تنمو أبدًا ولا تتضاعف والتي يعرف الجميع ـ يقينًا ـ أنها فارغة تمامًا، يضحك صاحبي حين أبدأ بترديد هذه الإسطوانة الفارغة ـ كما يصفها ـ وإن كنت أراها غير فارغة بتاتًا ـ كما أردُّ عليه ـ رغم

PDF Eraser Free

أن لا أحد يستمع إليها ورغم أني كمن يحدث نفسه فلا يسمعه سواه وصاحبه الذي يُعلي ضحكاته حين سماعه. مازلت لا أفهم سر امتلاك هؤلاء وسيطرتهم على محلات الذهب، لم أرَ عمانيًا واحدًا يقف خلف تلك الكابينات المتقلدة بالسبائك الذهبية، أخبرني أحدهم وهو صاحبي نفسه الذي يضحك دائمًا على أفكاري الثورية كما يقول، ولا أدري هل يقصد بالثورية تلك الكلمة المُشتقَّة من الثورة ـ والتي بتنا نسمعها كثيرًا ولا نرى لها أثرًا يُذكر سوى الموت والدمار وتفكك الأوطان وعدم عودتها كما كانت أبدًا ـ أم تلك المأخوذة من ذلك الكائن ذي القرنين لا بد أن صاحبي يعرفه جيدًا.

عكس هذا الحال كانت نزوى، حيث جميع المحلات يملكها العمانيون، رأيت ذلك حين ذهبت إليها بعد أن افتتح بها الحاج صالح فرعًا جديدًا لمحل العصائر، وكنت أحد الاثنين اللذين اختارهما لإدارة الفرع الجديد بنزوى قبل أن يقرر الرحيل نهائيًا من هنا، ويقرر المالك الجديد الوحيد للمحل طردي لكي لا يتورط في تشغيل مقيم غير شرعي، فخيرني بين الرحيل أو تسليمي إلى الشرطة، فاخترت الرحيل، في البداية احترت أين أذهب، ولكنّ عودي الذي قوِيَ وجّهني صوب القرية التي هربت منها يومًا دون جُرم، كان لا بد من فهم كل ما حدث، مواجهة تاج الإسلام، وكشفه أمام العم سليمان، بصعوبةٍ كبيرة استطعت الوصول إلى القرية، لم أكن أظن أنني سأعود إليها يومًا أو حتى سأتمكن من الوصول إليها وإن حاولت ذلك، ولكن الإرادة تصنع المعجزات، وفعلتها، وصلت إلى المزرعة، وهناك وجدت العم سليمان على حاله يجلس على حصيرٍ من السعف، متكئًا على جذع شجرة السدر

PDF Eraser Free

المعمِّرَة والنمل يمشي على قدمه، بينما تنقر الطيور حصتها اليومية من الحبوب التي رماها لها، وأخرى تتلذذ بثمار النبق المتساقطة من شجرة السدر. قبل أن يستقر بجلسته تلك، بادرته بالتحية والانحناء لتقبيل يده ورأسه، كعادة أبنائه معه، نظر إلي بعينين غير مصدقتين، كمن يرى شخصًا لم يتوقع أن يراه مرة أخرى، نسي النمل الماشي على قدمه وهبَّ واقفًا يتفقّدني والمفاجأة بادية على وجهه، تنطق بذلك عيناه المتسعتان على آخرهما، وشفتاه اللتان انفرجتا دون صوت، وضع يديه على كتفي ومضى يضغط على يديّ من أعلى الكتف إلى أظفاري وكأنه يتحسس حقيقتي:

- لِمَ هربت؟

وأشاح بوجهه الممتلئ بالحزن والعتب عني. اختنقت كثيرًا قبل أن أبدأ بسرد ما حدث معي، توضيح الخدعة التي تعرضت لها، لم أسمع منه أي كلمة تنم عن سخطه أو حتى رضاه عما حدث، كان يكتفي بالاستماع إليّ، الاستماع المجرد من أي ردة فعل تشعرك بأنك تُحدِّث شخصًا يسمعك، ارتبكت من صمته، سألته:

- عمي سليمان، هل تسمعني؟

- تعال معي.

أخذني من يدي وجرّني خلفه كطفلٍ صغير، وصلنا إلى الغرفة التي تقاسمتها يومًا مع تاج الإسلام:

- بعد اختفائك المفاجئ بأسبوعين، وحين كان تاج الإسلام منشغلًا بجزّ القت (البرسيم) لإطعام المواشي كسر أحدهم قفل باب غرفته وسرق كل ما فيها، كاد

PDF Eraser Free

يُصاب بالجنونِ أو أُصيب، أخذناه إلى عدة مستشفيات، جميعها أجمعت أنه يعاني صدمة عصبية، وهو كما تراه يتحدث مع نفسه طوال الوقت، لا يرد على أحد، إن أحضرت له الطعام أكل وإن لم تحضره له صام دون أن يشكو جوعًا أو عطشًا، فكّرتُ في تسفيره ولكنه أبى، حين حجزت له في المرة الأولى حجزت لأحد رفاقه معه ليتكفل بتوصيله إلى أهله، ولكنه غافلنا في المطار وعاد إلى الغرفة، وبعد بحثٍ مُضنٍ عدنا لنجده هنا على حالته هذه، بعد فترة حجزت له مرة أخرى وحجزت لاثنين معه يتكفّلان بمرافقة خطواته خطوة خطوة ولكننا لم نتمكّن حتى من إدخاله السيارة التي ستوصله إلى المطار، أخيرًا استسلمت وتركته يبقى هنا، ولكنني أخشى أن يصيبه مكروه وهو بحالته هذه.

اللهُ عَدْلٌ يا بني، إنه العدل، هذا قَصاصُ ما فعله معك ـ والتفتَ إليّ ـ أخبرني عن أحوالك؟ كيف مضت أشهرك الأخيرة؟ هل تعمل؟ أين تعمل؟ هل أنت مرتاح بعملك؟ هل يوفونك حقك؟ هل يزعجك أحد؟ هل اشتقت إلي؟...

واستمر العم سليمان في طرح الأسئلة دون أن ينتظر أجوبتي، وحين أتعبه الكلام صمت، فأجبته بعد أن تخليت عن ابتسامتي التي رافقت أسئلته، أخبرته بعملي مع الحاج صالح، وتخلي صاحب العمل الجديد عني باعتباري مقيمًا غير شرعي، أسف لحالي وتمنّى لو أني لم أهرب، لكان سلّمني المزرعة وأعمالها، أما الآن فهناك عامل آخر بالمزرعة حلّ محل تاج الإسلام، ولكنه وعدني بأنه سيبحث لي عن عمل، ولن

PDF Eraser Free

يتركني أغادره قبل أن يعرف وجهتي التالية ويضمن أنني لن أشقى بعده أبدًا.

وها أنا هنا في قلب العاصمة بتوصيةٍ من العم سليمان، في المدينة البحرية الساحرة (مطرح) بمينائها الممتد كليلةِ فراق، والسفن الراسية كحراس تُسلّي ليالي البحر الغافي أمامها، بالجبال التي تحيطها كطوقٍ أمني يتكفل بحمايتها، بقلعتي الجلالي والميراني اللتين بناهما البرتغاليون ليتخذوهما حاميةً لهم أثناء استعمارهم لعمان، يقول صاحبي إن هناك سردابًا تحت مياه الخليج يربط بين القلعتين، هل هو البحر من أحضر الغرباء إلى هذه المدينة وجعلهم يستوطنونها ويتخذون منها مركزًا لتجارة الذهب، وهل هي المدينة الوحيدة التي يسيطر عليها الأغراب في هذا البلد؟ أم أن هناك مدنًا أخرى وتجارات أُخر؟!

الكثير من الحكايات يرويها أصحاب المحال الصغيرة عن الهوامير هنا ـ كما يطلقون عليهم ـ ولا أراهم إلا حيتانًا ابتلعت الهوامير والسردين والبشر في طريقها نحو السطح، فعبرت السطح وتجاوزته نحو السماء وهي تلقف كل ما يمر في طريقها، عن أي هواميرَ يتحدث صاحبي ومن هم بطيبته؟ الهوامير لا يأكلون البشر وهؤلاء أكلوا الأرض وما عليها ولم يتركوا أخضر ولا يابسًا لم يأتوا عليه.

ـ لماذا أنت غاضبٌ هكذا يا مختار؟ وكأن الأرض هذه أرضك والبلد بلدك وهؤلاء سطوا عليك، يا صديقي هؤلاء كانوا هنا قبلك، ولست سوى غريبٍ تشرّد هنا وهناك في هذا البلد، ولا بد من يوم يحملك إلى

PDF Eraser Free

وطنك، ماحيًا ما كان لك هنا من ذكريات.

لا يعلم صديقي أن عامًا آخر سقط هذا اليوم مع أعوامي المُثقلة بالخيبات، عامًا ليس لي منه سوى فقده من جملة العُمر، عامًا لم يُثمر إلا فقدًا، يظن صديقي أنني يمكن أن أنسى سنيني التي نفضتها هنا، ولا يعلم أنني وقفتُ أمام المرآة طويلًا هذا الصباح وأنا أطوي عامي الحادي والثلاثين وأركنه على رفّ ذكرياتي ليلتهمه النسيان يومًا ما، لأحسب عدد الشعيرات البيضاء التي بدأت بالتهام ما تصلُ إليه من شعري الفاحم السواد، وكأنها كانت تتسابق أيها يقدُّ شبابي قَبْلًا، إنها المرة الأولى التي أصاحب فيها المرآة وأسألها أن تصدُقني، أن تساعدني على عدّ ما لم أتمكن من عدّه وحدي، أقفُ عاجزًا عن الإجابة عن السؤال النابت برأسي: لماذا يشيبُ الغرباءُ باكرًا؟ أفرك السؤال برأسي ليستوي شعري النافر بالكثير من العناد، وأرتدي ملابسي التي أعطاني إياها الشيخ منصور، نحولي المتزايد جعل الملابس التي امتلكها قبلي شابٌ يصغرني بستّة أعوام غادر حياتنا بعد استلامي العمل مع أبيه بستة أشهر وهو في السنة الأخيرة من دراسته للطب تبدو فضفاضة بشكلٍ لافت، وكأنها كانت تقول لي: أنا لستُ لك، كما قلتِها أنتِ لي قبل خمسة أعوام، يتشابه وقع الجُمل على النفس رغم اختلاف الأشخاص والأشياء، ورغم ذلك ومجاملة مني للشيخ منصور أرتدي ملابس ابنه ولو علمت أمي بفعلتي لماتت قهرًا، أنا الذي ما ارتديت منذ ولادتي إلى لحظة قدومي لعمان غير الجديد من الثياب وجميلها.

يحدث أحيانًا أن تشعر أن كل شيء على ما يرام، أن تكون قاب قوسين أو أدنى من الجنة، فتتعثر فجأة بحزن عظيم

PDF Eraser Free

يخلع قلبك، يوردك الموت من حيث لا تحتسب، هكذا يتهاوى الشيخ منصور بعد أن صُدم بمرض ابنه المفاجئ بعد فوات الأوان، الابن الذي يستعد للتخرج في كلية الطب بمعدل امتياز، الرافع رأس عائلته عاليًا، أمل الأسرة وفخرها، الطبيب الذي سيعالج الناس بدءًا بالغريب وانتهاءً بأصغر طفلٍ في عائلته، يسقط فجأة عاجزًا عن مد يد العون لنفسه، ويعجز الطب نفسه عن منح أهله أملًا في شفائه أو بقائه على قيد الحياة، ليترك الزمن أثره على أبيه، وقد كان يرى عظيم أمنياته في ابنه الطبيب، يرجع بظهره على كرسيه الوثير ويبتسم برضا كبير كلما أتى مرتديًا روب الطب، وينادينا جميعًا:

- الدكتور وصل، تعالوا سلموا عليه.

صدمته بمرضه الذي أُكتشف متأخرًا كانت تُضاهي فخره بابنه، إن لم تكن أكبر، لم يعرف ما يفعل حين وصله خبر سقوط ابنه في الجامعة فجأة، ودخوله في غيبوبة، تبين بعد الأشعة أن ابنه مصاب بسرطان في الرأس عجز معه مخه عن تسيير أعمال أجهزة جسمه المختلفة ليتمكن من مواصلة الحياة ولا أمل بشفائه، كان الابن الطبيب شفوقًا على أبيه بحيث لم يتجرأ يومًا على إخباره بالألم الذي يباغت رأسه حتى يكاد يُفقده وعيه، فينزوي في غرفته يكيل لمعدته الحبوب المسكنة وتلك المهدئة لأوجاعه، حتى يغافله النعاس بعد ليلة أرقٍ طويلة يصارع فيها الوجع غير المحتمل، فإذا حل الصباح انتفض من نومه ليرافق أباه إلى المسجد يشاطره أجر صلاة الفجر، ولكي لا يلحظ أبوه جسده الذي بدأ ينحل فجأة كان يتناول وجباته مضاعفة، حتى إذا ما اشتكت معدته من عدم

PDF Eraser Free

الاحتمال استفرغ ما كاله لها، هذا ما عَلِمَه الأب لاحقًا من صديق ابنه الوحيد الذي اشتكى إليه يومًا ذلك الصداع المقيت، واستحلفه بالله وكل عزيزٍ لديه ألا يُفضي بسره إلى أحد خشيه أن تحمله الأفواه إلى أبيه فيؤلمه، حتى أنه رفض أن يخضع لأي فحوصات تنبئه بحاله، فأي ورقة فحص طبية قد يراها أبوه تعني قلقًا لا حدَّ له وهو ما لا يحتمل أن يرى أباه عليه، ثلاثة أسابيع كان الموت السريري حاضرًا في جسده فكانت كفيلة باستسلام الأب والموافقة على نزع الأجهزة وترك ابنه للأطباء ليكملوا مهمة إخفاء وجهه خلف البياض الذي طالما كان حلمه وحلم أبيه، وشتّان بين البياضين.

الشيخ منصور رجل طيب معطاء يستحق كل خير، موت ابنه ما زاده إلا نبلًا، أصبحت ابنه وعاد معه أبي إلى الحياة، كيف لا وأنا وصية العم سليمان له، الفرق الوحيد أنني لم أعد صغيرًا ولن أتسلق كتفه لألمس السماء أو أشاهد منازل المؤمنين في الجنة، ولن أبكي كلما شعرت بالضعف، فيمسح دمعي ويقول بصرامة:

- الرجال لا يبكون يا مختار؛ وأنت رجل.

أصبحت لا أبكي يا أبي، أخجل من البكاء خشية أن يربت الشيخ منصور على كتفي فأرى أثر الدمع في يديه قد خط طريق النهاية.

أستمرُ في تنجيد المقاعد المستعملة لتبدو جديدة مرة أخرى، عملٌ ليس بالسهل أبدًا، ولكنه ليس صعبًا أيضًا، ما المشكلة في كونك مهندسًا معماريًا وينتهي بك الحال لتنجيد المقاعد المستعملة؟ لا مشكلة أبدًا، المهم أن تضمن ألا

PDF Eraser Free

تجوع غدًا، وأن تمد يدك نهاية كل شهرٍ لتستلم حفنة من المال يُقال إنها أجرة تعبك، أن تدّخر أغلب الراتب وترسله إلى أهلك فيتنعموا بأغلبه ويوفروا لك جزءًا منه ليبحثوا لك عن عروسٍ تليق بمهندسٍ يعمل في دولة نفطية تستخرج المال مع النفط ويقبضه أصحابها في أياديهم كما يقبضون على الرز- كما قال السيسي أو كما يظن الجميع ـ هذا الرز الذي يتجمّع حوله الحمام من المتسولين، سواء كان هذا التسول حيًا ينتشر في الشوارع أو الكترونيًا بين مريضٍ يبحث عن أجرة علاج أو غريب لا يجد ما يأكله، فيتجاهل أرباب المال تلك النداءات، ويتهافت البسطاء بنثر الرز ليتزايد أسراب الحمام يومًا بعد يوم، أن تضحك عليك ومنك ولا تعرف الفرق بين الضحكتين فكلاهما مُرة. المقاعد هذه المرة شبه جديدة ولكن يُعاد تنجيدها من باب التجديد وتغيير ديكور المنزل لتتغير نفسية أصحابه، فربما أصابهم الاكتئاب من الملل، أعود وأضحك عليّ ومني فأنا منذ خمسة أعوام أغير الغرف ولا تتغير المساحات، ما زالت أكبر غرفة قطنتها مطمئنة للمساحة ثلاثة في أربعة، وما زلت أتشارك في هذه المساحة الواسعة مع الكثير من الحكايات، كل وجه يحمل حكايته في عينيه ويغمضهما عليها كل ليلة، وربما رواها للرفاق قبل أن يناموا لكي تطيب ليلتهم ويضمن أن يخاصمهم الأرق.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(15)

أنت لا تعرفُ قيمة الحياة إلا حين
تقفُ أمام الموت وجهًا لوجه.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

أرغب في البكاء، بشج قلبي بحجر علّه ينفطر وما فطره كل هذا الموت حوله، أنظر إلى عبدالله الذي ما زال يهذي ولكني لم أعد أسمعه، أمسى هذيانه أشبه بالتمتمة، بصوتٍ لا يُغادر صاحبه، يترجرج بين شفتيه ولا يخرج، يحرك يديه والكثير من الملامح تتغير على وجهه وكأنه يخاطب شخصًا يراه وحده، سامحني يا الله؛ لأني الآن أتفرّجُ فقط، فأنا لا أملك الشجاعة لأن أحمل حزامًا ناسفًا أُفجرُّ به نفسي مع ألف خائن، ولا أملك أن أنشطر إلى ألف رجلٍ يلف كلٌّ واحدٍ منهم حول صدره حزامًا ناسفًا يقتل به ألفًا، ثم لا بأس بأن يموت. أرفع يدي إلى السماء وأسأل الله أن يمنحني يده:

- امنحني يدك يا الله؛ لأمسح دموع النساء والأطفال وقبلهم الرجال، فدموع الرجال لا تأتي من خوفٍ ولا من حزن ولا من ضعف، إنها تأتي من قهر، وقهر الرجال قاتلٌ يا الله.

امنحني يدك لأسقي من بات ليلته تجلده الحمى ولا رشفة ماءٍ تُطفئ جذوة سعيرها أو قطرة دواء تسعفه.

امنحني يدك لأخنق الحرب فلا تغافلنا لتخطف

PDF Eraser Free

الأطفال من مُهدهم وقطراتُ الحليب لا تزال دافئة على شفاههم الباردة.

امنحني يدك لأخبئ البنادق والسيوف والمدافع وقاذفات الصواريخ وكل ما اخترعه البشر ليمارسوا الموت على الطرقات.

امنحني يدك وخذ يدي فقد مللتُ ضعفها وانكسارها وقلة حيلتها.

امنحني يدك، أنا أستغيث بك؛ فأغثني وامنحني يدك.

يُربِّتُ عبدالله على كتفي، وأقسم أنه أحوج مني لمن يُربِّت على كتفه مني، ألتفتُ إليه فيبتسم:

- كان يومًا مُتعبًا، أعتقد أننا بحاجة لأن نخلد إلى النوم، غدًا لديّ عمل مضاعف ـ ويبتسم ـ والأجر سيكون مضاعفًا أيضًا ـ تنطفئ ابتسامته ـ هذا يمنح فرصة جديدة للحياة ـ يبتسم مُجددًا ـ

أنظر إليه وابتسامته الطافية على وجهه وكأن الدنيا لم تنل منه ما تشاء وتتركه قشةً في مهب الريح تتقاذفه حيث تشاء، سرقت زوجته وطفلته وأباه وابنه الذي لم يره، ذهبوا جميعًا في ليلة تساقطت بها النجوم ولم تنجح كفا يارا في لمها ووضعها في صندوق لعبها الذي صنعه لها جدها من خشب شجرة السدر النامية خلف منزلهم في ضواحي عدن الجميلة.

تعلمت من عبدالله الكثير، وأهم ما تعلمته منه التصالح

PDF Eraser Free

مع نفسي، والتسامح، أن أغسل قلبي كل ليلةٍ قبل أن أنام ليزورني النوم سريعًا، لم يكن الأمر سهلًا قط، ولكنها الأيام كفيلة بتعويدي ذلك ـ هكذا يردد عبدالله ـ ثم يضع يده على قلبه ويغمض عينيه ويدعو:

- اللهم امنحني قلبًا آخر أُكمل به الحياة.

يأخذني من يدي وندخل لننام مع بقية الرفاق، جميعهم يغط في أعمق بقعةٍ يعرفها النوم، وحدي وعبدالله اعتدنا السهر والسَمَر قليلًا، كل ليلةٍ قبل أن ننام نتحدث بما يؤرقنا من ماضٍ لم نتجاوزه، ماضيَّ البعيد وماضيه القريب، ورغم ذلك أجده أقدر مني على الابتسام والتعايش مع وضعه، أحيانًا لا أصدق أن هذا الرجل خرج مطحونًا من رحى الحرب، ولكنه يجيبني بابتسامة هازئة:

- حين ترى الموت يا صديقي تُدرك أهمية الحياة. وأنا لم أرَ الموت فحسب، بل أخذ أحبتي جميعهم وأشاح بوجهه عني وكأني كلبٌ أجرب ينفر منه حتى الموت.

أخبرني يومًا عن أمه التي كانوا يقولون إنها ليست بكامل قواها العقلية:

- كانت تأتي إلى المدرسة بشكل شبه يومي، يعرفها الجميع، ويتضايق من تدخلها الجميع أيضًا، يجدونها في المدرسة قبل أن يرن الجرس معلنًا نهاية الدوام لتعلن بحضورها نهاية التعب لأطفالها الذين يخجلون منها ـ وأنا أحدهم ـ لأنها تجعل الأطفال يتهامسون عن وضعها

PDF Eraser Free

الصحي وبأننا أطفالٌ ما زلنا بحاجة لرعاية ووصاية من امرأة مجنونة، أحيانًا نكون على وشك التصديق والتسليم لجنونها لولا ذلك الحب الذي تمنحنا إياه وتغمرنا به، كيف تكون مجنونة تلك التي لا تأكل الزاد إلا بعد أن تُرسل منه إلى جيرانها خشية أن تكون رائحته قد تسللت إلى منزل أحدهم؟ مرددة دائمًا بأن النبي أوصى على سابع جار، تلك التي كلما قاض النخيل لم تأكل منه إلا بعد أن تُرسل منه إلى كل منزل في الحارة، وحين أرجوها بأن تذوق ولو حبة واحدة ترد:

- كيف يطيب لي تذوقه وطفلٌ ببيت جاري يشتهيه؟

ربما تعلمت هذا الأمر من أبي فقد كان يفعل الشيء نفسه، وربما كان هو من تعلم منها.

يرونها ناقصة عقلٍ ونراها مكتملة حب، لم نتخيل يومًا أن ترحل عنا على حينِ غفلة، أن يرن جرس المدرسة ولا نجدها بانتظارنا أمام باب الصف، كيف لها أن ترحل سريعًا دون أن تودعنا؟ قالت لي: سأعود سريعًا ولكنها لم تعد، خطفتها سيارة غفلت هي عن الالتفات نحوها أو ربما لم ترها لأنها كانت تفكر كيف ستطعمنا وأبي مسافر لم يعد بعد ولم يرسل إليها المال الذي اعتاد أن يرسله إليها بداية كل شهر، ولا شيء يطمئننا إليه إن كان بخير أم أصابه بأس؛ فلا هاتف ولا وسيلة تواصل سوى الرسائل التي تصل كل شهرٍ أو شهرين، رحلت واكتفينا نحن بمعانقة المعزيات والجاراتٍ إلى أن عاد أبي، كان قد اشترى لها ثوبًا جديدًا خبأه بعدها لأختي

PDF Eraser Free

الكبيرة لترتديه عندما تكبر، وحين ارتدته لم نتجرأ على مناداتها: أمي.

- لا بأس؛ الجميلون يرحلون باكرًا، هكذا أجتر حروفي مواسيًا له، وأعلم أن كلامي لن يغير شيئًا بداخله، مؤمنٌ أن الأمهات خُلقن من طين الجنة، ولا علاقة لطين الأرض بهن، أؤمن تمامًا أنهن خرجن بشكلٍ ما من أصلاب الملائكة بعد أن حبلت بهن أرحام الحوريات، لا تؤاخذني يا الله حين أفكر أن الأمهات هن الأولى بخلافة الأرض فقلوبهن الرحيمة قادرة على شطب الحروب من كل الخرائط الأرضية، وهن الوحيدات القادرات على تفتيح الورد من بتلات القنابل.

أخبرته في المقابل عن أبي وكيف أن العيد كان يمر عليه دون أن يفصل له من الثياب جديدها لنفرح نحنُ بالعيد؟ عيده كان ضحكاتنا التي تتسابق لحضنه، وفرحتنا المتلألئة بأعيننا مصابيحه كلما أظلم الهم لياليه ـ هكذا أخبرتني أمي حين كبرت ـ كما أخبرتني عن أسوأ يوم مر عليه في حياته، حين فقد محفظته بعد استلام راتبه، فعاد إلى البيت متأخرًا كثيرًا والأرض ابتلعت نصفه فعاد بنصف حياة وهو يفكر كيف سيمر الشهر على أطفاله؟ وكيف سيسامح نفسه لأنه أسقط محفظته سهوًا؟ فبات يسأل الله لطفه وثمة دمعٌ يوشك أن ينهمر لولا بعض صلابةٍ وكرامةٍ وكثيرٍ من الرجاء. في اليوم التالي أعاد أحدهم المحفظة إلى أبي، أجنبيٌ كان يعمل معه وجدها ملقاة على الأرض، فاستطاع من خلال البطاقة معرفة صاحبها،

PDF Eraser Free

عادت المحفظة وفي داخلها عمر أبي وسعادته، تذكُرُ أمي أن الأرض أعادت نصف أبي الذي ابتلعته وقد نبت به الياسمين.

أخبرني عن صفية التي أرسل إليه والده أنه خطبها له وهو في البلد الشقيق يبحث عن منفذٍ أوسع للحياة، فعاد ليتزوج، وكانت صفية هي المنفذ الأوسع للحياة التي تمنّى، هادئة وحنونة، تشبه أمه كثيرًا حين كانت تأخذه من يده وتعود به إلى البيت بعد عناء يوم دراسي امتلأ بالدروس والصراخ والشتم والضرب، أتت صفية وأخذت بيده إلى الحياة والحب ويارا وبكر، وفجأة رحلت وأخذتهم جميعًا معها، حتى أبوه أخذته، تشبه أمه كثيرًا في حضورها الطاغي ورحيلها المفاجئ، وكأن أباه اختارها للشبه بينهما، أو لكأن أمه أرسلتها إليه من الجنة.

في المقابل لم أستطع إخباره عن حورية، ولكني لم أفاجأ حين همس لي:

- سامحها لتعيش.

وأكمل:

- تصبح على خير.

ثم انقلب على جنبه الأيمن وأسلم روحه للنوم، وبقيت مشدوهًا أفكر كيف استطاع قراءة داخلي وأنا لم أَبُح له، هل يعقل أن كل من يراني يقرأني بهذا الشكل الفاضح؟ أم أن عبدالله حالة استثنائية لا يمكن تعميمها على الآخرين؟ هل حقًا

PDF Eraser Free

استطاع سبر أغوار روحي أم أن الأمر لا يتعدى كونه مجرد تخمين أصاب هدفه؟ ألا يقولون رب رمية من غير رامٍ!

أخرجتُ هاتفي باحثًا عنكِ بين برامجه، لأجد رسالة منكِ وصلت خلال حديثي مع عبدالله، يبدو أن الليل يقتصُّ من كلينا حق الآخر دون أن يعلم:

(أعلم أنك نائم الآن، وربما كنت أشاطرك حلمك، قد تخبرني بذلك غدًا ـ كما أتخيل دائمًا ـ فأنت تعلم أن قلبي سيطير من الفرح، لكنه لم يخبرك يومًا أنه دائمًا كان يكف عن الطيران حول نفسه في الفضاء بعد برهة قصيرة جدًّا حين ينتبه أنك كنت تحدثه عن حلم صحوت منه وأنت خالٍ مني).

يحملني قلبي إليكِ ورغبةٌ في البكاء تعتريني، هل حقًا أحتاج لأن أسامحكِ لأعيش؟ ليتني أستطيع غسل قلبي كل ليلةٍ قبل أن أنام كما يفعل عبدالله، بيد أني عاجز عن تطهيري منكِ ومن حبكِ، أحتاجُ إلى ذاكرة بيضاءَ وقلب خالٍ وحياة أخرى، وأحتاج إليكِ أنتِ، أبدأ معكِ من جديد، وأحبكِ من جديد وربما أكثر مما أحببتكِ من قبل، حبًا لا يعرف الغضب ولا الكره ولا الرحيل، حبًا يعيدني إليك كل مساء قبل انطفاء قناديل الشوارع وانتهاء الطرقات.

أتساءلُ أحيانًا لو أني حين قررت السفر جريًا وراء النسيان وجدت أبواب الحياة مشرعة لي على مصراعيها، ووجدت السعادة باسطة لي ذراعيها، ووجدت كل ما أتمناه، لو أنكِ لم تُحاصريني برسائلك الملغمة بالحب والندم

PDF Eraser Free

والاعتذار، هل كنتُ لأنسى وأبدأ حياة أخرى بقلبٍ جديد لا يخذلني كقلبي المعلق بكِ إلى ما شئتِ أنت لا ما شاء هو من الحب؟ هل كنتُ لأبعث لأمي لتختار لي فتاة قروية على ذوقها يُرسلونها إليّ بعد أن أوكّل أحدهم بعقد قراني عليها؟ أو إحضارها معي بعد زيارةٍ قصيرة لا تتيح لي الفرصة للتعرف إليها، ولا أرى سوى وجهها الملون بشتى الأصباغ في محاولةٍ يائسة منها لإرضائي، فلا تنال إلا نفوري بعد أن أكون بمقام من لا يمكنه التراجع بحالٍ من الأحوال، ليس إلا المُضي قدمًا نحو الحياة المأساوية التي لا نتمنى ودعاء صامت بأن تكون لي كصفية لعبدالله، وليتها ترحل سريعًا مثلها، أبتسم بسخرية من لا حيلة له:

- ياللأمنيات البائسة!

تمر الإجازة سريعًا فليست سوى أيام معدودة أُقدم فيها المهر وأعقد القِران ومباشرة إلى المطار لمواصلة الحياة بعيدًا عنكِ كي لا تكدري صفو عيشي إن رأيتكِ صدفة تتوسدين صدر أحدهم أو تأخذينه من يده وتجرين به نحو الفرح اللامتناهي، أو لمحتك تتراقصين كفراشةٍ في عينيه، هل حقًا كان يمكنني فعل ذلك لو أن قلبي لم يتواطأ معكِ ويكيل لي عشقكِ أضعافًا؟ يخذلني قلبي، تخذلني يدي:

- أحتاج أن أسامحكِ لأعيش، أعتقيني من الذكرى بالله عليكِ.

أكتبها وأرسلها، أغلق هاتفي وأبكي كطفلٍ نام على

PDF Eraser Free

صوت أمه وحين أفاق كانت باردة كالثلج، يناديها فلا ترد، يهز كتفيها فلا تستيقظ، يضع رأسه على صدرها وينشج طويلًا فلا تمد يدها وتحضنه، لم تكن مزحة سمجة إذن، رحلت ككل الراحلين إلى الأبد، ينام للمرة الأخيرة على صدرها البارد ويستيقظ على صوت عبدالله وهو يوقظه للصلاة، بيد أن تلك البرودة انتقلت إليه دون أن تأخذه معها في رحلتها نحو اللامعلوم من الحياة، كان يرتجف وهو متكورٌ على نفسه، يضع عبدالله يده على رأسي ويُبعدها سريعًا:

- أنت محموم!

الحمى أشبه بحكاية غير وردية الملامح، تجعلنا وديعين بشكل مبالغ فيه، نتكور على أنفسنا كأطفالٍ رُضّع لا يشتهون من الحياة سوى صدر أم حانية، ولكننا كبرنا وأمهاتنا بتن يخجلن من احتوائنا كلما عجزنا عن البوح وسقطت من حناجرنا بدل الكلمة دمعة. آخذ نفسًا هزيلًا يُحكم السعالُ قبضته على عنقه قبل أن يكتمل، يبدأ بالتقطع والذبول ويأخذني بعيدًا إلى الطريق غير الممهد من الرؤيا، ضعيفٌ جدًا، لا أقوى على الوقوف وأشعر برغبة في البكاء، مصابٌ بحمى في روحي، فلا أنا قيد الحياة ولا أنا رهن الموت، أشعر برغبة في التحرر والهروب من كل شيء، مني أولًا ومنكِ ومن أشيائنا الصغيرة وأوهامنا الكبيرة ولا تسامحيني لأني لم أعد أسميها أحلامًا، قد أستقيل من عملي وأعود وقد لا أستقيل، فالحياة بدون عمل تجعلك تشعر بالوقت الضائع منك، وعودتي تعني بقائي رهن عشقك الذي سيقتلني يومًا إن كان بي

PDF Eraser Free

رمقٌ من حياة، لا جدوى من البقاء هنا؛ قد أرحل، أحتاج حقًا لأن أرحل!

هلوسات الحمى لا تنقطع والكمّادات الباردة لا تفارق جبيني وعبدالله لم يذهب للعمل هذا اليوم، بقي إلى جانبي وتخلى عن راتب هذا اليوم الذي كان سيكون مضاعفًا لولا هذه الحمى التي باغتتني فجأة على حين شوق، كنتُ كلما فتحتُ عيني وجدته في جواري؛ فأسأله: ألم يأتِ الصباح بعد؟ اذهب للنوم كي تستيقظ مبكرًا وتباشر عملك، لا تنسَ أنك ستنال أجرًا مضاعفًا غدًا نتيجة عملك المضاعف، هيا اذهب أنا لست طفلًا لتضع الكمادات على جبيني، وأُغمضُ عيني على ابتسامته لأصحو عليها، هذا الرجل الآتي من قلب الموت أشد صلابةً وتماسكًا مني، يقول لي إنه عرف قيمة الحياة حين التقى الموت وجهًا لوجه وأخذ منه كل من يحب وتركه بعد أن أخبره أنه لن يعود قريبًا إلا ليأخذ حبيبًا أو صديقًا، وأن عليه أن يتقبل الأمر دون أن يرفع صوته أو يولي الحياة ظهره.

بعد يومين من التلظي بقِصاص الحُمى من جسدي، استندتُ إلى جدارٍ قريب من فراشي، أمسكت هاتفي، هل تراها أرسلت؟ هل قلقت لأجلي حين لم أستلم رسالتها، أفتح الهاتف، ليفاجئني برنين رسالةٍ واحدة فقط واردة عبر الفيسبوك قبل أن أتهيأ لاستقبالها، دقات قلبي تتسارع، ما الذي أرسلته؟ هل قررت الرحيل ـ كما رجوتها ـ أم أنها ما زالت متشبثةً بي كآخر كفٍّ تمسحُ بها عَمى الطريق؟ هل ستمنحني الحياة أم ستُسلمُني إلى الموت:

(جميع الأبوابِ مؤصدة؛ أنا أعلم. لا داعي لأن تخبرني

PDF Eraser Free

بذلك فأنا أستطيع النظر جيدًا من خلف نظارتي التي لبستها في غيابك، وربما أكثر مما أحتاج، لذا خذ وجهك وامضِ بعيدًا ولا تلتفت خلفك أو تترك يدًا تمتدُّ لتجمع ما يسقط مني، أعلم أنني أنا من ضيّعك، وأعلم أنه لا سبيل للغفران، كل القرابين التي قدمتها وما زلت أقدمها لا تعنيك، سنوات عمري التي تتساقط عامًا تلو الآخر لم تعد تعنيك، وقد كنتَ قَبْلًا تخشى أن يمر يوم دون وجهي، كل الدمع المطبق على جفني لم يروِ ظمأك للانتقام مني، ارحل يا مختار ارحل، سأعتقك لوجه حبك الذي لم أصنه ولن تعرفه يومًا طالما أنك لا تريد ذلك، مُخيرٌ أنت لا مُسيّر، مخيرٌ باتخاذ القرار الذي تحب ولا طاقة لي على منعك، ولا الوقوف بوجهك أو حبسك خلف جدرانٍ بائسة لم تجمعنا يومًا، بالله عليك ألم تتعب؟ حسنًا يا مختار، اغفر أو لا تغفر، لك ما تشاء؛ ولكنني سأظل لك تلك المرأة التي ما فتئت تُصلي وجهك كلما غربت شمس وأشرقت عيناك، امرأة ما فتحت عينيها على حياةٍ إلا ورأتك بها، امرأة افتتن بها جميع الرجال ولم ينل قلبها سواك، امرأة كل جهاتها أنت وكل أحلامها أنت وكل القناديل التي أوقدتها كانت أنت. تعلم أنك لن تغفر لها يومًا، ورغم ذلك تحبك، تغمض عينيها كلما تخيلت أن امرأة أخرى قد تحل محلها بعينيك، تُهدهد قلبها ـ بطمأنينة العاشقين ـ كلما بكى: ليس له سواك يا قلبي، ليس له سواك).

تخذلني يدي، أُسقطها بهدوء في جواري:

ـ ماذا أفعل بحق الله؟ كل هذا الشتات والضياع لا يبدو أنه سينتهي.

PDF Eraser Free

- أحبكِ. قُل لها أحبكِ فقط ولا تضف شيئًا.

هكذا اختصر عبدالله الأمر بمنتهى الهدوء.

- ماذا لو ردت عليّ كما فعلت سابقًا؟ ما الذي يضمن لي ألا ترفضني مرة أخرى؟

جلس عبدالله في جواري وتنهّدَ بعمق:

- ماذا لو عادت صفية إلى الحياة، أتت وفي يديها يارا وبكر؟ هل تعتقد أني سأفضل البقاء هنا؟ هل سأترك ثانية من عمري تمر عليّ دون أن أملأ عينيّ بتفاصيلهم الصغيرة؟ هل سأنتظر توافر حجزٍ بالطائرة أم سأحمل نفسي وأذهب إليهم طائرًا راكضًا ماشيًا ـ كيفما اتفق ـ ولكن دون دقائق انتظارٍ مُرّة.

- وضعكَ مختلف، حورية رفضتني.

- وندمت. كل هذه السنين كفيلة بأن تجعلك تثق وتتيقن أنها تحبك، لا شيء يجبرها على انتظارك والتوسل إليك لتعود، لا شيء أبدًا يستحق أن نمنحه سنوات العمر إن لم يُمثِّل لنا العمر نفسه، إن عُدت لها ستتمسك بك.

يُبدد عبدالله استغرابي معرفته بتفاصيل حياتي، أو على الأقل توقعها، فيضحك مُفسرًا:

- حين تُحدِّثُ أحدهم عن وجعه وتُسهِبُ في ذِكْر تفاصيل ذلك الوجع فأنت لا تتحدث عن وجعه هو بل عن وجعك أنت، تنفض عنك ما استعمرك ولم تنجح محاولاتك في التخلص منه، فتحدث به الآخرين وكأنك تقرأهم، وما

PDF Eraser Free

تدري بأنك تسرد سيرتك عليهم بالكثير من التفصيل غير الممل، كل كلمة تُخبئ في داخلها حكاية، وكل حكاية تروي مشاعر عالقة لم تنجح محاولاتنا في طيها، اِحكِ يا صديقي، فلا أحد يهتم غالبًا بما تقول، كلنا يقرأ نفسه في حكايات الآخرين، ويرى نفسه في أعينهم، ولكنه دائمًا يحكي وجعه في قصصهم ـ ويضحك ـ لو أنكَ ترى وجهك حين تستلم رسالة، لما سألتني كيف عرفت قصتك؟ الشيء الوحيد الذي كنتُ أجهله هو اسمها، وها أنت تخبرني به الآن ـ ويواصل ضحكته.

يُطل صرصار برأسه من تحت فراشي، أنتفض واقفًا، ما يجعل الصرصار يهرب ليلحق به عبدالله محاولًا القضاء عليه، الصراصير هي الكائنات الوحيدة التي لا أتوانى في قتلها، مازلت أذكر تلك العائلة من الصراصير التي كانت تستوطن إحدى دورات المياه في مشروعنا الأول، نظراتها الواجمة وأنا أغلق منفذها للحياة بالإسمنت، هل تراها كانت تعرف مسبقًا مصيرها بعد انتهائي من عملي؟ أم أن جهلها كان رحيمًا كفاية لتموت دون خوف مسبق. لا أدري لماذا تخيلت أطفالًا خائفين؟ يرتعدون، يتكومون بعضهم على بعض خوفًا من هذا المارد الواقف أمامهم بقبضة الإسمنت في يده كرشّاش يمكن أن يطلقه في أي لحظة فيرديهم صرعى، لا يا أعزائي قاتلكم ليس رحيمًا ليقتلكم هكذا، ستموتون ببطء، أووه ما همي أنا من هذا كله؟ المهم أن أستريح من رؤية هذه الكائنات القذرة. أشارك عبدالله في مطاردة الصرصار الذي اقتحم علينا خلوتنا، نحاصره بيننا فيما يتلفّتُ حوله كمن يبحث عن كوةٍ يهرب

PDF Eraser Free

منها، أرفع رجلي: بسم الله، الله أكبر، محاولة أولى، ثانية، ثالثة، الرابعة كانت القاضية، أبحث عن فجوة ما في الجدار المتهالك، فجوة قد تكون صالحة لأسرة سعيدة من الصراصير، أسرة تتكاثر بسرعة حتى لا يهمها إن فقدت واحدًا منها تحت قدم ساحقة كقدمي ذات الستة والأربعين إنشًا، أم أن عالم الصراصير لديه القدرة على العد والتذكر والحب أكثر مما نستطيع نحن البشر.

أعود إلى عبدالله وضحكاته التي ملأت الغرفة:

- أرأيت؟ صرصار تافه لديه القدرة على إخراجك من كل مآسيك، وإجبارك على الجري خلفه للنيل منه، تتحول فجأة من ضحية إلى قاتل. الحياة تطلب منك المُضي، ألا تتوقف، لأنها هي نفسها لا تتوقف، وحدك من يقف أمام عثراته، بينما يواصل الآخرون سيرهم.

أبتسم بخِزي المنتصر، أحك شعري مُديرًا وجهي عن عبدالله بشيء من الخجل، أشعر أني دون كيشوت وطواحين الهواء ليست إلا صرصارًا صغيرًا خائفًا، يا للعار! لن أقتل صرصارًا بعد اليوم، أتجرع قرفي، هل حقًا أستطيع مجابهة صرصارٍ يمر في جواري دون أن أستنفر كامل قواي الجسدية وأخرج ذلك السفّاح الكامن في جسدي النحيل للنيل منه؟ يبدو أننا نحن البشر لا يمكننا كبح جماح رغبة القتل لدينا حين نجابه من هم أضعف منا وأصغر منا، نحن ضعفاء فقط أمام الأقوياء، أو من نشعر بأنهم أقوى، أو أولئك الذين يملكون ما لا نملك من الأسلحة، فينظرون إلينا كصراصير وجبت إبادتهم. هكذا بلحظة ـ ودون سابق إنذارٍ أحيانًا ـ تُصبح قيمتك

PDF Eraser Free

الكبيرة مساوية لقيمة صرصار يقرف منه الجميع ويحاول الصغير قبل الكبير التخلص منه. تتناوب الأقدام الصغيرة والكبيرة على سحقك، الجميع يتنافسون أيهم يقضي عليك، وأنت لا تملك إلا عينيك الدائرتين بينهم، وذلك القلب الذي يعلم أن ارتجافته ستنتهي قريبًا.

جميعنا يدّعي الطيبة، ولكنه حين يكون بموقف القوي يتمرّد على طبيعته، فيخرج ذلك السواد المختبئ خلف أضلعه، ما زلت أذكر تلك التجربة التي تم تطبيقها على بعض الطلاب الجامعيين، حين تم تقسيمهم إلى مجموعتين، سجّانين وسجناء، الطلاب الذين قاموا بأدوار السجانين ساموا رفاقهم صنوف التعذيب النفسي، كان كل همهم أن ينجحوا في أداء أدوارهم حسب ما يرونه متوافقًا وطبيعة المهنة، بعد انتهاء التجربة كان الطلبة جميعهم بحاجة لإعادة تأهيل نفسي ليعودوا إلى طبيعتهم. هذا يوضِّح أن كل إنسانٍ لديه جانب سيىء بداخله ينتظر الفرصة المواتية ليخرج، فلا يُزكّي أحدنا نفسه بأنه مولودٌ على الفطرة، لأن تلك الفطرة لم تعد والحياة تنهش منها كل يومٍ جزءًا.

يالي من رجلٍ بائس، أخلط الحابل بالنابل، ولا أمسك خيطَ حديثٍ إلا ويوصلني إلى آخر، لا طريق ممهدًا أمامي، كل طرقي ملتوية ومتعرجة، متاهة لا أعرف الخروج منها كلما ولجت إليها، أحتاج دائمًا إلى من يمد لي يده وينتشلني، ضعيف الجسد والقلب والعزيمة، لم أستطع حمل سيفي ومحاربة قرارك فاكتفيت بمحاربة صرصار صغير أعزل وقتله، ووقفت منتشيًا بنصري.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(16)

كقطعة سكر تذوب ضحكاتنا ليسيل
الدمع المالح على الشفاه.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

اختلستُ نظرةً إلى صدري حيث سكنت عينا الشيخ منصور، كنت أرتدي قميص ابنه الذي طبعت عليه صورته، كان هذا القميص هدية شقيقته الصغرى له في ذكرى مولده الأخيرة، سرت قشعريرة خاطفة بجسدي، ووجدتني دون وعيٍ مني أهبُّ واقفًا مُتخذًا قراري:

- سننجزها يا شيخ منصور، كل الأعمال العالقة والمتوقفة سننجزها، لن نتركك وحدك، ليس بيننا مجاهد ليمنحك وعودًا كاذبة، جميعنا هنا صادقون.

ابتلع الرفاق بقايا ريقهم، وكأنهم كانوا بحاجة إلى من يملك شجاعة اتخاذ القرار نيابةً عنهم. ابتسم الشيخ منصور برضا وهو يسحب نفسًا عميقًا إلى صدره الذي خُيّل إليّ أنه كان خاليًا من ذرة أكسجين، اقترب مني واحتضنني هامسًا بأذني:

- كنت أعلم أن الله سيعوضني بك حين أخذ ابني مني، وما أهديت إليك ملابسه شفقة مني أو رغبة في التخلص من ذكراه، بل لأراه في هيئتك، لتكبر فيكبر معك، تضحك فأسمع ضحكته، وتحزن فأحمل عنك حزنك، لا حرمني الله إياك.

PDF Eraser Free

تلك الدمعة الحارقة التي لامست خدي وعادت إلى لحيته كانت كفيلة بترك أثرها في خدّي لأتحسسه كلما فترت همتي وأنا أعمل مع رفاقي كمن لن يسعفه العمر لينهي ما بدأه، ولكننا نجحنا، رغم التعب ونفاد الصبر نجحنا، سلّمنا الأثاث إلى أصحابه، أحيانًا كنا نتأخر أسبوعًا وأحيانًا أسبوعين ولكننا أنجزناه، والحمد لله أن الناس علموا بقصة هروب مجاهد فكانوا متفهّمين لحالنا وسبب تأخرنا، الشيخ منصور كافأنا بأن قسّم عوائد تلك الأعمال علينا بالتساوي، وتحمّل هو تكاليف المواد، وخصني بمكافأةٍ لم أكن أحلم بها، إذ عينني مسؤولًا عن العمل بالورشة، وأهدى إلي هاتفًا بدل الذي وقع مني وانكسر أثناء انغماسنا في العمل لإنهاء الطلبات والعقود التي أبرمها مجاهد وأخذ مقدم إنجازها دون أن يُعلم أحدًا بذلك، الشيخ منصور كان من الطيبة بأن سخر الله له من ينقذه ويقف بجواره في أزمته، أما مجاهد فلم نسمع عنه من يومها أي خبر، ولا أظننا سنسمع.

أسرعت في التعرف إلى الهاتف الجديد، قمت بشحنه وأنزلت به البرامج التي قد تجمعني بكِ مجددًا بعد غياب ما يقارب الشهر، كنت أشعر بشوقٍ يتسرب من دمي إلى أطراف أصابعي وأنا أحاول الوصول إلى أية كلمة منك، مع علمي المسبق بالضيق الذي سيحتل كامل تفاصيلي ولحظاتي بعد هذا اللقاء اللاسلكي.

رسالتك لم تكن أقل لهفة مني، فما إن بدأت كلمة السر بالولوج إلى عالمي الخاص في الفيس بوك حتى أطلت بوجهها

PDF Eraser Free

من خلف الشاشة، رسالة وحيدة كعادتك حين تغيبين فترة وتأتين حاملةً كل العتب وكأني أنا الذي غبت، أو لكأني أنا من أجبركِ على الغياب، ناسية أو متناسية أنكِ وحدكِ كنت صاحبة القرار الوحيد في حياتنا.

(هذا المساء يدرك أنني أشتاق إليك، طويلٌ لا يحل عني؟ ألا يخنقك كل هذا الكم من الظلام المحيط بك؟ لماذا لا تمد يدك وتحاول تشتيته قليلًا، تنفضه عنك بعصبية لم يعتدها منك؟ لماذا لا تثور بوجهي كما لم تفعل من قبل، العمر لا ينكص يومًا إلى الوراء، وهذه الأيام التي تغادرنا لن تعود، ألم تتعب؟ ألم تختنق؟ ألم تكتفِ من كل هذه السنين التي مضت ولن تعود؟ أرغب في العيش ولن يكون إلا معك، وحدك القادر على منحي الضوء الأخضر لمواصلة العمر، لا شيء يستحق أن تلوث هذا النقاء المحيط بقلبك، دعك من طيشي الذي عهدته، تعامل معي بقلبك الذي عهِدت، دائمًا كنت أردد أنك ابن السماء، قلبك يشبهها اتساعًا، وهي تشبهك جمالًا، أعلم أنه ذنبي، لم أمنح صوتي دقات قلبي، وأعلم أنني لطالما كابرت بغية الحصول على كل شيء، وها أنا بلا شيء، كيف أخبرك أنني تعبت؟ كيف أقولها لك؟ تعبت من المضي خلف محاولات فاشلة لنسيانك، لترك رائحتك على شرفات الأمس وفتح نوافذ روحي للغد ليدخل الحلم ضاحكًا، ولكن؛ لا الغد يأتي ولا الأمس يتركني لحالي، لن أخفيك أنني حاولت استبدالك بآخر، ولكنني لم أستطع، هذا القلب الذي تعرفه أو لا تعرفه ـ لم أعد متيقنة، كل ما ظننته

PDF Eraser Free

حقًا يومًا ما أصبح مشكوكًا فيه ـ لم يستطع التواطؤ معي ضدك، اختارك ولفظني. بعضُ الحبِّ يُولدُ مشوهًا، هذا الحب الذي يولد لخطيئة النسيان وكفّارة الوهم، كلما أسلمتُ نفسي له، عدتُ إليك بتوبةٍ أُقسمُ أنها توبة نصوح، ولكني دائمًا ما أرتدُّ وأحنث بأيماني وأهرب منك لألتجئ إليك، متى ستنتهي هذه اللعبة؟ أنا لا أدري، ولكني أُقسمُ غير كاذبة: إنني تعبت، أعلم يقينًا أني لا أريد سواك، أنا من أفلت يدك وضيّعك، ولكني لم أعد أحتمل، كلما فكرت في منح قلبي لرجلٍ آخر تأتي ساعيًا من أقصى الضلوع، ولا تهدي إلي نصحك ولا صوتك ولا أي شيء أنتظره. لا تمنحني سوى الانتظار الذي لا ينتهي، تقف أمامي صامتًا فأذوب، أتلاشى، أتشتت، أُضيعني. هل تذكر شعري الطويل؟ قصصته أخيرًا؛ كل ذلك الطول لا يليقُ بامرأة حزينة، وأنا دفنت ابتسامتي حية بعد رحيلك، كيف أُقنعك بالرجوع؟ كيف تُصدق أنني لم أعد فاتنة الجمال؟ ذبلتُ كثيرًا كشتلة الياسمين في شرفتنا، هل أُرسل إليك شعري ليبكي بين يديك؟ هل سيأخذك من يدك ويحضرك معه وهو عائد؟ أم أنك ستتركه ليسقط في الغربة وحده؟ من سيوبخني لأني قصصته؟ أنت تعلم أن لا أحد سينتبه لطوله الذي لم يعُدْ، وحدك كنت من يهتم بأمره، وحدك من كان يسألني: كيف هو شعرك؟ هل طال منذ الأمس؟

الآن؛ وبعد هذا الوجع الطويل، ما زلت عاجزة عن الرد على قلبي حين يسألني عنك، حين ترتد نبضاته دون أن تحمل وجهك، حين تشرق الشمس ولا يعود الصغير الذي غفا على

PDF Eraser Free

يديك مساءً، ما زلت عاجزة عن طلب الغفران منه وقد تواطأت مع الطيش ضده؛ فكنتُ اليد التي انتزعته من الحياة بلا هوادة. هل سيكفي أن أربت كتفه وأبتسم تلك الابتسامة الصفراء التي لا يعرفها ولا أنت عهدتها؟ أم أن عمرًا من الصمت سيدور بيننا دون أن أقنعه أن القرار لم يكن بيدي، وأنني خائفة؛ مني، من كل الذي سقط مني، أخشى أن ينبت شوكًا بدمي، أن يقف كالموت في أوردتي، أن يذوب كل هذا الصبر المر بحنجرتي وأبكي.

حين كنت عائدة من العمل بالأمس شعرت بخطواتٍ تجري خلفي، لم أخف، شعرت بأن قلبي ينتفض بين أضلعي كطائرٍ فتحت أبواب قفصه وسُلِّمَ فجأة للسماء، فلم يدرِ ما يفعل. يا للخيبة؛ لم تكن خطواتك تلك التي التفت قلبي ليراها، كانت الريح تجري خلف الأوراق المتساقطة من شجرة خريفية وحيدة، كنت قد أدرتَ ظهرك ومضيت منذ سنين خمس لم أكتفِ من الاكتواءِ بنارها. ظللتُ وحدي أتجرع غيابك وأبكيك، أبتسم لكل رنة هاتف علّها أتت بك، وأقفز من فراشي لكل رسالة قد تحمل رائحتك، ولكنك لم تأتِ. كيف يستطيع الرجل ألا يلتفت خلفه بعد كل رحيل بينما تظل المرأة تلعق بقاياه من جسدها كلبؤة مجروحة تعلم أنها لن تبرأ مما ألم بها؟ وأنها صائرة إلى الموت ـ لا محالة ـ ليست إلا مسألة وقت بدأ يتناقص. كيف له أن ينام ويأكل ويقابل الأصحاب والغرباء دون أن تقل مناعته ويصاب بالحمى ويرتجف بردًا كلما هبت نسمة شوق تحمل رائحة امرأة كان يناديها: حبيبتي.

PDF Eraser Free

أتآكل شحوبًا ونحولًا، تفضحني الهالات السوداء حول عيني، يعلم الجميع بخيبتي أو هكذا أشعر. يااااال خيبتي؛ ها أنا أطرق باب هاتفك محملة بالذنب والحب والشوق والورد والكثير الكثير مما لا أستطيع عده من الحزن.

عيناكَ اللتان أورقتا في عيني يومًا وتفتحتا كقبائل بنفسج في دمي لم تطفئا لوعتي هذا الصباح. من يقنع الصبح أنك رحلت؟ ومن يتجرأ على التماس عودة المساء؟ لا أحد سواي يفعلها لأجلك، أحمر الشفاه الصارخ الذي وضعته هذا الصباح كفيل بإشعار الجميع بانزعاجي، يبدو عليه كل الكلام الذي لم أهمس به لك، كان يمكنني الحديث وكنتَ قادرًا على الاستماع، ولكن كلانا اختار ألا يمنح صاحبه ما يشتهي، كلانا اختار الوضع غير المريح له لذا ليس سهلًا علينا تجاوزه، قرارًا غير مرغوبٍ فيه، قرارًا كان ينبغي وأده قبل أن يكبر ويمنحنا كل هذا السواد تحت أعيننا، وأحمر شفاهٍ مزعج لا يمت إلى الصباح بصلة).

- أنهي قراءة رسالتك وأغلق هاتفي محاولًا التخلص من رائحة أحمر شفاهك، تعلمين أنه اللون الذي لا أحب، لذلك وضعته لتواصلي إزعاجي الذي بدأتهِ، تعرفين كيف تعكرين صفو روحي بتصرفٍ مُباغتٍ لا أتوقعه؟ لا تُكملين جميلًا بدأتِهِ، وأنا لا أعلم متى سأعتاد الأمر؟ كل هذه السنين لم تُعلمني أنك الطينة المعجونة بالجحيم في صدري، أنتِ الوحيدة التي لا يمكنني ركنها على الرف والمضي بعيدًا، تركها للغبار ليتراكم عليها ويمحو

PDF Eraser Free

ملامحها ونسيانها، ما زلت أحملك معي أينما ذهبت، تتأبطين وجعي وضعفي والأحاديث الحائرة على شفتيكِ توشِكُ أن تفرّ منها ولا تفِرّ، تعلمين أي الجراح تنبشين وأي وقت، لم يخنك ذكاؤك مرة، دائمًا تفضلين الجرح غير المندمل، ولم يندمل إلى الآن لكِ جرحٌ، تعبت من رسائلك التي لا تتوقف، تعبت من قلبي الذي لا يتوقف، تعبت مني وأنا أنتظر رسائلك المزعجة. يؤسفني أنني وأنا هنا ما زلت أصف الكلمات جنبًا إلى جنبٍ بحثًا عن حوارٍ قد أكمله معك، أو كلمة هربت من لغتي دون علمي علني أجدها فجأة فأقفز فرحًا كالأطفال، لا أدري لماذا تختصر جميع الحكايات في عينيك الصغيرتين بلونهما البني القاتم. كل الذي لم أقله، كل الذي قلته ولم تسمعيه، كل الكلمات التي تعلمتها مازالت عالقة بطرف فمي تنتظر أذنيك، تعلمت أن أبلع جميع كلماتي خشية أن تسقط مني ويلتقطها غيرك، كل شيء ناقص، لا شيء يكتمل معي هنا، الحزن هو الذاكرة الوحيدة المكتملة، يأخذ من أفراحنا ولحظاتنا وكلماتنا وأمانينا ليكمل نقصه، هو يكبر ويتضخم ونحن نبدأ بالتداعي أمامه، كقطعة سكر تذوب ضحكاتنا ليسيل الدمع المالح على الشفاه. لن يأتي اليوم الذي أكرهك فيه، أنا أعلم ذلك؛ ولكنني أعلم أيضًا أن هذا القلب لم يعد أعمى ليحبك!

أذكر أني كنت كصبيٍّ مراهقٍ أكتب اسمكِ على الجدران

PDF Eraser Free

ثم أمحوه لكي لا يقرأه غيري. ألف مرة بعد المائة والخمسين كتبته. وثلاثمائة بعد الألفين محوته. دائمًا أعود خوفًا من حرفٍ يطل برأسه خلسة من خلف الطلاء. كطفلٍ عنيدٍ لا يمل التشبث بطرف قلبك مازلت، كلاجئٍ لم يعرف له وطنًا إلا الغربة، وحين تعلم المشي لم يجد أرضًا تعترف به ابنًا، أخبروه أنه ولد غريبٌ ولا مناص من موته غريبًا، الخيارات ليست بأيدينا دائمًا، مغلوبون على أمرنا غالبًا، كبُر اللاجئ ووطنه في عينيه يكبر ولا يراه، وحين أصابه العمى لم يُخبر أحدًا أن الوطن الأخضر بعينيه ذبل.

يمضي النهار سريعًا ليأتي الليل حاملًا هداياه البغيضة لنا، إنه ليس اليوم الأخير كما يبدو، وليس الذنب الأخير أيضًا، مازلنا نبحث عن ذنب يليق بهذا الحزن وعذر لا يهم أبدًا أن يكون جميلًا، لا يضطر أحدنا لأن يقصَّ رؤياه على إخوته، فإخوته لا يرقبون عينيه ليل نهار، لا يعنيهم الاسوداد الذي بدأ يزداد قبل نصف قلق. بعضهم سيظن أن الأمر مسألة وقت، آخر سيقول: ربما هو السهر، أخٌ ثالث قد يظن بأنه العشق، أما أنا فما زلت أظن أن ثمة رؤيا يدسّها الليل تحت عباءته، هذا الليل الذي تستيقظ فيه الأغنيات والحشرجات، نبكي فيه دون سبب أو لعلنا نخبئ أسبابنا تحت الوسائد غير المخملية تلك التي ندفع رؤوسنا بداخلها فتحتوينا أو تبتلعنا لتشرب ما غافلنا من الدمع. نحلم بالقليل جدًا ويهرب من أحداقنا الكثير دون أن ندري. لا بأس، لا بأس، كل شيء سيكون بخير؛ فالحمد لله ـ هكذا نحاول هدهدة مخاوفنا من

PDF Eraser Free

غدٍ بلا بطاقة شخصية ولا ملامح تتضح في هويته ولا حتى بطاقة مقيم خائفٍ من الترحيل المباغت. أحيانًا أتمنى لو أني كنت شاعرًا أو أديبًا لأكتب ولو قليلًا، أكتب عن أوجاعنا؛ نحن الجبناء الخائفون من ظلالنا أن تثور، أكتب عن حبيباتنا اللواتي تخلين عنا، أو أولئك اللواتي سرقهن أحدهم ومضى بهن مقابل حفنةٍ لا وزن لها تُسمى المال، لا بأس بأن تسرق حبيبات الآخرين، حتى وإن كان المقابل أن ترى حبيبها السابق في عينيها وهي تنام بحضنك بسكينةٍ مفتعلة أو غير مفتعلة فقد تكون اطمأنت إلى حضنه لا حضنك ـ لن تستطيع يومًا تبين الأمر إلا إن أخطأت ونادتك باسمه، ولا توجد امرأة بهذا القدر من الغباء؛ فاطمئن ـ أكتب عن الحرب التي نقتاتها وتقتاتُنا كقوتٍ لا يُسمنُ ولا يغني من جوع، عنا ونحن نُجمِّلها وهي المشوهة بدماء غيرنا. تبًا لنا ونحن لا نموت خزيًا ولا نذوب خجلًا، تبًا لنا ونحن نعيش كالجبناء، ونموت ميتة الجبناء، حتى أحلامنا الصغيرة ستضحك الشمس عليها غدًا حين تهم بالشروق وتصادفها أمامها متزينة كعروس، هذه الأحلام التي ظنناها صغيرة كان اتساع الكون أضيق من احتوائها. ستضحك الشمس كثيرًا وستهتز كرشها المتدلية مؤمِّنةً على ضحكاتها علينا ونحن نجري بلا هوادة نحو طريق نعلم مسبقًا أنه مغلق، ولكننا نمضي على أمل أن نتجاوزه على جثث من سبقونا ولا ندري أن خلفنا مَنْ يأملون تجاوزه على جثثنا.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

(17)

نُقرمش ماضينا في حكاياتنا
كحبّات الفستق التي يستعصي
بعضها على الولوج إلى لبّه فنكتفي
بالاستمتاع بقشرتها وتلك الملوحة
الطاغية بها، كجدراننا القديمة
بملوحتها الواضحة الأثر.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

- لم نُخلق للموت؛ سنعيش معًا؛ أعدك.

اليمُّ الذي ألقيتِني فيه يومًا، سارَ ظللكِ خلفي ليتقصى أنفاسي، وينتشلني في اللحظة التي يتحينها الموت لقطفها، وأعادني إليك لننعم بالحبِّ والسلام أخيرًا.

هكذا أرد برسالةٍ أحسم بها حالة الشتات والتردد التي لازمتني خمسة من الأعوام، وبدلًا من التسكع مع الرفاق أذهب إلى الشيخ منصور أستسمحه الرحيل، وكأيّ أبٍ حنون طفرت من عينيه دمعة لم يُفكر في إخفائها خلف الغبار الذي دخل عينيه فجأة، أو نسمة الهواء الباردة من التكييف المركزي، هذه الدمعة مسحتها بيدي وأنا أضعها على وجهه:

- سامحني، لا بد أن أعود؛ سأتزوج ـ أقولها بشيء من الحب والخجل والارتباك ـ سأظل على تواصلٍ معك، أعدك.

(ما أكثر الوعود التي أهبها هذا اليوم، تأتي وعودي كقسائم مجانية، ولكنها هذه الوعود تجعل قلبي كنافذةٍ ربيعيةٍ تستقبلُ الربيع أخيرًا، أشعر بالبرودة تتسلل إلى عيني لأول مرة منذ ذلك اليوم الذي لن أذكره بعد اليوم، أشعر بأنني خفيف كطائر، نقي كسماء)

PDF Eraser Free

- تزوج وأحضر زوجتك، سأكون سعيدًا بكما معًا، وبرؤية أبنائكما.

- أمي أيضًا تحتاج إلي، آن لها أن تتكئ على كتفي، أشياء كثيرة تحتم علي البقاء هناك، أعلم أنك ستشتاق إلي، وأنا كذلك، عاملتني كابنك وهذا أمر لا يُنسى، سأحاول القدوم لزيارتك بقدر استطاعتي، كلما رزقني الله طفلًا سأحضره لك لتباركه.

انسحبت بهدوءٍ خجِل وتركته، أمضيت بقية النهار مع الرفاق، تشاكسنا كثيرًا وتندرنا بخبر عودتي، ولكن أحدهم لم يتمكن من إخفاء سعادته بهذا الخبر الذي طال انتظاره، حتى أنا شعرت بسعادة لا يمكنني وصفها، أشعر بأنني الآن خفيف جدًا، وكأني كنت أحمل أطنانًا من الحزن على ظهري، الحقد الذي زرعته بصدري أطل بوجهي ككذبة، أحبك بقدر ما قلت لكِ إنني أكرهك؛ وأكثر، أيتها المناضلة الحسناء، من يستطيع فرض حضوره عليّ سواكِ، من يمكنه اقتحام حدودي ولا أحاربه، أُسلمه راياتي ليعليها كيفما ومتى شاء، طفلتي التي تكبر ولا تكبر، تتوهج أنوثة وتفتنني طفولة. أطمئن إلى جواز سفري الذي استعدته قبل فترةٍ وجيزة بعد الشكوى التي قدمتها ضد السيد كومار كابور، وعاونني بها أحد معارف الشيخ منصور، فحصلتُ على جواز سفري وإقامة شرعية، لم أكن أعلم أنني سأحتاج إلى الجواز بهذه السرعة، ولولا ذلك لكنت الآن أضرب أخماسًا بأسداس لا أعلم ما أفعل لأتمكن من العودة.

PDF Eraser Free

أحجز تذكرتي للعودة، لم أكن أحتاج إلا إلى طريقٍ واحد يأخذني إليكِ، حوّلتُ ما تبقى من مدّخرات وأبقيت ما يكفيني لخمسة أيام مدة بقائي رهن الغياب الذي لم يعد اختياريًا كما كان، أصوِّر التذكرة وأبعثها إليكِ ليطمئن قلبك.

- ستجدني بثوب الزفاف في المطار، سأحضر المأذون ليعقد قِراننا هناك، يجب ألا نُضيّع دقيقةً واحدة بعد الآن، سأُحضر أبي وخالتي أم مختار، فجميعهم ينتظرون هذه اللحظة منذ أمد بعيد، والآن أتركك لأبشرهما ومن ثم سأذهب مع خالتي أم مختار لاختيار خاتم الزواج وفستان الزفاف، لا أحتاج إلى شيء آخر مما تجري خلفه الفتيات من ملابس جديدة وغيرها، كل ما أحتاج إليه أنت؛ بك أحصل على كل شيء، أعدك أنني لن أُضيعك مجددًا أبدًا.

هكذا تفرضين حضور الابتسامة على شفتي، تعلقين وجهكِ مع النجوم التي بدأت بالبزوغ، يتفرق الرفاق وأبقى مع توفيق الذي تشاركت معه في الغرفة وحيدين أخيرًا، للمرة الأولى ينقص عددنا بالغرفة ليصل إلى اثنين أنا وتوفيق ـ بعد أن تركنا عبدالله قبل أسبوعين عائدًا إلى بلده باحثًا عن فرصةٍ لحياةٍ قد تنبت بصدره من جديد:

- لا أحتمل البقاء بعيدًا عن بلدي رغم الحب الذي وجدته هنا، لا يمكنني العيش شريدًا، سأعمر منزلًا جديدًا بعد أن أتحمل مسؤوليتي في الدفاع عن بلدي واستعادة أمنه. هذه النار التي بصدري لن يُطفئها مكوثي هنا.

PDF Eraser Free

رحل عبدالله، تاركًا لي وتوفيق غرفة لها مساحة كل الغرف نفسها التي مررتُ عليها، هذه المساحة التي بقيت على عادتها معي، وكأنها كانت مكتوبة في عقد العمل الذي أتيت به إلى هنا، توفيق الذي هرب من بلده بعد عامين من غياب زوجته، بحثوا عنها بكل مكان ولا أثر، وكأن الأرض انشقّت وابتلعتها، أخذ والدها أطفالهما لتربيهم جدتهم، ربما تعوضهم غيابها غير المبرر أو المفهوم، حين أتى كان كالمحموم لا يهنأ له نوم، يطارد وجهها كل ليلة قبل أن ينام، وتطارده هي بمجرد خلوده للنوم، لم يكن أمرًا سهلًا أن تختفي امرأة من بيتها فجأة، امرأة مُحبة لزوجة وأطفالها، كل الوساوس قد تراودك وكل الشكوك قد تغدر بك:

- الأيام الأولى كانت أشبه بجحيم حقيقية، ما بين خوفي وهلعي عليها وبين أعين أطفالي الحائرة والباحثة عنها، هل أخبرك عن أول يومين مرّا وأنا مكتوف الأيدي؟ والشرطة لا تستدل لها على أثر، وكأنها لم تكن امرأة تمشي على الأرض قبل هذين اليومين، أو كأن اسمها وصورتها وبصماتها وآثارها مُحيت إلا من السجلات المدنية، يومان؛ ولا خبر يقينيًا بأنها بخير أو أنها قد تعود أو تشي بمكانها لأحد، هاتفها المغلق، عباءتها التي لم ترتدها، ملابسها البيتية التي خرجت بها، طفلنا الأصغر الذي يبكي من يومها ولم تنجح زجاجات الحليب الصناعي في إلهائه عن دفء حليبها الذي كانت تُغدقه عليه بسخاء دون أن تخشى أن يجف نبعها أو

PDF Eraser Free

تهترئ حلماتها، سارة ابنتنا الكبرى ذات الأحد عشر عامًا تُقسم إنها رأت أمها وهي تخرج من الغرفة، وحين سألتها عن وجهتها قالت:

- حبيبتي تعلمين أن مريض السكري يحتاج للذهاب إلى دورة المياة بين الفينة والأخرى؛ نامي يا عيوني نامي.

كل هذه الأشياء تجعلني أدور حول نفسي، أضربُ أخماسًا بأسداس ثم أعود إلى دائرتي المغلقة بلا بداية أفهم بها ما حدث ولا نهاية تُغلق الباب الذي فتحته، ترى أين ذهبت مريم؟ هل آن أوان إخبار الشرطة بفقدها؟ ولكن هل هي مفقودة فعلًا؟ هل تم خطفها أو أنها خرجت من المنزل بإرادتها في ليلةٍ قمرية بيضاء لا يشوب بياضها سوى نجمةٍ غفت قبل الفجر فأفل نورها وسقطت على الأرض فالتقمتهما هذه الأخيرة معًا ثم غطّت في سُباتٍ عميق لا يليق بحاملة البشرية والحياة، استوطن أهلها منزلنا منذ أن اتصلت أسألهم عنها وأنكروا علمهم بما قد يبعث الحياة مجددًا في شراييني التي انفجرت جميعها فجأة، أعينهم التي ترقب حركاتي وسكناتي وكأنهم يحاولون قراءة صمتي علّهم يهتدون لما أحاول إخفاءه عنهم من قصة غيابها التي لا يعرفون تفاصيلها، كيف أقنعهم أنني أكثرُ جهلًا بها منهم ومن أطفالنا الذين استيقظوا صباحًا على غيابها وبكاء محمود وهو يبحث عن صدرها بفمه ثم بيديه ثم بعينيه ثم ببكائه الذي أيقظ إخوته ولم يُوقظها من غيابها القاتم، لا أدري كيف هان عليها محمود الذي اعتاد أن يتنفسها فجرًا، ويداعب أصابعها

PDF Eraser Free

كفقّاعات صابونٍ بثمانية ألوان تعلم أنها اللون الطاغي بها، ويحبو مع خيوط الشمس صوبها كلما افتقدها، ويظل يجذب تلابيب ثوبها حتى تحمله فيضحك أو تُوليه ظهرها فيبكي، فتضطر للعودة إليه ناكصة على حبها العظيم له، دعنا من محمود؛ ماذا عن سارة طفلتنا البكر التي قاربت توديع الطفولة ومعانقة الأنوثة؟ لقد لمّحتْ لي إلى بوادر أنوثتها التي بدأت باكرًا، وبأنها في هذا الأمر تشبهها إذ استقبلت أنوثتها وهي في الحادية عشرة من عمرها المُزهر، من سيُفهمها الآن ما عجزتْ عن الانتظار لتمنحها إياه من وصايا وتهاني لا يجيدها سواها، من سيكون لها كدفء صوتها وحنان صدرها؟ وأنا؟ ألم تفكر فيّ؟ ألم تتساءل ماذا قد يحدث لذاك الذي يعشق الأرض التي تمشي عليها وكأنها ملكة أسطورية لا يحق لأحدٍ التحلّق حولها إلا لينظر إلى جمالها ويُشبع عينيه من ملامحها الملائكية كغمامة شاردة في السماء تتابعها كل الأعين ولا يطال مطرها أحد.

- هل سنقف هكذا مكتوفي الأيدي؟ وابنتي لا نعلم عنها شيئًا، وكأن الأرض انشقّت وابتلعتها، أو كأن جنيًا ماردًا اختطفها وأخذها لعالمه ليُكمل بها عدد أميراته أو جواريه.

قالها عمي والد زوجتي مريم وعيناه تفيضان بالغضب والحنق، ولو أن الأمر بيده لاقتلع عيني من وجهي قبل أن يرتد إليّ طرفي الذي أرمق به الجدار المختنق بوجهها أمامي.

PDF Eraser Free

أبلغنا الشرطة ولكن الأيام تبصق غيابها في أرواحنا، أخذ عمي أطفالي بمجرد معرفته باختفاء ابنته، ولم أكن أقوى على منعه، فمن سيُفهم سارة أن أنوثتها التي تتفتح لن تجد أمًا ترويها، ومن سيصنع لمحمود الحليب حين يستيقظ من النوم ولا تكون أمه حاضرة، بعد عامين أغلقت الشرطة القضية دون تفسير، فأتيت إلى هنا، أتصدق؟ بعد عامين من اختفائها مازال أمر اختفائها سرًا لم يستطع أحد كشفه، أسرّت الشرطة إلي أنني أستطيع الحصول على شهادة وفاة لها ولكنني رفضت، هكذا يختتم توفيق أحاديثه عن عائلته وزوجته التي لا يعلم إن كانت حية أو ميتة، تمشي على الأرض أم أنها استوطنت باطنها.

يأخذني توفيق من يدي، أو بالأصح آخذه من يده وأجري به، نجول في السوق الشعبي المليء بالغرباء، قريبًا لن أكون غريبًا، ستُجلجلُ ضحكتي في شقتنا في الدور الثالث، في الشارع المقابل لبقالة الحاج عبدالحليم، اسمه الحقيقي عبدالعليم ولكن الناس أسموه عبدالحليم لأنه يصدح بأغانيه طوال الوقت، فيتداخل صوته وصوت حليم المنبعث من قلب جهاز التسجيل القديم، سأُحيّي بائع الخضار وأشتري منه بعضها للغداء، سأترك ضحكة أخرى في النادي حيث كنتُ أمارس الرياضة لتنمو عضلاتي ولم تفعل، سأترك أخرى على متن قاربٍ صغيرٍ يعبر بي وحورية نهر النيل، سأترك لي ضحكة في كل مكان، لن أبخل بضحكتي على بائعي الذرة المشوية المُصطفّين على الكورنيش، وسآكل الكشري اللذيذ الذي تُعده

PDF Eraser Free

الحاجة عليّة ويتهافت عليه الجوعى من العمّال والمارة وسأنقدها مع الأجرة ضحكة تشبه عينيها الحنونتين، سألعب الكوتشينة على طاولات قهوة الحاج بسيوني وسأتشاطر ضحكتي مع صبي القهوة إبراهيم الذي ترك المدرسة قبل أن يكمل الصف السادس، وعمل بالقهوة ليُعيل أمه وأخواته البنات بعد وفاة أبيه ولن أنسى أن أترك له مبلغًا على طاولة الشاي قبل أن أرحل، وأخيرًا سأمر بالمكتبة وأشتري بعض الكتب فعيناي بدأتا تؤلمانني من قراءة الكتب الإلكترونية.

بائعو الأحذية الجلدية والأسماك الرخيصة المليئة بالأشواك والملابس المستعملة، أمر عليهم جميعًا دون أن أشتري شيئًا، جميعهم كان يرقبني من طرفٍ خفي، أراهن أنهم كانوا يستشعرون سعادتي التي حاولت إخفاءها عنهم خشية أن يخطفها أحدهم دون أن أشعر به، نشتري عشاء ليلتنا ونمضي، أخرج التذكرة من جيبي وأمسكها بيدي، أستشعر دفئها، أغمض عليها يدي خشية أن تسقط منها مع الكثير مما يسقط من ذكريات خمس سنينٍ مضت كأنها عمري كله، وكأن الكونَ فضاءٌ فسيحٌ لا حد له، تتلاشى البنايات التي لا تتعدى الطوابق الخمسة من وجهتي، الشوارع الفارغة من السيارات، الكون بمجمله لا يحمل إلا وجهك، وكفي التي أشد بها توفيق من يده العالقة بكفي، حاملين عشاءنا بيدٍ وتذكرةً للعبور إلى الحياة بيدٍ أخرى، لا شيء يعكر صفو أفكاري إلا هذا المُقبل نحونا، لا أعرف كيف أصفه، شيءٌ خرافي يشبه الطائر إلى حدٍّ كبير ـ كالذي رأته أمي في منامها قبل يومين ـ بيد أنه بلا أجنحة،

PDF Eraser Free

يمتُّ إلى الشمس بصلة قرابة ولكنه لا يعترف بالوقت ولا الشروق والغروب، لا أعرف إن كان كائنًا حيًّا أو غير حي لكني متيقن أنه يتحرك بسرعة تفوق استيعابي، أنا الذي اعتدت أن أسمع الجميع يصفونني بحضور البديهة والذهن المتوقد وسرعة الفهم أقف كالأبله منتظرًا صفعته على وجهي لأنتبه. أووووه، كيف أخرجه من عقلي أقصد كيف أقنعه بإخراجي من عقله؟ هذا الذي لا هم له سواي، ليت أحدًا يجيبني، أشعرُ بالدماء تتسابق إلى رأسي لتوقظه، كطوفانٍ لا يهدأ كانت دمائي وهي تجري آخذةً معها كل ما تجد بطريقها من عُمرٍ وذاكرة وأمنيات، حتّى أنتِ رأيتها تجرفك معها، أبي وأمي وحارتنا التي بدأت الدولة بترميمها ومحاولة حيازتها بإقناع قاطنيها بأنها حارة أثرية ويجب أن نحافظ على تاريخنا من الاندثار، منذ متى كان التاريخ أهم من الحاضر والبشر؟ ورغم الوعود التي تقدمها الدولة لأهل الحارة بأن يتم تعويضهم وبناء منازل جديدة، ورغم أن بعض السكان ارتاحوا للأمر لأنهم سيستبدلون بيوتهم بأخرى أحدث إلا أنهم نسوا أن الجلود لا يمكن استبدالها بأخرى، وأنهم لن يجدوا بهذه البيوت ضحكاتهم وأفراحهم وأمانيهم، لن يجدوا بها طفولة أبنائهم والصور التي سيحملونها معهم لن تكون دافئة حين يعلقونها على تلك الجدران الجديدة والملونة بألوانٍ برّاقة لتُنسيهم ألوان جدرانهم الباهتة، ولو لمسوها لصعقتهم برودتها، لماذا كل هذا التشبث بالماضي مستمدين منه حياة أقرب للموت، مع يقيننا التام بأنه سيأتي حاملًا معه أطنانًا من الوجع، ونظلُّ

PDF Eraser Free

نُقرمش ماضينا في حكاياتنا كحبّات الفستق التي يستعصي بعضها على الولوج إلى لبّه فنكتفي بالاستمتاع بقشرته وتلك الملوحة الطاغية بها، كجدراننا القديمة بملوحتها الواضحة الأثر، رباه كم تبدو جميلة! أجمل بكثير من تلك التي يقولون إنها جديدة، فنحن لن نجد بها ضحكاتنا التي نسيناها يومًا في شرفةٍ تطل على شرفة جارنا العم عبدالرزاق بعد أن أصبحنا جميعًا أبناءه لأن الله لم يرزقه أطفالًا، نتسابق لخدمته وزوجته الخالة كريمة، وهو لم ينسَ يومًا أن يعاملنا كفلذات كبده، دائمًا يستبق لقب ابني أسماءنا على لسانه، ودائمًا نجد في جيبه ما لذ وطاب من الحلويات وكأنه محل حلوياتٍ متنقل، الغريب أن جيبه يتسع لكل ما يجعلنا نجري إليه بمجرد لمحه من بعيد، وكلنا يقين أن آخرنا كأولنا سينال ما يشتهي من يده الطيبة، ورغم ذلك كنا نتسابق لاحساسنا بأن الذي يصل أولًا يستحوذ على الحُبِّ أكثر من غيره، ويفوز بدفء الحضن الذي سيقل كلما تأخر دورك في احتضانه. زوجته الخالة كريمة كانت تنزعج من تراكضنا إليه كلما عاد إلى منزله متأخرًا وتوبخنا بحجة أنه يجب أن يرتاح بعد عناء يوم طويل إلا أنها تضع في جيب كل منا شيئًا تهمس لصاحبه: لاً تخبر صحبك عنه فهذا المبلغ لك وحدك، وحين نخرج نجد في جيب كل منا المبلغ نفسه الذي نعدّه ثروة لا ينبغي تفويتها بحالٍ من الأحوال. ولن تبعث أمي بصحنٍ من غدائنا إلى جارتنا أم إسماعيل لأن ابنها لا يحب اللحم الذي أعدوه لغدائهم، ولكي لا يكمل يومه جائعًا تسأل أمي أن ترسل له شيئًا من غدائنا، فآخذه لهم ولا

PDF Eraser Free

أنسى أن أمد يدي في الطريق وآكل بعضه وأمسح فمي قبل أن أطرق بابهم ثم أخفي جريمتي بمسح وجه الطبق بيدي وترتيبه ليبدو كأن يدًا لم تمتد إليه، وأختم فعلتي بمسح يدي في جيب بنطالي الخلفي إمعانًا في إخفاء جريمتي، ورغم ذلك وخوف بقاء حبة أرز عالقة في بقعة ما من وجهي تشي بفعلتي لها أظل أمسح وجهي طوال الوقت إلى أن تُغلق جارتنا أم إسماعيل بابها ويخفت صوت دعواتها لأمي ولي وجميع إخوتي بأن يزيد الله رزقنا ويتضاعف أجرنا وتتبارك أحلامنا ولا أعود أسمع شيئًا، أظن أنها تتذوق غداءنا الآن.

تتصادم الكثير من الأصوات داخلي، ولا أدري أأعرفها أم أنها غريبة عني؟ الأكيد أن أغلبها ذكوري، لا يوجد إلا صوت أنثوي وحيدٌ كان يجري نحوي يسبقه هلعه، ذلك الصوتُ كان صوتكِ أنتِ، حتى أمي لم يتدافع صوتها والآخرين، أظنُّها وكّلت دعواتها أمري، وربما علمتْ بأنك الوحيدة القادرة على بعث الحياة في عروقي فبعثتكِ واكتفت بمراقبتي من بعيد مستنجدة بصلواتها والدعاء الذي لا يزال لسانها رطِبًا به: (أستودعكَ الله الذي لا تضيعُ ودائعه) تحاول أن تُقنعَ سجادتها الخضراء التي أحضرتها من مكة حين ذهبت في رحلةٍ للعمرة قبل سبعة أعوام أنها هادئة مُطمئنة لا ترتجف قلقًا، ولا تطوي دموعها بكفّيها المرتعشتين. أمي الصغيرة التي لا تشبهها امرأة في الكون، كانت في الثالثة عشرة من الطفولة حين تزوجها أبي، يقول أبي: إنها أحضرت لعبها معها حين تزوجها، ما جعله في ورطة، لا يدري أيعاملها كزوجة أم

PDF Eraser Free

كطفلة؟ فقرر أن تكون طفلته وزوجته متى نضجت أنوثتها، في كل مرة كان يحمل لها هديتين: لعبة وثوب أنثوي قصير، فرحتها باللعبة تجعله يشاركها في اللعب، ولما احمرت وجنتاها خجلًا من ذلك الثوب الماروني علم أنها لم تعد تراه أبًا، فاحتواها كزوجةٍ وحبيبة وبقيت طفلته المدللة رغم الفقر، تعلمتْ منه أن تُطعمنا حبًا كلما باغتنا الجوع وأبي بعيد يبحث لنا عن لقمة عيش تتأخر أحيانًا أكثر مما نحتمل، فيضيق صبر أبي ويسعه صدر أمي، يوصينا أبي بأن نكون كأمي كتلة حب لا تنفد، وتوصينا أمي بأن نكون كأبي نحمل الحب أينما ذهبنا، وعجزت أن أكون كأمي وما كنتُ يومًا كأبي وهو يسألنا في كل مرة يخرج بها من المنزل: ماذا أحضر لكم معي؟ يسألها بكثيرٍ من الحب ويحضر ما نتمنى بكثيرٍ من السعادة، لكنها الأيام لا تمنحني فرصة التشبه بأحدهما.

PDF Eraser Free

(18)

كفقّاعة صابون عبرتها الريح،
ننتهي.

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

أغمض عيني متشبثًا بالحياة، عَلّي أستيقظ وأكتشف أن الأمر لا يتعدى كونه حلمًا ثقيلًا أحمدُ الله وأنا أضع يدي على قلبي مطمئنًا إلى نبضاته السافرة، تاركًا لأنفاسي ما شاءت من التردد بصدري. رغم علمي أني لست إلا رقمًا سيستسلم يومًا للنقصان؛ جميعنا أرقام فائضة يود الكون لو تتناقص ليخفّ حمل الكرة الأرضية علّها تتسع للأرقام المتزايدة كأنها يأجوج ومأجوج مستعصية على العد بعد أن أذن الله بخروجها.

لستَ إلا رقمًا فائضًا عن حاجة الكون ـ هكذا يهمسُ صوتٌ بداخلي، صوتٌ يُخيّلُ إليّ أني أعرفه ـ في اللحظة التي قد ترحل أنت يستبدلك بآخرين غيرك، هل سمعت يومًا أن تعداد البشر يتناقص؟ بالطبع لا، الأرقام في تزايد مستمر، السماء لا تبكي لموت أحد، والأرض لا تُفرّق بين جثة وأخرى، تقبلها جميعًا، تمنح كل واحدة منها مساحةً تشبه تلك التي تمنحها لأختها، إلا إن طغى الإنسان نفسه على أخيه، وما أكثر الذين طغوا، ودفنوا البشر جماعاتٍ في قبرٍ واحد أو تحت أنقاض منازلهم. جميع الراحلين يجدون من يبكيهم أيامًا وأشهرًا ربما، وأخيرًا يخلدون إلى النسيان، ويعيشون كما ينبغي، يضحكون، يأكلون، ينامون، ويبكون أحيانًا لأسبابٍ

PDF Eraser Free

كثيرة لا تكون أنتَ أحدها غالبًا، ولكن ربما، في غرفةٍ مظلمة تجد قلبًا يشتعل لتُضيء ذكراك.

يتصاعدُ الخَدَرُ إلى رأسي لا يردُّه شيء، تأتين كأمنيةٍ لا تتحقق، دمعة لا تفارقني وكف لا أستطيع إليها سبيلًا، أبحثُ بفزعٍ عن صدرك أُسقط عليه رأسي، أراكِ تتهاوين أمامي، تخذلُك قدماكِ فتسقطين جاثيةً على ركبتيكِ، يدوّي سقوطكِ على الأرض وكأنها لا تحتمل ثقلك، تبدين مُثقلة بي، عاجزة عن نفضي أو الجري إليّ والتقاطي بين يديك، تسقطين قبلي:

- مازال الوقت مبكرًا على الرحيل، كيف سيكون طعم النهار بدون صوتك؟ كيف يمكنني تناول إفطاري بلا وجهك. صباح الخير؛ هل ستكون شهية على شفتيّ إن لم تلتقطها أذنك؟ كيف لي أن أودعك وأترك لغيابك ما شاء من قضم أظفاري، أعد الأيام ولا تنقضي؟ تستفزني المساءات الطويلة ولا تأتي، أُصدِّقُ أنك وعدتني أن تعود ولا تعود، خمسة أعوام لم أتوقع للحظة أن تمتد لتخطف عمرنا كله على غفلةٍ منا، خمسة أعوام ظننتها انتهت بك إليّ، ولم أتخيل للحظة أنها لم تكن سوى البوابة التي عبَرْتَها بعيدًا عني.

أرقب سقوطكِ وأبكي. أُغمضُ عينيّ مُرغمًا، شيءٌ ما يقبض على يدي ويسحبني بعيدًا، يوغل بي في ظلامٍ دامس، ظلام أُبصر به كل شيء، كل دقيقة مرت من عمري، انتزاعي من رحم أمي هل تراه يشبه نزعي الآن من روحها وأنا بعيد

PDF Eraser Free

عنها؟ أمي، يااااا أمي، لا أدري حجم الألم الذي سأتركه في قلبك بعد غيابي، ولكن؛ أسأل الله لكِ السلوان فاسأليه لي الرحمة والمغفرة، أسأله أن يبعث في روحك ذكرياتي الأجمل، وأن يُرسلني في ألف قبلة أطبعها على جبينك كل ليلة قبل أن تنامي، أن أزورك في الحلم كلما أوجعك الشوق فآتي على هيئة طفلٍ أو وردة أو أمنية حلمنا بها معًا أن أصيرها ولم تتحقق. أن يبعثني ربي طفلًا، كي أرسم برعمًا أخضر حول قبري وأطفالًا مشاكسين يقتلعونه كل مرة فأعود أرسمه لينمو من جديد كشجرة توت تصنعين منها مربى التوت المفضل لديك، أو وردة بنفسجيه كفيلة بإرضائكِ كلما نسيتُ أن أُهدي إليك قُبلة في عيد الأمهات الذي تعلمين أنني لا أحبه، بعد أن سرق صديقي مُحسن حين سقط وهو يجري بقبلته إلى أمه في حفلة المدرسة، سقط وسقطت قبلته معه ولم يقفا من جديد، إن وجدته ينتظرني فسأقرئه يا أمي سلامكِ وقُبلاتي.

الله يا أمي لو يبعثني حاكمًا عربيًّا لا يقاتل شعبه ولا يعتدي على جاره ولا يأكل قوت الفقراء، حاكمًا يرى في شعبه صور أطفاله الصغار، وفي ضحكاتهم سر سعادته، وفي سعادتهم طوق نجاته من النار. هل يمكنُ أن يبعثني حكايةً قبل النوم تُروى لأطفال المقابر، أغنية تهدهد بكاءهم الحزين، ملاكًا يحرسهم وهم يلعبون، قطعًا من السكاكر الملونة تذوب على شفاههم فتصبح أكبر وأشهى. وضحكاتٍ ترتسم على وجوههم الجميلة وأعينهم الغائرة، وأمًّا لا تموت. وليس بعيدًا على رحمته وقلبه الكبير أن يبعثني عصفورًا يحملهم على ظهره

PDF Eraser Free

ويطير بهم إلى الجنة حيث يهبهم روحه من جديد. أو قلبًا يورق زيتونًا كلما سقطت من طفلٍ دمعة؟ صدرًا يرتمي فيه الأطفال أمنًا كلما أطلق طائش رصاصته؟ بيتًا يسع جميع الخائفين والراكضين بعيدًا عن الموت، هل أبالغ بأمنياتي كثيرًا؟ حسنًا؛ سأكتفي بأن يبعثني معطفًا لطفلة تجري خلف أعواد الثقاب المنطفئة علّها تخبرها معنى الدفء أو الاحتراق. أو طفلٍ ينام على الرصيف بانتظار كسرة خبز ويحلم برداءٍ لشتائه الطويل.

أمد يدي في الظلام علّي ألمس كتف أمي فأطبطب عليها، أو أمسح ما جرى من دمعها ولا حيلة لي برده. يتراخى جسدي، أفقد الاحساس بالكثير من أجزائه، الشيء الوحيد الذي أبقى محافظًا عليه هو هذه التذكرة التي رُسم بها طريق عودتي.

يمدُّ أبي الراحل يديه ويبكي:

- لم يحن الوقت بعد يا مختار، لا تستعجل يا حبيبي، رغم شوقي إليك إلا أنني أحتمل الانتظار، لا تعجل إليّ لأرضى؛ فأنا راضٍ عنك، مُنذ أتيتَ إلى الحياة وأنا راضٍ عنك، لا تأتِ فالذين يأتون هنا لا يعودون.

تتسابق المشاهد، تحدث وكأنني أعايشها اللحظة، جميعها يمر خاطفًا إلاكِ وأنتِ تسقطين يسقط قلبي معكِ. هل حقًا سأرحل؟ تاركًا لكِ الدرب والشوك والورد، تاركًا الأمنيات والعثرات والليل الطويل، وما تشائين من الحلم الذي

PDF Eraser Free

رسمناه أخيرًا معًا، لا يمكنني الجزم ما الأكثر وجعًا؛ رحيلي أم بقاؤك؟ ولكن يمكنني القول إننا نحن الاثنين نخرج من هذه الحكاية بلا شيء، نتركها لتنتهي دون أن نخطط فعلًا لنهايتها أو ننتظرها أو حتى نتخيل أن تنتهي بسقوطنا معًا دون أن ينجح أحدنا في مد يده للآخر وتلقّفه. أن ينتهي بي العمر هنا، بعيدًا عن كل من أحب، وحيدًا كيوم وُلدت.

هل تراكِ كنت تتوقعين مثل هذه النهاية؟ وأنا؟ هل كنتُ لآتي إلى هنا لو كنت أعلم أن الخاتمة ستبدأ من هنا؟ وأن البوابة التي ظننتُ أنني أعبرُ منها إلى الحياة، ستكون هي ذاتها بوابة عبوري الأخير منها.

يالسخرية الأقدار، أشعر برغبة في الضحك، بل البكاء، لا الضحك، لا بل هو البكاء، حقًا لم أعد أدري ما الذي أشعر به في هذه اللحظة التي لا تمر، وكأنها عمرٌ انفصل عن عمري مُرغمًا فعشت به عمرًا آخر بعدد دقائق العمر الذي انقضى في لمح البصر.

خائف ومستسلم، ضعيف ومهزوم، مغدور من الجميع، من الوقت والعمر والحياة، ومني قبل الجميع. أشعر بالكثير من الارتباك، لا أستوعب كل هذا الذبول الذي يستشري بروحي بشكل مباغت وسريع، لم أعد أشعر بالألم، أفكر في يدي، هل ستنبت لي أخرى يومًا ما؟ لا يهم، لا أحتاج إلى يد أخرى، ولا إلى قلب آخر، أريد قلبي الذي كسرتِه يومًا، أريده مملوءًا بكِ كما هو الآن.

مجبرٌ على الرحيل، لم أعد مُخيرًا كما قلتِ يومًا،

PDF Eraser Free

سأرحل وحيدًا كأول مرة تعلّمتُ بها الرحيل، صاحبني في الطائرة بشرٌ لم أُحصهم، ولكنني كنتُ وحيدًا، والآن ربما كانت هناك روحٌ أخرى تُقطف، نجمةٌ تنطفئ، وردةٌ تذبُل، ولكنها لن تُصاحبني، ولن ترافقني في طريقي المجهول، تُرى كم طائر يغصُّ بتغريده الآن؟ كم قبر يُحفر وكم قبر يُردم؟ كم تابوتًا تُوقدُ له الشموع؟ وكم واحد يُهالُ عليه التراب؟ كم جسد يُصلى عليه بلا ركوع؟ وكم آخر يتبعه المشيعون بالنشيج والدموع؟

أسوأ ما بالموت أنك لا تُشاطر أحبتك البكاء عليك، لا تمسح الملح الطافي على أجفانهم بعد نوبة بكاءٍ حارقة، لا تراهم وهم يتساقطون خلفك، ولا تملك كفًّا تمدها لاحتضانهم علّ ذلك السعير المتأجج في صدورهم يهدأ ولو قليلًا. ترحل دون أن تحمل حزنك معك، تتركه لهم ليتقاسموه بينهم كباقي تركتك من الحب والمال ـ إن كان ثمة مال ـ ترحل وأنت تعلم أنْ لا شيء سيبقى طويلًا بعدك، ستذبل ذكرياتك معك، ويلوذ كل أحبتك بالنسيان، ربما يتبادلون اسمك مع سلام الصباح ويُقرئون روحك السلام والحب والرحمة، بعضهم سيبعث اسمك في رسائله الهاتفية إلى أحبته، وقد يمتد تأثير رسالته إلى أحبة أحبتك المتناثرين في الكون الفسيح ليعود مرتدًا إليك، فيكبر كثيرًا ليصغر كثيرًا، سيثرثرون بك طويلًا، ولكنهم يومًا ما ـ سيأتي دون أن تكون متهيئًا له ـ سينفضون منك أحاديثهم الصباحية، ويسكبون اسمك مع آخر قطرة قهوة تبقت في فناجينهم، ربما رافقت

PDF Eraser Free

أحدهم في طريق العمل صباحًا، ولكنك بالتأكيد لن تعود معه مساءً فحرارة الشمس كفيلة بإذابة أي ذكرى لا تدغدغ القلب ببرودة تبعث على الاسترخاء والرجوع إلى الخلف صوب المقعد الجلدي بكل أريحية. لا شيء يدوم طويلًا؛ هكذا علمتك الحياة، وهكذا سيعلمهم رحيلك.

مُختار، يا صديقي الطيب ـ يعود الصوت بداخلي إلى الظهور ـ يا صديقي الذي كنتُ أظنه أنا حتى اللحظة الفائتة من الصدمة، هل كنت تعلم قبل ثلاثين عامًا وأكثر وأنت في ظهر الغيب أنك ستأتي إلى الحياة يومًا ما وترحل عنها بيوم مشابهٍ له؟ يوم لا يحمل الغيم ولا يبشر بالمطر. تولد مساءً وتموت مساءً وكأن النور يتبرأُ منك وينفضكَ عنه كي يستمر. تستغرب فعلته؛ أنت الذي كنتَ تُضيء غرفتك كلما أطفأ أحدهم مصابيحها لأنك تخشى النوم في الظلام، تشعر أن العتمة تشعل الحنين، ولا شيء يُخيف كالحنين حين يستوطن الروح، تخشى الأرواح التي لم تعد تأتيك خلسة، تخشى الموت في الظلام، تخشى ألا يراك أحد وأنت تموت، ها هي نبوءتك تتحقق ولا تتحقق يا صديقي الوحيد، تموتُ على مرأى من الجميع ولكن لا أحد يمد يده ليحضنك، ألم أخبرك يومًا أن لا شيء يكتمل بهذه الحياة أبدًا؟ وأن كل ما نجري خلفه لا نصل إليه، وكل الذي بكينا لأجله لم يُخلق إلا ليُبكينا.

كفكف حزنك يا صديقي، فحتمًا أنت لم تحلم بأسوأ من هذه النهاية، إنها تبدو مأساويةً أكثر مما توقعت، المصابيحُ

PDF Eraser Free

أُضيئت لأجلك، وربما تجد خبرًا يحمل اسمك غدًا في الجريدة، وحتى إن نسوا ذكر اسمك؛ فلن ينسوا ذكر الغريب الذي كان يحلم بوطنٍ وحبيبة يعود إليها. فأبى الموت إلا أن يخطفه منهم.

هكذا، وعلى حين غرةٍ من الفرح، ينتهي كل شيء، بلا موعد أو سابق إنذار، كحلم ينتهي قبل أن تستيقظ، كفقّاعة صابون عبرتها الريح، كغيمة مرت بسماءٍ لم تكن يومًا صافية ولم تمطر. نرحل كأننا لم نكن يومًا نعبرُ أدق التفاصيل القريبة للقلب، كلون الفراشات يمحوهُ الضوء، نرحل فلا نتركُ أثرًا خلفنا يدل علينا العابرين بعدنا الطريق نفسه، كأننا لم نكن إلا فراغًا لم يلحظه أحد.

يتوقف كل شيء، المصابيح لم تعد تجري، ضربات قلبك يهدأ ضجيجها، والخوف الذي سكنك يغادرك، لن ترى أمك تصلي، ولن تبكي حوريتك على صدرك، أو تهمس بأذنك: اشتقت إليك، متى ستعود؟

PDF Eraser Free
Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com
goodReads بالعربي
goodreads-ar.com

بدرية البدري

العبور الأخير

ارتبكت وخفت، علمت أنه إن كبر سيقتلني، عيناه الواسعتان بلونهما العسلي الغامق كعسل سدرٍ لم يحل عليه الحول وَشَتَا لي بذلك، نظراته التي كان يسددها باتجاهي أقسمتْ على ذلك، لستُ خبيراً بلغة العيون ولم يسبق لي أن تمكنت من قراءة عين أحدهم، ولكن هذا الطفل كان مختلفاً، يمكنكَ قراءة عينيه من النظرة الأولى؛ قتلته، نعم؛ أعترف لم يكن أمامي خيار آخر، كان يغني؛ تلك الأغنية أعرفها جيداً، اعتدت على سماعها دائماً في كنيسة مجاورة لبيتنا كلما مات أحدهم.

ISBN 978-9953-93-014-5
9 789953 930145